سلسلة رواد التعاون

١

روبرت أوين

تاريخه - أفكاره - مشروعاته

دكتور كمال حمدي أبو الخير

بسم الله الرحمن الرحيم

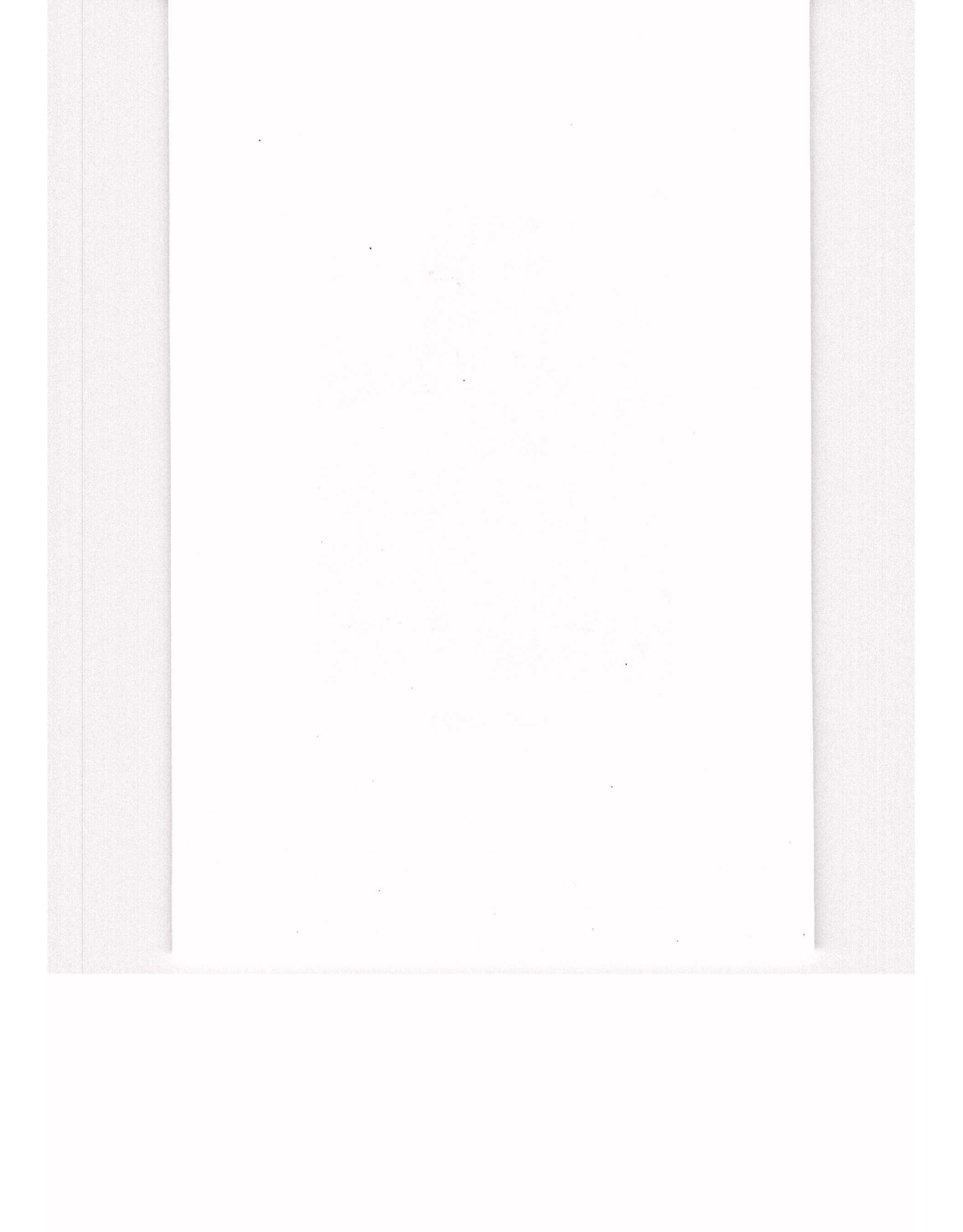
سلسلة رواد التعـاون

(١)

روبرت أوين



روبــرت أوين



محتويات الكتـــاب

تقـــديم

مدخل الى سيرة روبرت أويـن



بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدنى أن اقدم للمهتمين بالدراسات التعاونية الكتاب الأول عن سيرة روبرت أوين الذى عــاش فيمـــا بين ١٧٧١ الى ١٨٥٨ ، والذى أجمـــع التعاونيون فى شتى أنحاء العالم على اعطائه مركز الصدارة فى ارســـاء اللبنات الأولى من أجل تحقيق تطور عملى لاقامة صرح بنيان تعاونى يسعد الجميع ، والذى كان يؤمن باهمية المتجر الاستهلاكى فى ظل الظروف التى كافح فيها من اجل صالح الطبقات العمالية ، وكان يقول فى ذلك جمـــلة مشهورة « يستطيع المجتمع أن يبنى متجرا ··· ولكن لا يستطيع المتجــر أن يبنى مجتمعا ·

ان المحاولات الأولى للاقتصاد التعاونى التى سبقت روبرت أوين كانت تخدم ظروفا محدودة او تحل مشاكل فى نطــاق ضيق ولعدد صـــغير من الافــراد ، ولهذا لم تنجــح كخطة عامة ، لأن طبيعتها جعلت منها مخــرجا مؤقتا ، ولم يكــن قد وجـــد بعد ذلك الرابط الفلسفى الذى يخلق فكــرة اجتماعية تضم كثيرا من ذوى المصالح المشتركة فكان « مبدأ » أو أســـلوب التعاون تعوزه الفلسفة الاجتماعية والمحتوى المعنوى الذى يختلف عن المثل والقيم التى كانت تسير الرأسمالية الحرة وتخضعها لتوجيهاتها ·

وقد اختارت الأقدار روبرت أوين الذى نشأ نشأة متواضعة ، حيث أن اباه كان يحترف حرفة صنع سروج الخـــيل فى ولاية ويلز بانجلترا ، وكان يعـ . وهو فى ســن العاشرة ككاتب فى دكان مانيفاتورة ليكســـب عيشه ، اـ ارت الأقدار روبرت أوين لكى يعرض هذه الفلسفة ويحاول نشرها حتى استحق أن يلقبه المؤرخون بأبى التعاون فى العصور الحديثة ·

كان أوين فى بدء حياته من رجال الأعمال الناجحين ، ولكنه لم يكــن من المغامرين الذين يبحثون عن الثراء والشهرة ، بل كان انسانا خيرا هاله ما شاهد فى أواخر القرن الثامن عشر من المساوىء الاجتماعية التى تسببت

فيها الراسمالية ، فاشترى فى عام ١٧٩٩ مصانع للغزل فى مدينة نيولانارك (على نهر كلايد) ليديرها طبقا لنموذج مثالى رسمه فى ذهنه ، وتوضح المراجع العلمية أن روبرت أوين عندما آلت اليه هذه المصانع كان عمالها من حثالة الرجال والنساء السكيرين والسكيرات الذين يعيشون فى جو من القذارة تشمئز منه النفوس ، ولا سبيل الى الاعتماد عليهم فى انجاز العمل أو اتقانه · أما الأطفال فهم من يتامى الملاجىء ، وكان جل همه مساعدة الطبقة العاملة وتحسين حالتها ، عن طريق تخفيض ساعات العمل مع رفع الأجور ، واختيار الأحداث الذين يعملون فى المصنع من ذوى السن المرتفع ، وقد أثبتت بذلك أنه على الرغم من ارتفاع تكلفة الانتاج قد استطاع أن يحقق ربحا · ثم أخذت مساعدته للطبقة العاملة تمتد خارج المصنع ، فبنى لهم منازل وأصلح القديم من منازلهم ، وفتح المدارس للأطفال والكبار وكان يحرص دائما على أن يقرن عمله هذا بدعوة رجال الأعمال فى حرارة وقوة الى أن يحذوا حذوه ، ومطالبة المسئولين بالاصلاح الاجتماعى فى شتى النواحى ، ولكنه مع هذا لم يكن ثوريا أو انفعاليا فى مطالبه ·

كانت محاولات أوين الأولى محاولات انسانية مثالية ، فكانت تجد لذلك جاذبية لدى الكثيرين فى داخل انجلترا وخارجها ، وقد شجع هذا أوين – مع معارضة شركائه – على تحديد الأرباح التى تدفع لرأس المال المستثمر وكأنه بذلك كان يحاول أن يخلق علاقة جديدة بين الأرض والعمل ورأس المال ، وكان يعتقد أنه يضع مثلا يحتذى به غيره من الرأسماليين ، ونسى أن الروح المثالية التى كانت تسيره هو لم تكن هى الروح السائدة فى مجتمع غلبت عليه الأهداف المادية ، واستأثرت بمقدراته طبقة أصحاب النفوذ المادى والسياسى ·

وكان أوين يعتقد أن شخصية الفرد تكيفها البيئة والظروف المحيطة به – وهو اعتقاد صائب فى رأينا – ولكن بشرط أن تكون الظروف ذات أثر شامل وجزءا جوهريا من بقية المؤثرات الاجتماعية الأخرى · كما كان يعتقد أن النظم التى أدخلها فى مصانع نيولانارك ستوجد مجتمعا صغيرا كاملا ومثاليا · ولما نجح مشروعه فى أول الأمر أعتقد أن التعاون – لا المنافسة

الحرة ـ هو مفتاح التنظيم الصناعى الأمثل ، وظن أنه يستطيع تطبيق نظامه على جميع انواع النشاط الانتاجى ، وأن المعاملة الطيبة لطبقة العمال باعث قوى يدفعهم الى تحسين كفايتهم ، وأن من الحمق أن يعامل أصحاب الأعمال عمالهم ، بخلاف المعاملة التى اتبعها معهم ٠

الى هنا كان وروبرت أوين مجددا ومصلحا اجتمـــاعيا ناجحا ، بل لا نبالغ اذا قلنا أنه كان المبشر الأول بمبادىء حسن الادارة الصـــناعية وأسس رفع الكفاية الانتاجية للعمال بالطريقة العملية والسيكولوجية ، ولكن أوين لم ير فى نفسه مجرد مصلح اجتماعى أو ادارى ناجح ، بل ترك العنان لعاطفته ومثله ، ولم يشأ أن يقف جامدا ازاء التطور السيىء الذى آلت اليه الحالة الاقتصادية والاجتماعية وبخاصة بعد الحروب النابليونية ، من الفقر والبؤس والأجور المنخفضة والأمراض المتفشية ، وبخاصة بعد أن فقـــد الثقة برجال السياسة والمسئولين ٠

اننا نوجه النظر الى أن هناك نقطة تحول خطيرة فى فلسفة أوين ٠٠

فقد نادى بأن دفع الاعانات للعاطلين اهدار للكرامة الانسانية ، وضياع للأموال العامة وأن تلك الأموال يمكن استخدامها فى بناء مجتمعات نموذجية لتشغيل هؤلاء العمال وتعليمهم واطعامهم ، وهذه المجتمعات أو المستعمرات أو الوحدات الجماعية تستطيع أن تنتج الغذاء والكساء اللازم لأعضائها ، فتحقق لنفسها الاكتفاء الذاتى بعد أن تقف على أقدامهـــا ، وبذلك تعفى الخزانة العامة من أعباء الاعانة ، وتوفر المال الذى يمكن استخدامه لانشاء عدد آخر من الوحدات الجماعية ، لا للعمال العاطلين فحسب وانما لجميع العمـــال ٠

على هذا الوضع كان أوين يتصور الخطة اللازمة لاقامة مجتمع رشيد منظم يقوم مقام نظام الرأســـمالية الحرة ، وكان يتخيـــل أن مستعمراته التعاونية الصغيرة سوف تنتشر فى جميع أنحاء العالم ، وكان كلما وجـد معارضة من « الأليت » الحاكمين لصيحته ومطالبته بالتشريعات الاصلاحية ازداد اقتناعا بفكرته واندفاعا الى التحمس لها ٠ ولم يعدم هذا الرائـــد

الأول للفكر التعاونى أن يجد مؤيدين لآرائه ، وخاصة من قاموا بشتى المحاولات لتطبيق مبادئه ، سواء بكامل وضعها الذى تصوره أوين وبنى عليه تصميمه ، أو تعديلات اقتضتها التجربة العملية ٠

لقد تكلم روبرت أوين عن أن الانسان لا يمكن أن يكون حسن النية أو سيئها بالسليقة ، أو أن الذكاء والغباء وغير ذلك من الصفات تكون موروثة فيه ، أنه ينكر ذلك ، ويرى أن تطبيق الوسائل السليمة جدير بخلق المواطن الصالح ، ومن أجل ذلك نراه ينادى بانه يجب على السلطات الحاكمة أن تقيم المشروعات المناسبة لتعليم الشعب وتدريب الأطفال على العادات الطيبة منذ حداثتهم ، واحاطة صحتهم واخلاقهم وعاداتهم بعناية خاصة وسياج متين ، والى حسن الانتفاع بعملهم ٠ ويرى بعض الكتاب أن اساس « الأوينية » ـ قائم على اساس نظرية التعليم كوسيلة لتكوين الأخلاق والحصول على السعادة فان أوين مؤمن كل الايمان بقوة التعليم وقدرته فى توجيه شئون العالم نحو الرفاهية ٠

ويلاحظ أن أفكار أوين كانت تنطوى على عنصر من عناصر الشيوعية المسيحية ، ويقصد بها المعيشة الجماعية التى تسيرها المثل المسيحية ٠

واذا كانت نماذج مستعمراته التى اقامها قد فشلت من حيث كونها اسلوبا جماعيا عمليا للمعيشة التعاونية ، فقد كان هذا الفشل لأنها لم تنشا من صميم الحاجة الماسة عند هؤلاء الذين اشتركوا فيها ٠ بل كانت من وحى أحلام الداعين للحركة ، وهذا أمر يجب أن يأخذ حظه من الاعتبار والتقدير عند من يحاول أن يوجد مجتمعا مثاليا فى معيشته ، بمعنى أن عليه أن يقدر من هم المشتركون فى هذا المجتمع ، وقد كان أوين مبالغا فى التفاؤل عندما تصور أن الفقراء والعاطلين يمكنهم أن ينتظموا فى مجتمع تعاونى مثالى ، وفاته أن الفقر والجهل يصحبهما انحطاط فى المستوى الخلقى والنضوج الاجتماعى ، وأن ذلك يستحيل معه أن ينظم الفقراء والجهلاء فى مجتمع عالى المثل والقيم ما لم يصحب ذلك توعية وتثقيف وتدريب وتعليم ودعاية وتوجيه مستمر لبث الروح الجماعية فيهم ٠

وقد تعددت آراء المؤرخين فى تفسير أسباب فشل محاولات روبرت اوين وانهيار فلسفته ، فمنهم من اتهم الطبقة الحاكمة بانها كانت السبب فى معارضة مشاريعه وتعطيلها ، ومنهم من أرجع سبب الفشل الى عدم النضوج الاجتماعى وقتئذ ، ومنهم من اتهمه بالمثالية المتطرفة ٠٠ ومنهم من ذهب غير ذلك من لآراء ، ولكن هؤلاء المؤرخين كانوا فى بحثهم عن أسباب الفشل يسيرون ضمن اطار مغلق ، وعلى هدى منطق واحد اساسه الاعتراف بفضل الأفكار التى كان ينادى بها أوين ويسعى الى تحقيقها ، والاشادة بمثله العليا وجهوده المتصلة على أساس انها كانت محاولة دفعه اليها حب الخير والرغبة فى الاصلاح ، وكان لابد أن ينجح لو كانت الظروف مواتية لنجاحها ٠

وفى غمرة هذا التبجيل والاحترام لآراء أوين أغفل المؤرخون جانبا هاما يعتبر – فى رأيى – العنصر الأساسى الذى تولدت منه أسباب فشل المستعمرات النموذجية التى حاول أوين ان يقيمها ، ذلك أن المجتمعالبريطانى فى تلك الفترة كان يسير بقوة ديناميكية نحو نظام الانتاج الكبير ، وكان الهيكل الاقتصادى الذى أوجدته الثورة الصناعية يستند بكامل قطاعاته على الضخامة فى الانتاج والتوزيع ، ولم يكن ثمة سبيل بعد أن أرست الثورة الصناعية قواعدها الى العودة الى نظام الانتاج الصغير أو النظام الحرفى ، بعد أن اتضحت المزايا العديدة لوفورات الانتاج الكبير ٠

هذه القوة الاقتصادية الديناميكية كانت تسير بالمجتمع اقتصاديا الى الأمام ٠ وكان من اللازم المحتم أن تدفع معها نظام الحياة الاجتماعية الى الدرجة التى تحقق التجاوب بين التنظيم الاقتصادى الجديد وأسلوب المعيشة ، فاذا أتى انسان وسط هذا التيار الجارف وحاول اقامة مستعمرات صغيرة تهدف الى الاكتفاء الذاتى ، ثم زعم أن هذا هو الأسلوب الأمثل للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فانه بذلك يكون كمن يسعى الى تحقيق حركة (رجعية) من الناحية الواقعية ٠ وهذا ما فعله (أوين) فقد كان يريد العودة الى تقسيم الهيكل الاقتصادى الى قطاعات وجزئيات صغيرة ويقوم كل منها بالانتاج فى حدود طاقة محدودة ، ولا شك أن محاولة كهذه أضعف

من أن يكتب لها مجرد البقاء أمام التطور الاقتصادى الشامل الذى بدل حياة المجتمع كله وأوجد له دولة قوية تفرض عليها مصلحتها القومية الابقاء على نظام الانتاج الكبير ، بل العمل على ازدياد حجمه وضخامته ، لهذا لم يكن نظام أوين يصلح بديلا للنظام الرأسمالى القائم وقتئذ ، ولكن تجاربه كانت لها ناحية هامة من نواحيها ··· وهى الايمان الذى كان يدفعه اليها والحماس الذى اظهره هو وأتباعه فى الدعوة اليها واغراء الراى العام بها ، وقـــد تمخضت تلك التجارب عن ظهور صعوبات عملية ، وكانت فى أول الأمـــر تخضع للتبديل والتنقيح فى عدد الآراء المبعثرة غير المحكمة من ناحيـــة العمل والتخطيط ولكن الأيام جعلت من هذه التجارب والآراء مادة تبـلورت منها الآراء التعاونية التى تتجاوب من الناحية العملية مع مطالب الاقتصاد الحديث والمجتمع الديمقراطى المنشود ·

لقد خلف لنا أوين وأتباعه تراثا فكريا قيما من المبادىء والطـــرق والأساليب التعاونية لا يمكن انكار آثاره فى تطور الحركة حتى صارت الى ما صارت اليه فى الأحقاب التالية ·

لقد كان أوين يهدف أول الأمر الى مساعدة العاطلين ، ثم اتســعت أفكاره وامتدت لتشمل الانسانية جمعاء ، واليوم نجد التعاون الحـــديث قد انتشر فى جميع بقاع الأرض على اختلاف صوره واشكاله ·

ولعل قراءة سيرة وكفاح روبـرت أوين تدفع الأجيـــال الجديدة من التعاونيين العرب الى أن ينظروا الى التعاون نظـرة علمية فى اطار مـن الحب والود والاعزاز المتبادل والعطاء للمجتمع بما يحقق السعادة والرفاهية لجميع التعاونيين وللبشرية جمعاء ·

والله الموفـــق

دكتور/ كمال حمدى أبو الخير

الفصـــل الأول

روبرت أوين وزمانه

ROBERT OWEN AND HIS TIMES

« الثورة الصناعية » مصطلح حديث لكن الفكرة قديمة قدم الأحداث التى تصفها ، ولم يساور من عاصروا هذه الفترة من التغيير الاقتصادى الحاسم التى وصلت القرنين الثامن عشر والتاسع عشر معا ، أى شك فى طبيعتها الثورية ، ولم تكن الثورة فى الصناعة من نفس جنس الثورة التى عاصرتها فى فرنسا ، بل تميزت بخلوها من حدث معين كان هو المسيطر البارز على سيرها ، كما تميزت بأن انجازاتها لم تزدحم وتتكتل فى سنوات قليلة من الكوارث والاضطرابات العنيفة ، لكنها بالمقارنة بسقوط « النظام القديم » فى فرنسا سارت فى بطء وبخطوات كل منها فى ذاتها قليلة الشأن ، ولم يتنبه أولئك الذين عايشوها فى أية لحظة من لحظاتها الى أنهم يعيشون عالما جديدا ، غير أنهما بدلا عن ذلك أوجدت حاجة ماسة الى التكيف المستمر جزئيا هنا مرة وهناك مرة أخرى كلما وقع جانب من حياة الأمة بعد جانب تحت تأثير قوتها المدمرة والبناءة معا ، ولم تشبه الثورة الفرنسية أيضا فى أن لها تاريخا محددا انتهى واكتمل بحيث يراها الناس كسلسلة من أحداث مضت بل أن الثورة الصناعية لم تنته أبدا وحتى الآن ، ونراها فى أيامنا هذه تدخل طورا جديدا ذا دلالة عميقة ٠

ويفرق بين الثورتين ثانيا أن الثورة الفرنسية ، مهما كانت الأسباب الأقتصادية أو الاجتماعية التى تقف من ورائها ، بدت لمعاصريها وكأنها فى المقام الأول نتيجة ارادات بشرية ، ثورة صنعها الناس متوجهين فى وعيهم بأخطائهم ، الى انكار حقوق الانسان ، وكانت فى أذهان مؤيديها تجسيداً لانتصار المنطق الانسانى عن طريق الارادة العامة للشعب صاحب السيادة ، وفى نظر معارضيها كارثة وجريمة تولدت عن اعتقاد مغرور فى المنطق مقابل التقاليد ، وفى الارادة الشعبية مقابل مبدأ سلطة الدولة ، بيد أن الطرفين نظرا اليها باعتبارها من صنع انسان ونتيجة لموقف وروح متمثلان فى أذهان الناس ٠

أما الثورة الصناعية فعلى العكس من ذلك تماما حيث بدت فى المقام الأول نتيجة لقوى ليس للناس عليها سلطان ، ومما لا شك فيه أن الأفراد صنعوا المخترعات التى كانت وسيلة تقدمها ، وهذا النشاط وما عاناه الانسان من تقشف كانا شرطين ضروريين لنجاح تطورها ، لكن أصحاب الأعمال والرأسماليين الجدد بل والمخترعين مهما كانت الأهمية التى تعزى لإسهاماتهم الفردية فى مجرى التقدم الاقتصادى ، كانوا يعرفون أنهم يسبحون فى موجة الفرص ، وشعروا بأن الحركة كانت أكبر منهم ، وأن نشاطهم ذاته كان سمة العصر ونتيجة لقوى لم يصنعوها بل استجابوا لها مجرد استجابة ٠

بل ان منظرى الحركة كانوا على وعى بصفتها هذه المستقلة عن الناس ، وبدت الثورة الصناعية لهم قبل كل شىء انطلاقات للقوى الكامنة فى نظام اقتصادى طبيعى ، وساد هذا الموقف فى علم الاقتصاد السياسى الجديد من « آدم سميث (١) الى ريكاردو ، وميل الأكبر وماكولوش » ، ورأى الفزيوقراط اتباعا للروح الحقيقية للتنوير فى القرن الثامن عشر أن فن الحكم السليم هو التوفيق بين النظام الاجتماعى وبين النظام الطبيعى الذى يقف منتظرا ومستعدا لتقديم العون للانسان اذا ما أزال الحواجز المصطنعة التى وضعها بارادته فى طريقه، وأعلنوا مبدأ (٢) (دعه يعمل دعه يمر » كرباط بين موقف الناس وموقف الحكومة مستقى من طريق الطبيعة ، والتقط الصيحة الاقتصاديون الانجليز من آدم اسميث ومن جاء بعد ، وطالبوا الحكومات بانهاء الاحتكارات والامتيازات والرسوم وجميع القيود التى تكبل النشاط الطبيعى الحر للجنس البشرى ، وعندما قام الاتجاه الصناعى الجديد دون معونة الحكومات وأخذ اتباعا لهذه الروح يشق طريقه بلا شفقة ولا رحمة خلال العوائق التى وضعها القانون والعرف فى طريقه ، وبدا لهم سيره هذا وتقدمه تأكيدا للقوى الطبيعية التى تعمل تلقائيا على دفع العالم نحو الثروة والسعادة ، ويمكن للناس أن يتعاونوا مع هذه القوى كما يعمل الزارع مع الطبيعة لزيادة خصوبة الأرض ، لكنهم نظروا للقوى ذاتها باعتبارها قوة الطبيعة وليست من منتجات الانسان ولا ناشئة عن ارادته ٠

ومن المفارقات المعروفة أن الناس يميلون للعمل بأقصى قوة ونشاط عندما يقولون انهم لا يصنعون الا ما يدعوهم نظام العالم لصنعه فينجزون ولو برغمهم ولا شك أن هذا الاحساس بالعمل مع الطبيعة بالتوافق معها منح القوة والطاقة والنشاط لرجال الأعمال فى الثورة الصناعية للمنظرين الذين عكفوا على صياغة وتفسير قوانين هذا التوافق ، وكان هؤلاء الرأسماليون الجدد وعلماء الاقتصاد السياسى الجدد متشابهين فى أنهم

---

(١) ادم سميث Adam Smith : اقتصادى اسكتلندى عاش فيما بين (١٧٢٣ ـ ١٧٩٠) ومن أبرز مؤلفاته « ثروة الأمم » الصادر فى عام ١٧٧٦ ٠

ديفيد ريكاردو David Ricardo : اقتصادى بريطانى عاش فيما بين (١٧٢٢ ـ ١٨٢٣ ـ له كثير من المؤلفات والكتابات التىتركت آثارها على كثير من الاقتصاديين ومنهم كارل ماركس ومالتس وميل والفريد مارشال ٠٠ الخ ٠

جورج ستيوراث ميل Mill : فيلسوف اقتصادى بريطانى عاش فيما بين (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) ٠

ماك كيلوش M'Calloch علم على القرار الذى أصدرته المحكمة الدستورية العليا فى الولايات المتحدة الامريكية فى عام ١٨١٩ لتخويل الحكومة السلطات المناسبة فى معظم المؤسسات التى تستند اليها الدولة فى المجالات التشريعية والقضائية ٠

(٢) "Laissez-faire, Laissez-passer"

جميعا على يقين راسخ وايمان كامل بانهم على حق واثقين من مطالبهم وما فيها من منطق لا يدحض ، وامتلكوا فوق ذلك شعور الاقدام الذى لا ينثنى والمتوائم مع هذا اليقين والايمان ، لكنهم لم يعوا بأن الحركة الصناعية الجديدة ولدت من كفاح وعمل المجتمع الذى يعتبر اباها بهذه المثابة ، بل تملكهم يقين لا يتزعزع فى أنها حق مطلق يتقاصر الى جانبه القلق والمعاناة والدمار المصاحب لها وبدا لها كل هذا الهول شيئا قليل الأهمية ٠ احسوا انهم مع التقدم وفى جانبه وأن من يعارض النظام الجديد انما يقف بلا بصر فى طريق قوة طبيعية لا تقاوم ٠

وبين روبرت أوين – موضوع كتابنا هذا – وبين رسل النظام الاقتصادى الجديد أوجه شبه كثيرة ، لقد كان هو نفسه من كبار رجال الصناعة ولم يساوره أبدا شك فى انتصار الآلة والانتاج الكبير على أساس الموارد الجديدة وأدوات القوى ، ولكن اختلفت تفسيراته لاحتياجات العصر اختلافا واسعا عن زملائه الرأسماليين والاقتصاديين فأصر فى المقام الأول على الحاجة الى ضبط وتنظيم القوى الجديدة الهائلة التى تركت لتغمر العالم ، ورأى أوين فى هذه القوى قوى طبيعية ، وكان اعتقاده هذا أقوى من ريكاردو أو ماكولوش ، ورآها أشياء منحت للانسان ولم تصنعها قواه الخلاقة لأنه يعتبر الانسان من صنع بيئته ، لكنه لم يعتقد كغيره أن الناس يجب أن يتركوا هذه القوى الطبيعية تعمل حرة بلا ضابط ولا سيطرة عليها ، بل رأى أن ظهورها يستدعى ضبطها بوعى وحكمة من أجل المصلحة العامة ، وأصر على أن هذه القوى الجديدة تعود للمجتمع لا للأفراد ، فهى تحل محل المنتج الفرد الذى يصنع الأشياء بيديه ، وتجعل العمل جماعيا يتعاون فيه عدد من المنتجين أو جماعة منهم مما يتطلب منهم العمل معا فى تنسيق مخطط وصولا الى النتائج الطيبة والمنافسة من معالم النظام القديم لا الجديد الذى لابد أن ينهض على التعاون كمبدأ أساسى وحيوى ٠

وفى هذا تكمن أهمية أوين ، وهى الفكرة التى توحد بين كل أنشطته المتنوعة وتسلكها معا سواء عندما يطالب بقانون للمصانع يحمى العمال الذين لا حول لهم ولا قوة وهم خدم الآلات الجديدة ، أو حين يدعو الى نظام عام لتحرير التعليم أو عندما يؤازر انشاء النقابات ، أو فى دعوته للمجتمعات التعاونية التى ابتكرها ، فكانت الفكرة السائدة فى ذهنه فى كل ذلك هى الحاجة الى السيطرة الاجتماعية على القوى الانتاجية الجديدة لقد وضعت الطبيعة هذه القوى تحت تصرف الانسان ، لكن يجب على الانسان أن يضمن استخدامها استخداما سليما والا يجعل من خصوبة الطبيعة الجديدة غابة بل حديقة منظمة ومنسقة ٠

وانبعثت تفسيرات أوين وتفسيرات أقرانه من رجال الصناعة والاقتصاد عن الحقائق التى أسست عليها ، وكانت التفسيرات التى رفضها أوين الأسهل قبولا فى اطار الظروف السائدة فى ذلك الوقت ، الا من جانب

أولئك الذين أصابهم النظام الاقتصادى الجديد بسوء ، فالقوى التى أراد السيطرة عليها انما نشأت تحت ظروف تجعل السيطرة عليها عملا بالغ الصعوبة وتطورت بسرعة لكن بغير انتظام اذ تفجرت هنا أحيانا ، وهناك أحيانا أخرى ، بصورة متقطعة ومتباعدة يصعب التنبؤ بها وتبدو كأنها أعمال فردية من صنع رجال الأعمال الذين كانوا أول من استغلها ولم يكن الجهاز الحكومى قادرا على حسن توجيه تلك الظروف بل ولا على التصرف فيها على الاطلاق لأنه أنشىء لأهداف تختلف عن ذلك كل الاختلاف وكان فى أيدى طبقة لا دراية لها بالقوى الاقتصادية الجديدة ، وانشغل كل واحد من رجال الأعمال بالواجبات الكثيرة والفرص العديدة المتاحة أمامه بحيث لم يعد لديه القدرة على التفكير فى مشكلات النظام الجديد الأوسع مدى ، أو أن يشارك زملائه فى أن يفكروا معا لرسم خطة تطور منسقة ٠

أما عامة الناس فكانوا غير منظمين ولا واعين ولا متمتعين بحقوق الانتخاب فانساقوا بلا ارادة وراء الوليد الجديد فاقدين القدرة على ضبط طريقه وقد واجهوا قوة لا يستطيعون حتى مجرد فهمها ، ولم يكن هناك انسان ولا طبقة ولا قوة فى المجتمع على قدرة كافية لممارسة السيطرة التى دعا اليها أوين ، لكنه رأى ضرورة هذه السيطرة وتنبه اليها قبل نشوء وسيلة انجازها بزمن طويل وقضى زهرة حياته يناضل فى سبيل بعث هذه الوسيلة الى الوجود ، وذلك هو سر عظمة أوين ٠

وليس من الصعب ادراك ذلك فى عصرنا لأن تاريخ المائة سنة الماضية فى أغلبه عبارة عن محاولة المجتمع ايجاد وتطوير وسائل السيطرة على القوى الجديدة التى أطلقتها الثورة الصناعية من عقالها ومازالت تلك **المحاولة لم تكتمل** ، وقد يرى الناس اليوم أن المثل الأعلى الذى رسمه أوين **كان خاطئا ، لكنهم لا يستطيعوا غض النظر عنه بحجة أنه خيالى أو غير عملى ، فكان أوين رائد الاشتراكية البريطانية وكان كمعظم الرواد أكثر** ادراكا للأهداف من ادراكه للوسائل ، وصارت الاشتراكية منذ عصره قوة حقيقية وتحقق الكثير من السيطرة الاجتماعية التى كان عبثا يطالب **بها ، وأصبح حلمه حقيقة ولو أنه ليس على الصورة التى حلم بها لأن الاشكال والخيالات التى كان يحلم بها كانت مستقاة بالضرورة من ظروف عصره لا من عصرنا ، فقد رأى الاشتراكية والسيطرة الاجتماعية منبعثة من ظروف عصر الآلة الذى لابد أن يصبح سيد الانسان وأن تسود الآلة الى أن يتعلم الناس كيف يسيطرون عليها بقواهم المتحدة ، لكنه لم يستطع رؤية المراحل المؤلمة التى كتب على الانسانية أن تمر بها قبل أن تتعلم هذا الدرس ٠**

وهنا طوباوية أوين ، فقد كان تصوره الخاص لحاجات العهد الجديد **شديد الوضوح حتى أنه طالب الناس بالعمل مباشرة على تحقيقه كاملا ، لكن الناس لم يكونوا أبدا على استعداد لشكل الحياة التى يراها ، ولم يكونوا غير مستعدين فحسب بل لم يملكوا الوسيلة الجماعية للاستعداد ،**

ولا يمكن ارتجال التنظيم اللازم لهذا الغرض فى يوم أو حتى فى سنة ، بل يجب أن يبنى تدريجيا ، وفى سبيل ذلك آلام وصعوبات جمة هى آلام ومتاعب النمو ، وكان أوين على وعى كامل بأن الناس الذين يراهم حوله غير لائقين للعيش طبقا لقوانين « العالم الأخلاقى الجديد (١) » المنبثق عن مثله الأعلى ، لكنه أرجع سوء لياقتهم الى عيوب بيئتهم وحدها وافترض أن تغيير البيئة يؤدى الى اصلاح كل شيء • فكانت مجتمعاته التعاونية محاولات لاحداث التغيير فى قلوب وعقول الناس بوضعهم فى بيئة جديدة أكثر ائتلافا مع حاجات الظروف الاجتماعية الجديدة ، لكنهم فشلوا لأن تصوره لهذه الحاجات كان غير سليم من ناحية لكن سبب الفشل كان من ناحية أخرى راجعا الى صعوبة احداث هذا التغيير الذى لم يكن بالسهولة التى افترضها •

وترجع تجارب أوين الخاصة بانشاء المجتمعات الى سنوات حياته الأخيرة حين فقد كثيرا من توازنه السابق ودفعه حرصه الشديد وتعجله ابداء النتائج العملية لمثله الأعلى الى محاولات مستحيلة ، ويلاحظ أنه بدأ بفكرة عملية عما يمكن عمله وما لا يمكن ولدينا الكثير مما يمكن قوله حول فكرة أن أوين كان طوال الفترة الأخيرة من حياته على شيء من التصرف غير المنطقى على الأقل ، وقد جرت به أفكاره بعيدا — وكان دائما رجل أفكار وآراء — حتى فقد احساس التوفيق بين الوسائل والغايات ، أما قبل ذلك وفى مصانع نسيج القطن الكبرى فى نيولانارك New Lanark التى رفعت اسمه وشهرته فى أنحاء العالم فقد أكتفى بأن يبدأ البناء من الأساس ، واحتفظ فى تلك الفترة من حياته العملية بحسن الادراك فرأى أنه ليس من الميسور أن ينتقل الناس فجأة ليعيشوا حياتهم طبقا للقانون الأخلاقى الجديد لبيئة لم يألفوها بتاتا ، فبدأ بالأطفال فى نيولانارك وانشأ لهم نظام التربية والتعليم المشهور به والذى يمثل حجر الركن فى عمله البناء وكان نظاما حديثا جدا فى ملامحه وأفكاره ، لكنه أخذ يفقد خلة الصبر ولم يطق انتظار نتائج النظام التعليمى المتقدم وكانت بطيئة بالضرورة وانجذب الى حركة عمالية متمردة كانت تحتاج الى قيادة فى كفاحها للتحرر من استبداد الآلة ووجدت تلك الحركة بروحها النشطة فى أفكاره الالهام الذى تفقده وتسعى اليه ، فاصبحت الأويونية Owenism ملهم فى السيطرة على الاتجاه الصناعى الجديد الذى أناخ عليهم بكلكله ، وعندما أهاب هؤلاء العمال باوين أن يتولى قيادتهم لم يستطع مقاومة النداء ، وسرعان ما جرفه تيار آمالهم المتدفق السرعة ومال الى التعلق بالمستحيل لأن الممكن لا يقدم لهم خلاصا من المعاناة الحاضرة ولا يضمن لهم أملا فى المستقبل حسبما وقر فى حدود خيالهم •

---

(١) "New moral world".

وانتقلت الاشتراكية من مرحلة كونها مثالا اخلاقيا الى مرحلة اصبحت فيها خلال بضع سنوات شعارا لحركة اقتصادية قومية ، وصار أوين خلال هذه السنوات القليلة ــ وهو صاحب العمــل الكبيــر ــ الزعيم المعترف به للحركة النقابية التى تنادى بها الطبقة العاملة البريطانية ، لكنه لم يكــن ابدا يحس انه فى موضعه المريح حين تقلد الزعامة ، فقد تعرض لكثير مــن الاستغلال وارغم وهـــو صاحب العمــل على أن يلعب دور الأوتوقراطى الصالح الذى يصدر الأمر لمن حوله ليستريحوا فى كنف قيادة حركة هى فى جوهرها يجب أن تكون حركة ديمقراطية ، وأراد من النقابات أن تخضــع لاستبداده المصلح كما خضــع العاملون لديه فى نيولانارك ، ونظـــر الى القضية على انها فى حقيقتها حملة صليبية من أجل الميلاد الأخلاقى للمجتمع باسره لا على أنها حرب طبقة ضد طبقة أخرى كل هدفها احراز زيادة فى الأجور هنا أو مقاومة خفض لها هناك ، فهذا شىء لا يهمه ولا يرضيه ، لأن النقابة والتعاون فى اعتباره لم يكن لهما قيمة حقيقية الا بوصفها وســيلة اقامة « العالم الاخلاقى الجــديد » ، ولذا أصبح هو واتباعه على طــرفى نقيض دائما وفى خلاف على الغرض والهدف ، ورأى الاتباع أنهم يحتاجون للمثل الأعلى الذى اعلنه كملاذ يمنحهم الأمل فى صراعهم من يوم ليوم لكن كثيرا منهم رأوا أن احداث الصراع المباشرة من اجل تحسين أحوالهم أعظم اهمية بالضرورة وأكثر جدوى من هذا المثل الأعلى واصبح اوين بسبب هذا الاختلاف فى المواقف قائدا يستحيل التوافق معه ، وعندما أدرك الجانبان تلك الحقيقة عن وعى كامل أو عن بعض وعى فسرعان ما افترق أوين عــن الجزء الأكبر الذى يمثل اغلبية الطبقة العاملة ، وحدث هذا الفراق باتفاق بين الطرفين ، وفى السنوات التى سبقت انهيــار النقابة القومية الكبــرى المتحدة Grand National Consolidated Trades Union عام ١٨٣٤ كان أوين الزعيم المعترف به للعالم النقابى عامة ، وصار اسم الاويونية بعد عام ١٨٣٤ علما على طائفة من المصلحين الأخلاقيين ، ولم يقم اوين بأى دور فى الحركات الكبرى للطبقة العاملة خلال العشرين عاما الأخيرة من حيـاته ، حتى التعاون الذى يدين بالفضل لأفكاره كما يدين له بأنه أول من أعطـاه قوة الدفع ، أخذ ينمو ويتطور بغير عون منه ، ونسيت النقابات تماما أنه كان زعيمها يوما ، ولم يعد للاشتراكية شأن فى بريطانيا العظمى بوصفها عقيدة اقتصادية أو اجتماعية ٠

ولم تشكل علاقة أوين الفعلية بحركة الطبقة العاملة سوى مرحـــلة فرضتها عليه ظروف لم يكن له عليها سلطان حقيقى ، ولذا لا تمثل تلك العلاقة اى اسهام فعال ، اما اسهامه الحقيقى فكان فكرة الاشتراكية كوسيلة سيطرة جماعية على القوى الجديدة المتولدة عن الثورة الصناعية ، وربما يعبر أوين نفسه عن القضــــية بصورة أخرى لأن جوهر رسالته حسب تصوره كان انكار مسئولية الناس الفردية عن افعالهم والتاكيد على اثر البيئة الغالب والمسيطر على الأخلاق « اخلاق الناس » ولم يمل أبدا من القول انها « صنعت

لهم ولم يصنعوها هم » ولو وضعناهم فى البيئة الاجتماعية السليمة فسوف يتخلقون بالأفكار السليمة وينظمون حياتهم بالطريقة الصحيحة ، لكن نصف الحقيقة هذه ما هى فى الواقع سوى الناحية السلبية من تعاليم أوين ، فحتى لو لقى قوله هذا قبولا لكان لزاما تحديد ما هى البيئة السليمة وما هى الأفكار السليمة وطرق الحياة الواجب بثها فى عقل الانسان ؟ ، وهنا يأتى الجـانب العملى من أوين والاسهام الايجابى له فيقول ان ملء هذا الفراغ فى عقل الانسان يتحقق ببث فكرة التعاون الاجتماعى ويشكل هذا الاتجاه فى الواقع الأساس الصلب لانجازاته ولكل جانب من جوانب نشاطه ٠

والى جانب تلك الفكرة فكرة أخرى أقل اتساعا فى مداها لكنها ليست أقل أهمية ، وكان أوين أول انسان ـ فى بريطانيا على الأقل (لأن فوربيه Fourier كان ينادى بنفس الفكرة فى فرنسا) ويؤكد بوضوح على الأثـر الحيوى لأحوال العمل الحقيقية على أخلاق الناس وأخلاق المجتمع ، ورأى أن مفتاح حل المشكلات الأخلاقية والسياسية معا هو تنظيم حياة المجتمـــع الاقتصادية تنظيما صحيحا ، واشتغل بهذه الناحية من نواحى الشـــئون الانسانية اشتغالا انساه الاهتمام بغيرها من القضايا حتى بدت له الأحداث الاقتصادية والفكرية الخطيرة للثورة الفرنسية غير ذات تأثير بالمرة ، ولم يتحرك أبدا ازاء حدث خطير مثل اعلان « حقوق الانسان » السياسية لأنـــه رأى عالم السياسة مجرد فرع منبثق عن عالم العلاقات الاقتصادية وهو فى الواقع قد سبق ماركس فى هذا التصور رغم أنه لم يعتنق التفسير المـادى للتاريخ ، وعليه فقد بدت له الحركات السياسية مجرد احداث سطحية ما لم تكن لها جذور عميقة من الحقائق الاقتصادية ، ولاشك انه اكتسب هـــذا الموقف بحكم نشأته لكنه ظل دائما فى خلفية تفكيره وجذور هذا التفكير ، وبخلاف ماركس لم يحاول اقامة حزب سياسى على أساس اقتصادى لكنـــه يتفق بالضرورة مع ماركس فى الانتباه الى وجود أسس الاشتراكية فى منطق النظام الاقتصادى ٠

وبدأ أوين حياته بقليـــل من المزايا كما سنرى ، فـــولد فى نيوتاون Newtown فى مونتجمرى شـــير Montgomery shire وهى بلدة صـــغيرة منعزلة فى وسط ويلز بعيدة عن ضجيج المراكز التجارية الكبيـرة ، وكان أبوه تاجرا فى البلدة ومعظم الزبائن تجارا أو فلاحين وتلقى التعليم المعتاد فى مدرسة القرية من معلم لم يكن فى استطاعته أن يعلمه أكثر من الكتابة والقراءة الأولية ، وأصبح فى سن السابعة مساعدا للمعلم فى مدرســته ، وترك المدرسة فى التاسعة من عمره ليبدأ العمل ، لكن روح المغامرة حركته فترك بلدته نيوتاون وهو فى العاشرة وذهب الى لندن بحثا عن حظه ، واشتغل مساعدا فى محلات تجـــارية من سن العاشرة حتى الثامنـــة عشرة فى ستامفورد Stamford أولا ٠ فى لندن وأخيرا فى مانشستر ، وبدأ فى سن الثامنة عشر مشروعا خاصا به كصانع لآلات النسيج الجديدة برأسمال مائة

جنيه كان قد اقترضه ، وساعده حظه ومواهبه الشخصية فاصبح فى التاسعة والعشرين على رأس مصانع القطن الكبرى فى نيولانارك وكانت تعد من أكبر المصانع فى بريطانيا العظمى واحسنها تجهيزا ٠

وتعتبر حياة أوين العملية حتى هذه النقطة قصة رومانسية مثالية عن التجارة ومغامرة من مغامرات الثورة الصناعية جديرة بأن تكون نمطا من الأخلاق الفكتورية يقتدى به أو نبراسا لطريق اقتصادى يسلك ، وكان المنتظر أن يؤدى به طريقه هذا الى جمع ثروة طائلة واكتساب نقب بارون على الاقل وبناء « بيت » كبير وعضوية فى مجلس اللوردات ، لكن الواقع أن أوين لم يصبح علما من أعلام الحياة الاقتصادية فبرغم أنه جمع ثروة فى نيولانارك الا أنه لم يعتبر موقعه هناك وسيلة لجمع المال الذى لم يكن يابه به كثيرا بل كفرصة عمره لتطبيق آراء معينة كانت تجول بخاطره وتتطور منذ طفولته ، لقد راى البؤس حوله والقسوة فى كل مكان نتيجة للثورة الصناعية لا سيما فى مراحلها الأولى ، وراى الرجال والنساء والأطفال وقد أصبحوا معوقين وعجزة وناقصى النمو وفاقدى الأخلاق من جراء العبودية فى المصانع الجديدة التى كتب عليهم أن يعملوا فيها ساعات طويلة من العمل المستحيل الصعوبة وفى ظروف شديدة السوء وأحوال صحية لا يصدقها أحد ، ويعاملون مع ذلك وكانهم مجرد ادوات لجمع الثروة وليسوا مخلوقات بشرية ، وبدت له هذه الأحوال جميعها خاطئة ولا يمكن تبريرها أبدا بل ولا تقضى بها اية ضرورة حتى لو اعتبرت مجرد وسيلة للاثراء ، وقال لنفسه ثم لغيره وللناس كافة بعد ذلك « استطيع أن أجعل الصناعة تربح دون أن أدفع بالعاملين عندى الى الفاقة والتحلل الخلقى » ٠

وبدأت حياة أوين العملية كشخصية عامة منذ امتلاكه لمصانع نيولانارك وبدأت الأويونية كنظام اجتماعى فى تلك البلدة أيضا ، وكان أوين كبعض كبار أصحاب الأعمال الآخرين فى أنه صمم على ايجاد مجتمع صناعى أى نظام اجتماعى كامل قائم على وحدات انتاجية لا مجرد مصنع ، وقد أملت عليه هذه الفكرة الظروف السائدة فى ذلك الوقت لأنه اضطر الى ان يأتى بالعمال الى المصنع ويأويهم ويطعمهم ويرعى حياتهم الاجتماعية ويشرف على على عملهم كمنتجين ، لكن أوين جاوز ما اعتاد أن يصنعه أرباب الأعمال الذين بنوا قرى عمالية حول مصانعهم ، فكان يرى دائما أن الانسان من صنع بيئته وتتشكل طبيعته وأخلاقه حسنا أو سوءا بحسب محيطه المادى والمعنوى حسنا أو سيئا ، وعلى هذه الفكرة اقام كل ممارساته وانبعثت من نظرية الطبيعة البشرية هذه كل تجارب أوين الناجحة والمدهشة فى نيولانارك ثم كتاباته الممتعة فيما بعد فى بناء المجتمعات ، كما انبعثت منها أيضا ومنذ البداية عنايته الفائقة بالتعليم واهتمامه الشديد به لانه ادرك بوضوح أن سنوات الطفولة هى فترة التكوين فى حياة الانسان ، وانه اذا كان خلق الانسان يتكون بالبيئة كما كان يصر دائما فلا بد أن يبدا بناء الأخلاق فى

هذه الفترة المبكرة ، ومن هنا نشأت مدارس نيولانارك الشهيرة التى حج اليها الناس ارتالا من أوربا وأمريكا ، ومن هنا أيضا كان اهتمـــام أوين الدائم واهتمام انصاره بمشكلات التعليم وحرية التعليم ·

واذا أردنا وصف الطرائق التعليمية التى اشتغل بها أوين لاحتجنا الى مجلدات ولكنى ساخصص لها فصلا واحدا اتحدث فيه باختصار ، وأراه على كل حال ومن كثير من النواحى رائدا لطرائق التدريس التى اخـــذت تكتسب فى اناة اعتراف الكثيرين وعرف أوين حدود الكتب وأهمية التعويل على العين مباشرة فى أى نظام تعليمى وآمن قبل كل شىء بأن يقوم التعـليم لا على الحفظ عن ظهر قلب أو على الاجبار المادى أو المعنوى بل على اثارة اهتمامات واقبال الطفل ، والحق ان أوين كرائد تعليم لم يستوف من حقه الا القليل ، وبينما بوصفه « أوين الاشتراكى » قد أخرج من دائرة المجتمع المحترم ، ذهبت أيضا خدماته لقضية التعليم فى مدارج النسيان من جـانب الجمهور الواسع ، ولو أن انصاره ظلوا يحافظون على تقاليده حية لفترة طويلة من الزمان ونقلوها الى مختلف الحركات التى انتقلت اليها الفكرة الأويونية حتى أن كل جمعية أويونية عنيت بأن تجعل التعليم من أغراضها الأساسية وبدت عناية شديدة لتعليم الاطفال والكبار أيضا ، وظل التعليم احسن النواحى ادارة وتنفيذا فى كل مجتمع أويونى فى انجلترا وأمريكا ، وكان مزمعا أن تحتوى قاعة برمنجهام Birmingham Guildhall سيئة الحظ مدارس لأطفال الأعضاء ، ويلاحظ أن المدارس التى نشأت حسب مبادىء أوين ظلت باقية حتى بعد انهاء الحركة ·

وبدت نيولانارك — كما رآها الكثيرون أيام مجدها — تجربة ناجحـــة ونموذجا مدهشا من نماذج الرأسمالية الخيرة المستنيرة ، وكان يوصـــف أوين دائما بأنه « مستر أوين رجل البر (١) » وحين ذهب أعضاء الأسرة المالكة وغيرهم من الممتازين لزيارة نيولانارك فى سنواتها الأولى لم يجدوا أى ظل من الشك يدعوهم الظن بأنه يريد قلب النظام الاجتماعى ، ولابد أنه هـــو نفسه كان سينفى عن نفسه مثل تلك النوايا ، لأنه قطعا لم يكن يؤمـــن بأى حركة سياسية من الكثرة ضد القلة ، أما النظام الجديد الذى هدف اليـــه وجعل من نيولانارك مجرد صورة باهتة لبعض ملامحه فكان من رأيه أنـــه سينشا بثورة اخلاقية وعقلية مجردة اى عن طريق تغيير فى عقول الناس يؤدى الى تغيير شامل فى ممارستهم بالاتفاق المشترك بين جميع من حسنت نواياهم ، ولا نجد اى اشارة فى هذه المرحلة الى حث الفقراء على الانقلاب على الأغنياء ، ولا تلميح بأن الأغنياء يجب أن يصبحوا اقل ثروة حتى تغتنى حياة الفقير ، وتوجه أوين فقط الى الحكومات والأشخاص ذوى السـلطان ليدركوا أن كل ما صنعه فى نيولانارك وكثير جدا غيره يمكـــن أن يتحقق

---

(١) "Owen the philanthropist".

بتطبيق طرائقه ومناهجه تطبيقا عاما ، فلم يكن قائد تمرد بل مصلحا اخلاقيا ومعنويا ، وحظى باحترام وانصات الكثيرين الذين كان حريا بهم أن يفتحوا آذانهم عند أدنى همســة يفهم منها وجــود رغبة المســاواة أو المبــادىء اليعقوبية Jacobin •

كان أوين حتى ذلك الحين رائدا عظيما ، لكنه رائد ملتزم بحــدود الاصلاح الخيرى ولو فى الظاهر على الأقل ، ورأى العالم كله أنه يسـعى أساسا الى اثبات أن البر يمكن أن يؤتى نتائج ملموسة ، ويجب الا يجـول بخاطرنا أن شرور نظام المصانع الجديد لم يحس بها أحد سوى من عـانى منها مباشرة ، وقد يدفع الى هذا الافتراض أن هذه الشرور تركت لتتفـاقم دون أن يتصدى لها أحد ، فالحقيقة أن كثيرا من أعضاء الارستقراطيــة القديمة التى كانت مستقرة فى مواقع السلطة • بل وكثير من بين المتشددين الذين كانوا فى مقدمة العاملين على كبت كل حركة تمرد شعبية ، رأوا قسوة النظام الصناعى الجديد وبعده عن الانسانية ، وكانوا على استعداد لاصلاح فساده ، ولم يظهر هؤلاء الأرستقراطيون ودا لمن سموا « لوردات القطن (١) » من الشمال المزدهر الذين أخذوا يطالبون بنصيب فى السلطة السياسية ، لأن هذه المطالبات أقلقت الأرستقراطيين بوصفها تهديد لأحتكارهم الســلطة وللدستور العظيم ، واستمع سيدموث Sidmouth فى عطف الى خطط أوين لاصلاح المصانع وبناء الأخلاق مع أنه بوصفه وزيرا للداخلية كان من بين أشد المناهضين للنقابات العمالية والجمعيات الراديكالية ، وأثارت الطريقة البشعة التى تستغل بها الطبقة الفقيرة اشمئزاز الارستقراطية الغنية ، ولو استطاع أوين تحسين صورة هذا النظام وجعله أكثر أدبا وأزهى منظرا ، فلا بد أن يحظى بشكر الذين يأنفون البشاعة •

لكن للبر الأرستقراطى حدود ، وللأسر القديمة علاقات كثيرة ، عـن طريق المصاهرة أو المشاركة المباشرة ، بعالم التجارة ، ورغم أن أغنيــاء التجارة كانوا يشكلون فى الغالب طبقة متميزة عن أصحاب الأعمال المنتجين الا أنهم كانوا مشتركين فى النظام الصناعى ، ولم يكن يحول بأذهانهم فعل أى شىء يحد من مدى حرية الاستثمار ، ومن ناحية أخرى ــ وهو اعتبــار أعظم أهمية فى نظر الكثيرين ــ كانت البلاد فى حرب ، وظهر بوضــوح أن الصراع واقع بين عبقرية نابليون الحربية وجيوشه وبين خزائن المال فى بريطانيا ، وكان بيت (٢) pitt وخلفاؤه هم ممولو أوروبا فى هذا الصراع

---

(١) "Cotton Lords".

(٢) وليم بيت William Pitt : كان يدعى وليم بيت الصغير الذى عاش فيما بين (١٧٥٩ ــ ١٨٠٦) وتولى رئاسة وزارة بريطــانيا مرتان وانتخب عضوا فى البــرلمان البريطانى فى عام ١٧٨١ •

الطويل ، ويحتاج الأمر الى كل بنس لأعباء الحرب والأحلاف الاوروبية ، وقيل ان المصلحة الوطنية تقضى بأن تجمع البلاد الأموال ثم مزيدا من الأموال وكل تضحية بالنفس أو بالراحة من جانب العمال تبررها الحاجة الوطنية .

ووجه الجاذبية لخطط أوين من وجهة نظر الطبقات الحاكمة أنها توضح كيفية التوفيق بين فعل الخير والبر وبين الاستثمار والاستغلال ، واستطاع أوين أن يكتسب الأموال فى نيولانارك لنفسه ولشركائه ، **وكان معدل أرباحه عاليا برغم أنه كان يعيد الأموال باستمرار الى مشروعاته لأغراض غير انتاجية فيما يبدو ، وأتى الزوار من قريب وبعيد ليشهدوا ما يجرى وكيف يمكن لجميع الرأسماليين فى العالم ان يزدادوا غنى بدون أن يرتكبوا ما يوخز الضمير ، ويبدو أن اللعبة نجحت فى نيولانارك لكن الصناعيين من زملاء أوين ظلوا بعيدا تساورهم الشكوك أما المعجبين به فكانوا من طوائف الأغنياء غير الصناعيين من الجيل القلق الذى ينشد أملا .**

وكان الصناعيون على حق من ناحية لأن مصانع نيولانارك اكتسبت الأموال سريعا بسبب حسن ادارة أوين لها فى المقام الأول وبكل تأكيد لأنه كان رجل تنظيم وادارة وأعمال غير عادى جعل مصانعه نموذجا فريدا للكفاءة العملية لكن لم يكن الربح هدفه الأوحد وكلما اسرع اليه الربح كلما اقدم على توظيفه فى خدمة تجربته العظيمة ، وكان هدفه هذا سببا فى انفصاله المتتابع عن شركائه فى العمل واحدا بعد آخر ، فقد نشدوا المال واراد هو اثبات تجربته فى علم الاجتماع ، وحتى انشأ أخيرا شركته مع وليم ألن وجرمى بنثام وبعض زملائه من محبى الخير والبر لم يكن ابدا مطلق اليد لأن شركائه السابقين أرادوا الحصول على أكبر عائد يمكن استخلاصه فى تلك الفترة من الاستقرار وانخفاض الأجور وطول ساعات العمل وكثرة الأرباح وتراكم رأس المال ، بل أن شركائه الأخيرين الذين اقتنعوا بمعدل فائدة ثابت كانوا أكثر منه اهتماما بنجاح المصانع كما أن نظرتهم الى « البر » اختلفت فى كثير من النواحى عن نظرته .

ولو وقف أوين عند هذا الحد ولم يصنع أكثر من أن يجعل نيولانارك المصنع النموذجى فى العالم لكان رائدا عظيما لكن ما كان له أن يحظى بلقب انتمائه الى أنبياء الاشتراكية أو التعاون ، غير أن مسيرته من صاحب عمل مستنير يريد علاج شرور نظام المصانع الى عدو للرأسمالية كانت مستمدة طوال تجربة نيولانارك ولو أنها عملية تدريجية ، وبدأ أوين باثبات أن ليس من الضرورى أن يظل المصنع مكانا كريها وكابوسا مخيفا كما كانت معظم مصانع ذلك الوقت ، فأعاد تنظيم مصنعه أولا ثم انتقل الى حث أصحاب الأعمال الآخرين على اتباع خطواته والضغط على الحكومات لاصدار تشريعات اذا ظهر أن النداء المباشر لا ثمرة له ، لكن حدث التغيير الحقيقى بانتهاء الحرب الطويلة الأمد ، فقد دمر صلح ١٨١٥ « أحسن زبائن الأمة » وتنافس الجنود والعاملون المسرحون فى الحصول على العمل ومع عمال

الزراعة الذين طردوا من الأرض بنهاية الحرب فى الحصول على الغذاء ، وكانت الأعمال المتاحة قليلة والأيدى العاملة كثيرة لأن السكان ازدادوا عددا بسرعة تبعا لنقص معدل وفيات الأطفال بسبب تقدم علم الطب وأثر الظروف الصناعية الجديدة ، فارتفع معدل الفقراء ارتفاعا عظيما برغم التخفيض الكبير فى مستوى معيار استحقاق مساعدات الاعاشة ، وزاد هبوط الأسعار من العبء الحقيقى لدين الحرب ، وتحالفت معونات الفقراء وأعباء الديون لتصبح تهديدا خطيرا بفرض ضرائب ثقيلة فى وقت كسدت التجارة فيه وشكلت لجان ولجان رسمية وغير رسمية لدراسة الأزمة ووصف العلاج لها ، وكان كل اقتراح يبشر بتخليص الأغنياء من عبء الفقراء يحظى بالعناية والاحترام ٠

وتقدم أوين فى هذه الظروف من الأزمة القومية « بخطته » لترشيد الفقراء ، وحث على أن تهيء الدولة أو السلطات المحلية أو جماعات من رجال البر – فى حالة فشل الحكومة – العمل للفقراء طبقا لنظام يخفف عبء اعانات الفقراء من ناحية ويوفر عملا منتجا للعمال فى نفس الوقت بشروط حسنة وظروف جيدة مع توافر أسباب البعث المادى والمعنوى ، واقتراح أوين « قرى التعاون (١) » على أساس تجربته فى نيولانارك وأسلوب الادارة والتنظيم فيها ، لكنها تختلف عن نيولانارك فى أنها مجتمعات زراعية فى المقام اول تقوم بالعمل فى المصانع كعمل ثانوى مساعد فقط ، ويبدأ أوين يجد فى تقدير القدرة الانتاجية للمجتمعات المقترحة لكنه اتخذ اساسا لذلك خبرته الخاصة فى زيادة الانتاجية نتيجة لاستخدام الآلات فى الأقطان وطبق على الزراعة التى لا يدرى عنها سوى القليل حسابات تقوم على ظروف المصانع ، وكان المقرر أن تكون تلك المجتمعات معتمدة على نفسها ، وأهم من ذلك أن توفر حياة طيبة لمن فيها دون أن يعملوا عملا شديد الصعوبة والمشقة عليهم مع توافر مقومات الترفيه والتعليم بوجه خاص ، وسيرى العالم كيف تصبح « قرى التعاون » أرقى كثيرا فى مستوياتها عن النظام القديم ، وسيأتى اليها الناس من كل الطبقات زرافات ، وهكذا يتحول المجتمع بثورة عقلية رشيدة ٠

لكن نصيحة أوين هذه لم تنفذ لأن كل رجال السياسة والكنيسة والأرستقراطية الذين استمعوا اليه بتعاطف لم ينشئوا أية قرية من هذا النوع ، غير أن خطة أوين حظيت بعناية جديدة ولو لوقت ما ، وكان أوين ما يزال موضع عطف واحترام اقسام كبيرة من الطبقات الحاكمة ، وأشادت به الصحافة كثيرا ، وبحثت اقتراحاته بحرية وجدية أمام مختلف اللجان البرلمانية واللجان الأخرى التى كانت تنظر فى علاج الأزمة ، والحق أن

---

(١) Villages of Co-operation.

الخطة كان فيها الكثير مما يجذب اليها أفكار الناس ، فقد كان الحديث يدور حول تعديل قانون اعانة الفقراء ، ومن ناحية أخرى كان لابد أن ينتمى « نظام سبينهاملاند Speenhamland للاغاثة ودعم الأجور » الذى أدى الى افقار قسم كبير من الأمة لكنه لا سبيل الى الغائه الا بعد أن تتوسع الصناعة وتستوعب جميع القادمين اليها الجدد ويقام نظام بديل ، وانبرى أوين يهاجم شرور المنافسة الرأسمالية بصراحة وعلى رؤوس الأشهاد ويثير عداء رجال الصناعة ضد مشروعاته بمهاجمته لأوضاعهم كرجال أعمال ، لكن كل ذلك لم يؤثر على الارستقراطيين الذين سرهم أن يتلقى رجال الصناعة بعض الكلمات العنيفة بحق من واحد منهم ، ولم يكن ضروريا أن يتفق الانسان تمام الاتفاق مع آراء أوين عن تغيير النظام كله تغييرا كاملا كى يؤيد تجربة خطته لتشغيل الفقراء فى أعمال نافعة ، ولذا انضم كبار رجال الكنيسة الارستقراطيون الى لجنة أوين لمتابعة الخطة ، وكتبت جريدة التايمز وغيرها كتابات مشجعة عنها ·

وشيئا فشيئا صار ما يقصده أوين أكثر وضوحا ، وكلما اكتسب ثقة تطورت خطته فى ذهنه ، ثم أخذ يؤكد أكثر فأكثر أن نتيجتها المتوخاة هى تغيير النظام الاجتماعى تماما ، فبدأ رجال لهم احترامهم يهزون رؤوسهم نفيا ويقولون عن أوين أنه رجل بر خيالى ، ربما له نوايا طيبة لكنها طمست حسن تقديره للأمور ، وشن أوين هجوما على الدين وجعل ذلك الهجوم جزءا لا يتجزأ عن حملته ، وقال فى خطابه المشهور عام ١٨١٧ ان الكنائس تنشر كلها بلا استثناء تعاليم (١) بالغة الخطأ وأن الاعتقاد بها هو المصدر المؤكد للبؤس الانسانى ويعجز الانسان عن مواجهة البؤس والفاقة وسوء المعاملة ·

ورأى أوين أن الخطأ الخطير المشترك فى كل الديانات القائمة هو التبشير بمسئولية الانسان ، بينما الانسان فى رأيه وليد بيئته ، وتعلم الكنائس الناس بأن الانسان يصنع أخلاقه وتسعى لنشر الخلق الفاضل بأعمال مبدأ الثواب والعقاب ، بينما السبيل الوحيد لاصلاح الناس هو تهيئة بيئة مادية ومعنوية صالحة لهم ، وعندئذ يصبحون صالحين تلقائيا ، ولن تقوم بيئة أخلاقية صالحة طالما سمح للكنيسة بنشر وتعليم مبدأ الثواب والعقاب الخاطىء وغير الأخلاقى ، ولذا فان التعليم المعنوى الذى سيكون جزءا حيويا فى « قرى التعاون » لابد أن يخلو تماما من هذا المبدأ الفاسد ·

---

(١) [illegible] الأمانة العلمية اثبات آراء أوين رغم ما قد نعترض عليه ، خاصة وان [illegible] من المبادىء المستمدة من التعاليم الدينية والتربوية ، وقد عاد أوين الى [illegible] ·

أى أن أوين الذى كان يستنكر آثار المذهب التجارى على الأخــــلاق ويعلن حربا على الرأسمالية أدخل الكنيسة أيضا ضمن أعدائه الثقافيين ، وكانت حملته الأخيرة تلك أشد خطورة لأن اتجاهاتها يسيرة الفهم والادراك ، ولأنها تهاجم جزءا حيويا من نظام الكنيسة والدولة القائم المستقر والذى له جذور راسخة وليس كالنظام الصناعى الذى مازال ناشئا ، واستبد الرعب بمن كانوا من قبل يستمعون فى أناة وعطف الى « خطة مستر أوين » حين أدركوا هدفه الحقيقى ، وأخــذوا يهاجمونه بوصفه كافر خطــــر (١) وبدأوا ينفضون عنه تدريجيا لا فجاة كما قال فيما بعد ، وابتعد عنه مؤيدوه ذوى النفوذ من الارستقراطيين ، وقال عنه أعضـــاء حزب المحافظين Tories أنه مخرب للنظام ، ومع ذلك فلم يعترف به الراديكاليون ســـوى باعتباره « مستر أوين رجل البر والاحسان » صديق ســيدموث Sidmouth ودوق كنت Duke of Kent رجل الصناعة ذو الميول الى الخير ولم يكن هــؤوء الراديكاليون أكثر ميلا للاهتمام بخطط أوين من المحافظين ٠

واقتنع أوين دائما اقتناعا راسخا بأنه على حق فلا تعوقه معارضــة ولا يثنيه اهمال ولم يزحزحه فشل جهوده فى محاولة اقناع حكومة المحافظين بانجلترا بانتهاج خطته ، فاتجه اتجاها آخر واخذ يهيب بالعالم الجديد أن يأخذ بما رفضه العالم القديم ، وسنحت الفرصة بالصدفة لشراء كل أراضى ومبانى واحدة من تلك الجمعيات الدينية نصف الشيوعية التى نشــــدت الحرية الدينية عن طريق الهجرة والاقامة فى الولايات المتحدة ، واشــترى أوين هارمونى Harmony من جمعيـــة رابيت Rapite ، وذهب الى أمريكا تاركا وراءه جماعات صغيرة من الاتباع فى الانجليز واسكتلندا وايرلنــــدا ليحاول اقامة المجتمع التعــاونى على المبادىء التى اعتنقهـــا ، ولتكون نيو هارمونى New Harmony النموذج المدهش لتطبيق النظام الاجتمــاعى الجديد أمام العالم كله ٠

وامضى أوين معظم أوقاته من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٩ فى أمريكا ، ولم يعد الى بريطانيا الا فى زيارات قصيرة ليتابع أحوال مصنعه فى نيولارناك ، وغاب عن وطنه فى أحرج الأوقات الاقتصادية والسياسية ، وعنــد عــودته كانت بريطانيا قد تغيرت جوهريا ، فزالت آثار الأزمة التى أعقبت السـلام فى عام ١٨١٥ واستأنفت الثورة الصناعية تقدمها السريع فى الظـــروف الجديدة التى أحاطت بالبلاد زمن السلم وصارت التيارات التى كانت كامنة فى سنوات الحرب واضحة وواعية ، وأتيح لأصحاب العمل وللعمال الوقت الكافى لمراجعة مواقفهم وتنظيم قواهم فى ضوء الظروف المتغيرة ، وأخذ الفكر يتطور سريعا استعدادا للأحداث الفاصلة فى الأعوام القليلة المقبلة ، لقد ترك أوين انجلترا وهى بالكاد تخرج من القرن السابع عشر ورجع اليها ليجد نفسه فى عالم القرن التاسع عشر ، عالم جديد تماما ٠

---

(١) Dangerous infidel.

ولم يزد تأثيره فى هذا العالم الجديد فحسب بل تبدل فى صفته بصورة اساسية ، فعندما ذهب الى امريكا كان اتباعه مشغولين فى خطط لانشاء مجتمعات أو « قرى التعاون » ، ونشأت قرية اوربستون Orbiston فى اسكتلندا وانفضت فى غيبته ، ووضعت خطة قرية رالارهاين Ralahine فى أيرلندا اثناء غيابه أيضا ولو انها لم تبدأ فعلا الا بعد عودته ، لكن أهم من هذه المجتمعات الفاشلة كان نمو نفوذ أوين على الطبقة العاملة وتأثيره فيها ، فحتى قبل رحيله وعندما كان يتصدى مباشرة لمخاطبة الأغنياء وذوى النفوذ أخذت المبادىء التى كان يعلنها تضرب جذورها فى أرض طيبة خصبة هى طبقة العمال فى المدن وكانت طبقة تنمو سريعا ، فبينما لم يجد الراديكاليون من الطبقة الوسطى الذين ركزوا جهودهم على الاصلاح السياسى معبرين بصفة عامة عن فكر طبقة الصناعيين أى شىء يجذبهم الى أوين وتحديه للسياسة الرأسمالية الفردية والحرية الاقتصادية ، بل وبينما لم يفطن الراديكاليون من الطبقة العاملة أمثال كوبيت Cobbett الى المغزى الاقتصادى للثورة الصناعية ووضعوا كل ثقتهم فى التغيير السياسى ولم يجدوا بالطبع ما يجذبهم الى النظام التعاونى القائم على الرقابة الاجتماعية للقوى الانتاجية الجديدة مما كان ينادى به أوين ، نجد مبادىء أوين على العكس تجتذب شباب العمال خاصة ورأوا فيها المثل الأعلى المقبول لديهم والسياسة الاقتصادية البناءة ٠

فقد بدأت الاشتراكية البريطانية فى أعقاب السلام ١٨١٥ وظهرت كحركة عمالية تقوم على فكرة العمل الجماعى من أجل السيطرة على وسائل الانتاج ، ومن بؤس سنوات ما بعد السلام نمت تدريجيا حركة رفض منظمة ، وبدعوى الحرب تعرضت قوى البروليتاريا التى خلفتها الثورة الصناعية الى قمع شديد وطويل الأمد وآن لها الآن أن تعبر عن نفسها لا بالاضرابات والشغب فحسب ولكن بالنشاط فى صياغة ونشر النظريات الاقتصادية والاجتماعية ، وصاغ توماس هودجسكين Thomas Hodgskin نصير جودوين Godwin، ووليم تومسون * William Thomson مفسر الأوينية اقتصاديا « المطلب الذى أعلنه أوين وهو مكافأة العمل بما يوازى دوره بصفته « الخالق الوحيد للقيمة * » ، وأخذت جمعيات الطبقة العاملة فى الظهور بكثرة ، وكان الاتجاه قويا نحو بحث عن آراء وأفكار تبرر كفاح الطبقات المعدمة وتخطط للعمل من أجل هذا الكفاح ٠

(*) لمعرفة المزيد عن جودوين ووليم طومسون يرجع الى كتابينا (تطور التنظيم التعاونى . وتاريخ التعاون ومبادئه) . الناشر مكتبة عين شمس ١٩٨٤ ٠

*) "Sole Creator of Value".

وكانت مبادىء أوين أصلح ما يمكن لهذه المرحلة والوفاء بما تحتاجه حركة الطبقة العاملة الجديدة وانجيل الأمل لها ، فبينما يسود مبدأ مباركة المنافسة الرأسمالية يبشر أوين بانجيل التعاون الاجتماعي والمجتمع المنظـــم كمجتمع منتجين تعاونى ، ورغم أن أوين اتجه الى الطبقات العليا لتضـــع نظاما جديدا من أجل الفقراء فان مبادئه أوحت للعمال بالطبع بانه ليس هناك من سبب مقبول يمنعهم من العمل بأنفسهم لهذا الغرض ، فان كان الأغنياء ، لا يفعلون شيئا فيجب على الفقراء أن يعملوا ما فى وسعهم دون انتظار مساعدة من الاغنياء قد لا يملكون الموارد لانشاء المجتمعات التى يناصرها أوين لكن الا يمكنهم أن يبدأوا مبادرة ولو على مستوى أقل طموحا ؟ وهكذا قدم العمال تفسيرهم الخاص للأيونية ، وبدلا من « قرى التعاون » أخذوا ينظمــون جمعيـــات ومخازن تعاونية صغيرة من أجل الدعاية ومن أجل البيع والشراء أيضا بيع وشراء الاحتياجات اليومية على أساس تبادلى أى بدأوا « يتعاونون » على نطاق ضيق ليس لأنهم قانعون بمجرد بيع وشراء البقالة بل لأنهم يرغبون فى الاقدام على بداية لعمل واقعى ، ولأن البيع والشراء وسيلة تمكنهـــم من مراكمة أموال تستخدم فيما بعد فى مشروعات أكثر طموحا تذهب الى حـــد المجتمعات العمالية على أساس خطة أوين ٠

وتطورت الأفكار الأويونية كثيرا ومعها التجارب التعاونية فى محيط العمال فى وقت عودة أوين من أمريكـا حيث فشلت تجـــربة نيو هارمونى واكتسحت معها أموال مؤسسها رغـــم الصراع الطويل ضد الصــعوبات الهائلة ، وكان على أوين بعد عودته أن يجد نفسه ويحدد موقعه إزاء الحركة الجديدة التى نمت أثناء فترة غيابه ، فلم تكن تلك الحركة تطورا دار بخلده ولا خطط له ، ولم يدر فى البداية كيف يتصرف ازاءها ، وكان لتردده سببان ، **الأول أن المخازن التعاونية بدت له حقيرة ولا قيمة لها الى جـــانب رؤيته للنظام الاجتماعى الجديد وظل لفترة ما يعتبرها غير خليقة بتجسيد فكرته العظيمة ، والسبب الثانى هو الأهم والأخطر ، وذلك أن نظـــرة أوين الى العمال كانت أبوية حتى ذلك الوقت فخطط لهم لكنه لم يتوقع منهم أن يخططوا لأنفسهم ، فحسب نظريته فان الظروف الخارجية أضعفت شخصياتهم بدرجة أصبحوا معها غير قادرين على التخطيط السليم وهم يحتاجون الى القيادة لا الى أن يساقوا ، لكن القيادة ليست لهم ولا تناسبهم ، ولذا كان على أوين أن يتغلب على غرائزه الأبوية ليتقبل الحركة الجديدة ، ولم يستطع قهـرها تماما لكنه أدرك قبل مضى وقت طويل روح القوى الجديدة التى دخـــلت ميدان العمل ووضع نفسه على رأس أول تمرد كبير للبروليتاريا البريطانية ٠**

وهكذا وقبل أن يتوجه أوين الى الطبقة العاملة مباشرة ودون أن يعلن أى مبدأ للصراع الطبقى أو العداء السياسى وجد نفسه رغما عنه على رأس حركة عظيمة بين العمال ، وظل أثره لفترة قصيرة بمعزل عن الاتجـــــاه العام الرئيسى ، فقد انغمست أغلبية العمال فى الصراع من أجل الاصـــلاح البرلمانى الذى اقترب من نهايته بعد زمن طويل بصدور قانون الاصلاح * عام

*) Reform Act of 1832.

١٨٣٢ ٠ وتحالف العمال مع معظم الطبقات الوسطى لهذا الغرض لكـــن ما لبث الخلاف أن دب بعد الاصلاح ، واستعد Whigs ليأخـــذوا بزمـــام قيادة المصالح الصناعية ، غير أنهم لم يكونوا على استعداد للرضـــــوخ لمطالب الحقوق الانتخابية ولا لترشيح العمال فى المدن أو الريف ، وأدركت جماعات الطبقة العاملة مثل الاتحاد القومى للطبقات العاملة هذه الحقيقة كما أدركت أن العداوة بينها وبين رجال الصناعة عميقة عمق العداء بينهـــا وبين الارستقراطيين من أصحاب الأراضى ، وأيدت الأغلبية قانون الاصلاح كخطوة نحو اصلاح أكثر كمالا ، لكن الكثيرون أعلنوا بصراحة معارضتهم لأى تحالف مع المصالح الصناعية ، بل عارض البعض قانون الاصـــلاح ذاته باعتباره فى مصلحة الطبقة المتوسطة واجراء من اجراءاتها ٠

وشارك كثير من العمال اتباع أوين فى هذه الخلافات لكن أوين نفسه لم يتدخل فيها فلم يكن رجل سياسة ولم يؤمن بالاصلاح البرلمانى ســـواء معتدلا أم راديكاليا كعلاج لأمراض هى فى حقيقتها اجتماعية واقتصادية ، وبينما استمرت الاثارة حول الاصلاح تقدمت الأويونية سريعا ولكـــن فى دائرة ضيقة ، ولم تجتذب انتباه الكثيرين الذين ركزوا تفكيرها على الصراع السياسى ٠

وخضع مجلس اللوردات أخيرا للتهديد بعد سنتين من الاثارة وصدر قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ ، وكسبت الطبقـــات ** المتوسطة مكانهـــا فى السلطة السياسية ، أما حلفاؤهم من العمال الذين تحملوا قسطا كبيرا من الصراع فظلوا محرومين من التصويت ومن التمثيل فى البرلمان ، وهنـــا سنحت الفرصة أمام الأويونية فصارت نداء للعمال ليحققوا بجهودهـــم الخاصة المباشرة ما فشلت الاثارة السياسية فى تحقيقه ، فأصبح التعـــاون انجيل الطبقة العاملة ، ونشطت جماعات العمال فى كل مكان وهبت لأنشاء الجمعيات التعاونية والنقـــابات ومراكز العمل العادل ولم تهـدف هـــذه النقابات والمراكز الى تأييد قوة العمال بوصفها أدوات للمساومة الجماعية بل بوصفها أدوات لاقرار النظام التعاونى ، وقال هؤلاء الرواد أن المجتمـــع الجديد يجب أن يقام على اتحاد المنتجين اتحادا حرا فى طوائف Guilds وجمعيات تصنيع على قوة كافية تمكنها من الاستغناء عن أصحاب الأعمال وعن استغلال الأيدى العاملة لكسب ربح فردى ٠

وأصبح أوين زعيم الحركة الجديدة بلا منازع ، وأنشأ عام ١٨٣٢ البورصة الوطنية للعدل العادل The National Equitable Labour Exchange كسوق تتبادل فيه البضائع مختلف جمعيات المنتجين التى أنشأتها النقابات ، وفى العام التالى أقنع طائفة البنائية القومية الكبرى Grand National

---

**) Middle Classes.

كمحاولة طموحة من نقابة البنائية القومية أن Guild of Builders تسيطر باجراء اقتصادى مباشر على صناعة البناء ، وانشا بعد ذلك بقليل النقابة القومية المتحدة الكبرى Grand National Consolidated Trades Union كهيئة تنشد ضم جميع المنتجين اليها لتفرض عن طريق التهديد بالاضراب العام يوم عمل من ثمانى ساعات لجميع العمال ثم تحاول اعادة تنظيم النظام الصناعى بأكمله ·

وكان يبدو فى تلك الأيام من غير العادى أن يصبح أوين بهذه السهولة رئيسا للحركات الصناعية الكبرى فى السنوات التى أعقبت قانون الاصلاح بل وطليعة لها ، ورغم أنه تقاعد عن العمل فى مشروعاته ـ وكان رجل صناعة كبير وناجح ـ ليتفرغ بالكامل لأعمال جذب حماس الطبقات العاملة للحركة ، فقد يظن أن مركزه كصاحب عمل يجعله موضع شبهة لدى أولئك الذين أصبح زعيما لهم ، لكنه كان قد أفترق نهائيا عن الطبقات الحاكمة وعن رجال الصناعة وأكسبته أعماله الاجتماعية والتربوية فى نيولارناك سمعة مدوية ، وكان رجلا ذا نشاط واسع لا يحد واخلاص وتفانى عجيب فى وقت لم يجد العمال زعماء من أنفسهم ·

وكان الزمن فى جانب أوين ، لأن الطبقات الفقيرة طردت من مجالها وطرائق معيشتها القديمة بسبب انعزالها وانحباسها Enclosures فى الريف ونمو نظام المصانع سريعا وأصبحت فى حالة من القلق والاضطراب وسوء التكيف ازاء النظام الصناعى الجديد ·

وكرهت المصانع وسادة المصانع بسبب الاستياء العميق لدى الريفيين الذين اقتلعوا من أسباب معيشتهم التقليدية ، فصارت تلك الطبقات على استعداد للسير وراء أية زعامة تمنيهم بالنجاة من البؤس والمعاناة الطاحنة اليومية فى مدن المصانع الجديدة حيث القذارة اكداسا ، فلا غرابة أن يطيروا فرحا بتعاليم أوين التى تعدهم بالخلاص من أوصابهم والدخول فى نظام اجتماعى جديد بعد بضعة شهور من التنظيم ·

وهكذا وجد أوين نفسه مقبولا ومطلوبا لدى جموع غفيرة من الرجال ينشدون ومضة متمثلة فى رائد يبشر بانجيل جديد للحرية الاقتصادية والأخوة العامة الشاملة ، فأصبح بدون ارادة منه زعيما للتمرد النقابى الكبير فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، واذعن الزعماء الشبان للطبقة العاملة الصاعدة لنفوذه وتاثيره وجلسوا عند قدميه ، وظهرت فجأة وبسرعة الجمعيات الأوينية فى أرجاء البلاد وأصبحت الأوينية مرادفة « للاشتراكية » وهى كلمة جديدة أخذت تظهر فى الاستعمال لوصف طموحات العمال الاجتماعية ، وصات مبادىء « مستر أوين رجل البر » عقيدة تجتذب الولاء العميق والمعارضة المشبوبة ، وشرع أوين فى انشاء مجتمعاته كوسيلة لتجديد المجتمع ، ونجح فى انشاء الحركة النقابية الحديثة وتمهيد الطريق للحركة العظمى التى ستقوم بها الحركة العاملة أى التعاون ·

لكن اخلاق وآمال اتباعه كان مقدرا لها ان تتحطم بقسوة فى وقت ما ، ولم يكن تحقيق العصر السعيد سهلا كما تنبأ اوين ، اذ تحالف رجال الصناعة مع الطبقات الحاكمة القديمة عن طريق البرلمان بعد الاصلاح واصبحوا فى اوج قمم نجاحهم وقوتهم المنتصرة ، واستطاعوا بسهولة تحطيم النقـابات العظيمة فى صراع عام ١٨٣٤ ، وبعد سنة من الاضرابات واغلاق المصانع والمحاكمات وأهمها الحكم شديد القسوة الذى صدر على عمال دور شستر ، لم يبق من جيش العمل الصناعى العظيم الا شظايا متناثرة ، وسـقطت الحركة التعاونية بسقوط النقابات بل ابيدت فى تلك الفترة وعندما نهضت مرة أخرى بعد ١٠ سنوات على يد رواد روتشديل اتخذت مسارا مسـتقلا يختلف اختلافا بينا عن خطط اوين الذى لم يشـارك فى نهضتها السريعة ، كما ان النقابية التى انتعشت بعد سـنوات قليلة تحت اسم جديد هـو « الجمعيات المندمجة » لم تعرفه ايضا وهكذا خرج من التيار الرئيسى للطبقة العاملة سريعا كما دخله سريعا ·

وبعد انهيار عام ١٨٣٤ عـادت أغلبية العمال لتشـتغل بالأثـارة السياسية ، وفى المدة من ١٨٣٦ الى ١٨٤٨ ظهرت حركة الميثاقية Chartism وهى حركة سياسية تستوحى أساسا قوى اقتصادية وترمى الى اسـتخدام العمل السياسى لأهداف اقتصادية واجتذبت كثيرا من أنصار الحـركة الأويونية ، لكن أوين نفسه وأنصار حركتـه المتمسكين بمبادئها ظلوا على سوء ظنهم بالوسائل السياسية ، ولم يؤد أوين أى دور فى الحركة الميثاقية ، لكن الحركة الأويونية ذاتها لم تمت ، فقد تماسكت الجمعيات الأويونية الصغيرة حتى أثناء ما حدث من انهيار النقابات والجمعيات التعاونية ثم بدأت تستعيد قوتها مرة أخرى وعادت الى خططها الأولى الأصلية وحاولت من جديد انشاء مجتمع أيونى نموذجى ، وبدأت تجربة انشاء هذا المجتمع عام ١٨٣٩ واستمرت حتى ١٨٤٦ من هارمونى هول Harmony Hall أوكوينوود Queenwood وكانت آخر تجربة فاشلة فى هذا الصدد ·

لكن الأويونية كمبدأ اجتماعى أخذت تتحول سريعا من حيث الشكل ، وبلغ أوين الثالثة والستين ابان انهيار عام ١٨٣٤ وتوقف منذ ذلك الحين عن أن يكون زعيما صناعيا وأصبح معلما دينيا فى المقام الأول يقيم مبادئه الاجتماعية على أساس « ديانة الرشد » الانسانى Rational Religion واهتمت الجمعيات الأيونية اهتماما عظيما بتعاليمها الأخلاقية والدينية المضادة دون التخلى عن آرائها الاجتماعية وحدثت تغيرات متتالية فى اسم وظائف الجمعية الأيونية الرئيسـية اذ كان اسمها « اتحاد الطبقات الكادحة Association of the Industrious Classes أصـبح اسـها أخـيرا « جمعيـة المتدينين العقـلانيين » Society of Rational Religionists التى نشأت عنها الحركات العلمانية Secularist والأخلاقية الحديثة ، واستمر أوين وقد تقدم به السن يعـلن بلا انقطاع عن مقدم « العالم الأخلاقى الجديد » الا أن تعاليمه صارت مجرد

اعلان وايحاءات ، وفقد بعد عام ١٨٣٤ كل اتصال وثيق مع أى طائفة كبيرة من حركة الطبقة العاملة ، وعاش نحو ٢٤ عاما بعد ذلك ، لكن أيام مجده انتهت وأخيرا وفى هذه الشيخوخة وقد اربى على ٨٢ عاما من العمر انقلب روحيا يتلمس عالم الأرواح وأمضى الخمس سنوات الأخيرة من حياته يتقلب بين الوسطاء الروحيين ومحضرى الأرواح حتى مات عام ١٨٥٨ فى السابعة والثمانين وفى عالم نساه ونسى رسالته عالم اجتاز متاعب وضغوط الثورة الصناعية وتركها وراءه الى انتصرات ورخاء منتصف العهد الفكتورى الرأسمالى ، وبدا أن « العالم غير الأخلاقى القديم » دفن نهائيا فى خضم الرخاء العظيم ومع ذلك بدا « العالم الاخلاقى القديم » أبعد منالا مما كان منتظرا ، وقد عاش أوين وتجاوز الاحداث والأيام التى كان فيها على قمة الشهرة والفاعلية والتأثير ٠

وسامر فى هذا الكتاب مرا سريعا على العشرين عاما الأخيرة من حياة أوين ، وانما يقاس الانسان بما فعل فى عنفوان رجولته وليس بطيشه فى هذه الشيخوخة ، ويجب أن نتذكر أوين بما كتب وصنع فيما بين عام ١٨٠٠ حين تولى الأمور فى نيولانارك وعام ١٨٣٤ عند انقضاض الاتحاد القومى الكبير للنقابات وقد انتهى نهاية غير متوقعة ، فقد صنع أوين فى هذه السنوات كثيرا مما يذكر به ، فكان رائدا وراعيا لحركات كثيرة بصورة لا يعادله فيها انسان آخر ، وكانت نيولانارك فى وقت من الأوقات رائدة فى التربية الشعبية واصلاح المصانع ، وتذكرنا أحداث ١٨٣٠ ـ ١٨٣٤ بتلك الشخصية القائدة فى الحركة العمالية العريضة المتسقة الأولى ، ووجدت الاشتراكية كما وجد التعاون فى أوين أول من يعرضهما على الناس فى بريطانيا العظمى ، وبالمثل اتخذت العلمانية والعقلانية بدايتهما وصورتهما تحت ارشاده ورعايته ٠

ولكن ليست هذه القصة كلها ، فقد تحرك أوين فى كل مكان وعلى رأسه أكليل نجاحه التجارى فكان معتبرا رجل أعمال عظيم ، عالى الكفاءة فى الشئون المالية وادارة المشروعات الكبيرة ، والحق أنه منظم ومدير يشار اليه بالبنان وذو قدرة على تحريك مرؤوسيه والتعايش معهم ـ لكن لم يكن أحد أقل منه تقديرا لقيمة المال فكان يبالغ فى انفاقه ولا يقف أبدا لحظة ليحسب تكلفة تجارية ، ولا صبر له على تحليل نتائجها المالية ، وكانت نيولانارك تغل مالا لكن ما أن يضع يده على المال حتى ينفقه سريعا ، فما ألقى أوين بالا أبدا بل لم يدرك أبدا كم يمكن أن تخسر نيولانارك ، وظل منهمكا بكل اهتمامه فى مشروعاته الرامية الى تجديد وترقية الجنس البشرى ٠ ولذا عندما كان يضطر للعمل بالموارد الضئيلة التى يجمعها أتباعه يغلبه حبه للانفاق دائما ويزج بنفسه فى متاعب وصعوبات لا يدركها الا بعد أن ينقضى الأمر ، ورأى العصر الذهبى دائما عند منعطف الطريق التالى ولذا سابق الربح جريا نحوه ولم يجد وقتا ليلاحظ العثرات فى الطريق ٠

وسميت اشتراكية أوين « طوباوية » خيالية Utopian وحملت هذا الاسم تمييزا لها عن الاشتراكية « العلمية » التى أتت بعد ذلك · وهذا الوصـــف صحيح لأن وين أعتبر أخلاق الانسان وشخصيته ذات قيمة كبرى كعـلاج لفساد الزمن ، وكان يعلى من شأن أثر البيئة ويذهب أحيانا الى القـــول بأن الاصلاح يأتى فورا كنتيجة حتمية لتغيير البيئة ، ويناقض أولئك الذين يعزون بؤس الفقراء الى جرائمهم ، ولا شك أن تفكيره هذا خاطىء لكنـــه لم يكن يقول فى الواقع أغاليط بل كان يبالغ فى الحقيقة ، وأسهم أوين فى الفكر الاشتراكى عندما أكد على أن يكون أســاس الاشتراكية التضــامن الجماعى وعلىضرورة بناء العقيدة الاشتراكية كتعبير واع عن مقدرة العمال على التعاون معا ، وظل رأيه هذا فترة طويلة بعيدا عن الأنظار ولم يقـــدر حق قدره الا الآن ، وأوين الكاتب كان طويل النفس ومملا أحيانا ، وارتكب كثيرا من الأخطاء فى أفعاله حتى أسدل النسيان على نجاحاته الكبرى ، لكنه فى مجال الآراء أعظم البارزين فى المســـيرة المبكرة لتطور الاشــــتراكية البريطانية بل فى التاريخ الاشتراكى البريطانى كله فيما أرى ، ومن السهل أن نسخر من مواطن الضــعف فى أوين مثل انهماكه فى الروحيـــات فى شيخوخته ، لكن يصعب الا نعترف به كرائد عظيم للعقيـــدة التى مازال العمال حتى الآن وفى جميع أرجاء العالم يكافحون من أجل أن تكون أساسا لنظام اجتماعى جديد ·



الفصـــل الثانى

الطفــل

THE CHILD



ولد أوين الذى صار رائد لكثيـــر من الحركات عام ١٧٧١ ، وكانت التجارة فى ذلك الوقت تتقدم وتسع سريعا والثروات تتراكم بين أيـــدى طبقة التجار لكن بريطانيا العظمى كانت مع ذلك ما تزال بلدا زراعيا ، لا تملك الا صناعة واحدة هى صناعة المنسوجات الصوفية التى اعتمدت مباشرة على الزراعة وقامت متصلة اتصالا وثيقا بالزراعة كصناعة ريفية فى القــرى والمدن الصغيرة منظمة فى أغلبها على الطريقة المنزلية ، نعم انشئت بعض المصانع لكنها الاستثناء من القاعدة العامة لأن الثورة الكبرى فى القــوة الانتاجية ــ التى نسميها الثورة الصناعية ــ لم تكن بدأت بالكاد ، والبلاد مازالت على عتبة عهد المخترعات الكبرى واستخدام الالات وقوة البخـــار فى الصناعة لكن كل هذه التطورات كانت فى بداياتها الأولى بعيدة عــن أن تحدث أثرا اجتماعيا واضحا ، فلم يخترع اركرايت Arkuright العجـــلة المائية Waterfrane الا منذ ســنتين قبل هذا العهد وحصـــل هارجريفز Hargreaves على براءة اختراع المغزل قبل عام واحد فقط ، أما منسج كرومبتون Crompton الذى يدور بالبغال ومنسج كارترايت Carturight الميكانيكى فلم يظهرا بعد ، ولم يسجل جيمس وات آلته البخارية الا قبـــل سنتين من مولد أوين ، وكانت الثورة فى صناعة الحديد تدخل مرحلتهـــا الخطيرة والتحسينات العلمية فى تمهيد الطرق وشق القنوات فى بدايتهـا وعلى الجملة كانت المخترعات العظيمة التى صنعت الثورة مازالت فى بداية استجماعها لقوتها التى استطاعت بعد ذلك فى منتصف القرن أن تحـــول انجلترا الى ما يسمى « ورشة العالم » .

وفى الوقت الذى ولد فيه أوين لم يدرك احد ضخامة وعمق التغيرات التى حدثت فعلا ولا عظم قوتها المجتمعة التى ستؤثر وشيكا لا على الصناعة فقط بل على كل حياة الأمة . ولم يظهر كتـــاب آدم سميث « ثروة الأمم » الا بعد ٤ سنوات وهو المؤلف الخطير الذى له أثره فى التحول العظيـم ، وظل الفكر الاقتصادى حتى ذلك الحين تجاريا Merchantalist وســادت فكرة التاجر عقول السياسيين الذين لم يفطنوا الى قيمة صاحب العمـــل الصناعى ، وفى المحيط السـياسى لم توجد أية حـــركة جديدة للتمرد أو الاصلاح ، ولم يستطع جون ويلكس * John Wilkes واتباعه احداث سوى أثر ضئيل فى حزب الاحرار Whigs الذى أخذ فى الظهور والصعود ، أما حركة المقاطعات من أجل الاصلاح فلم تكد تبدأ كحركة قومية ، وكان الصراع مع المستعمرات الامريكية ما يزال فى مرحلته المبكرة ، فبعد ذلك الزمـــن

(*) سياسى ثورى بريطانى عاش بين (١٧٢٧ ــ ١٧٩٧) حاولت الحكومة أن تعتبره خارجا عن القانون لمواقفه العنيفة ضدها ، غير أنه كان محبوبا على الصعيد الشعبى وانتخب عدة مرات بالبرلمان .

بسنتين وقع حادث ميناء بوسطون وبعد خمس سنوات صدر اعلان الاستقلال الامريكى واكتسبت الارستقراطية القديمة مالكة الأراضى مزيدا من القـــوة بمصاهرة بعض كبار الأغنياء من أعضاء طبقات التجار والماليين واندمجت معها الى حد ما ، ولذا بدت مستقرة الأوضاع وقد ملكت فى يدها زمـــام السلطة بغير منازع تقريبا ، فالأرض مازالت حتى ذلك الحين أساس النظام الاجتماعى والسياسى ومفتاح القوة الســياسية والاحترام الاجتمـــاعى ، وتقدمت حركة الأسيجة بسرعة بل زادت سرعتها بعد قليل ، وطرد الفلاحون وصغار ملاك الأرض من مراكزهم القديمة ، وبذلك توافرت طبقة « العمال المأجورين » وأصبحت على استعداد للدخول فى نظام المصانع الجديدة ، لكن معظم الناس كانوا يعيشون بالعمل المباشر أو فى الصناعات المتناثرة التى تعتمد على الزراعة وترتبط بها ارتباطا وثيقا ، وكان التعدين وليدا باستثناء وادى نهرى تاين Tyne وتيز Tees ، وصناعة الحديد مقتصرة على بعض المنشآت الصغيرة رغم أنها كانت تنمو بسرعة واتساع ، وباختصار بـــدأت الثورة الصناعية لكن النظام الجديد لم يلتفت بعد الى ما تضعه أمامه من تحديات ٠

وقضى أوين الصغير طفولته وسط أناس وأماكن لم يتأثر بعد بالتغيير العظيـــم ، فقـــد ولـــد فى نيـوتاون بمونتجـومريشـــاير Newtown, Montgomery-Shire وهى بلدة صغيرة على حدود ويلز تنعقد فيها الاسواق ولوالد يعمل سروجيا وبائع بضائع حديدية ويقوم بأعمال ناظر البريد المحلى ، وكان ترتيبه السادس بين سبعة أطفال لكنه مبكر النضج يدل على ذلك قوله « كنت قبل أن أبلغ السابعة من العمر مغرما بقراءة كل ما يقع فى يدى من كتب والتفكير فيما تحتويه » (١) ، وقرأ كل شىء من الروايات الى التاريخ الى الشعر وكتب الجدل الدينى خاصة ، وكل ما وجده فى المكتبات الخاصـــة التى اتيحت له فى منطقة جواره ، ورغم أن ذلك كان سابقا على اليقظـــة السياسية التى تلت الثورات فى فرنسا وامريكا فان الفكر الدينى استيقظ على يد ويزلى Wesley ، وايتفيلد Whitefield ، وليامـــز Williams وكانت المساجلات الدينية اللاهتية ـ خاصة فى ويلز ـ الوسيلة الطبيعيـــة الأكثر اتباعا لشحذ قريحة صغار السن والباحثين عن المعرفة ، ويدين أوين بيقظته الى ثلاث سيدات من اتباع مذهب الميثودست Methodist اتين للاقامة فى المنطقة التى اقام بها أوين الصغير ، فاستعار منهن الكتب وشجعه على القراءة والتفكير بنفسه ، **واكتسب ذهنه ربما منذ بدايته وربما بتاثيرهن فى هذه السن المبكرة اقبـــالا قويا على الفكر الدينى ، فكان روبرت أوين من بدايته حتى نهايته رجلا عميق التدين حتى وهو يذكر جميع العقائد ويكتسب سمعته ككافر ومادى ، ويجب أن نفهم ذلك اذا اردنا فهم اطوار حياته ككل متماسك واضح ٠**

---

(١) حياة روبرت اوين ـ مجلدا ـ الحوار الثانى فى المقدمة ٠

ولم يكن للمذهب الميثودى والمبادىء الدينية والحياة الدينية كما عرفها أوين الصغير فى مقتبل أيامه أى مضمون اجتماعى أو سياسى ، ورغم أن اتباع الميثوديست وأمثالهم لعبوا دورا هاما فى بعث حركات الاصلاح فان تلك المبادىء لم تبد له فى هذا المظهر ، غير أن المجادلات الدينية التى قرأها فى هذه السن المبكرة جعلته يفكر فى العالم ومكان الانسان فيه ، ولكنه رأى المشكلات الدينية التى اتجه اليها عقله مشكلات تتصل بضمير الانسان الفرد وعلاقته بالعالم اكثر من اتصالها بالمحيط المباشر للانسان كما أن بيئته المستقرة فى نيوتاون لم تثر لديه أى قضية اقتصادية أو اجتماعية ، فقد أخذ يفكر حتى فى شبابه الأول تفكيرا مجردا ٠

وقد يوحى كل ذلك الى القارىء اليوم انطباعا غير صحيح بأن أوين الصغير كان مدعيا بتدخل فى أشياء لا تناسب سنه ، ومجردا من الروح العالية والقدرة على الاستمتاع ، وهى الصفات التى نراها مناسبة لسن الغلام ، وهذا يصح جزئيا فقط ، لأن الصبيان فى ذلك الوقت كانوا ينضجون ويهتمون بشئون الرجولة مبكرا عن أيامنا هذه ، ولا شك أن أوين ألهم روحا عجيبة من التساؤل ومع ذلك تدل الدلائل على انه امتلك قدرة فائقة على الاستمتاع فكان لاعب كرة جيد وأفضل العدائين بين تلاميذ مدرسته وأقدرهم على القفز العالى ، ومحبا جدا للرقص ، وعازفا ماهرا على الكلارينت ، وله شعبية كبيرة بين أقرانه وبين الكبار أيضا ، ويقول لنا أنه لم يكن قويا لكنه كان سريع الحركة ماهرا وينطبق هذا الوصف أيضا على ملكاته العقلية انطباقه على صفاته الجسدية ٠

فنضج أوين المبكر وتفكيره فى الأمور الكبرى هو ـ والحالة هذه ـ من سمات العصر فضلا عن أنه من صفاته الشخصية أيضا ، فالعصر الذى أدرك طريقة لانكاستر التعليمية التى تجعل الطفل يعلم زميله دليل على أنه عصر ينضج فيه الأطفال مبكرين وسريعا ويزجون بأنفسهم ليكسبوا عيشهم مستقلين فى سن لا يبلغ الطفل الآن فيه منتصف مرحلة التعليم الابتدائى ٠

ويبدو أن معلم روبرت أوين فى مدرسة نيوتاون ـ واسمه مستر ثكنيس Thickness لم يكن عالى الانجاز والمقدرة ، ويقول أوين « فى مدارس تلك البلدان الصغيرة يعتبر التعليم جيدا اذا استطاع التلميذ الوصول الى أن يقرأ بطلاقة ويكتب بخط واضح ويفهم قواعد الحساب الأربعة الأولى ، وتلك فيما أعتقد كانت حدود مقدرة مستر ثكنيس ومؤهلاته كمعلم فى المدارس لأننى ما كدت انتهى من تحصيل هذه الأساسيات التعليمية البسيطة فى سن السابعة حتى طلب من والدى أن يأذن لى بأن أصبح مساعده وصرت اسمى بهذا اللقب طوال وجودى فى المدرسة ، وبهذه الطريقة سددت مصاريف تعليمى من عملى كمساعد مدرس (١) ويستطرد أوين قائلا أن السنتين اللتين

---

(١) حياة أوين (نسخة بل Bell) ص ٣ ٠

أمضاهما فى المدرسة بعد هذا التغيير « مفقودتان » بالنسبة له « باستثناء أننى اكتسبت عادة تعليم الآخرين ما أعلمه » ، وهذا ما حدث أيضا فى حياته العلمية التالية .

وصار مبدأ أوين فى السنوات التى تلت ذلك أن لبيئة الانسان الأولى الأثر الأعظم فى تكوين شخصيته وخلقه ، ويبدو واضحا أن هذه السنوات الأولى فى نيوتاون احدثت اثرا حاسما على اتجاهه العقلى ، فاكتسب الرغبة فى التعليم ورغبة أكبر فى تعليم الغير ، لكن نظرا لقصور تعليمه فى المدرسة فقد اعتمد على مصادره الخاصة فى التحصيل فقرأ قراءات واسعة لكن بغير منهاج ، وفكر تفكيرا ثاقبا لكن بلا تنظيم ، فأدخل فى ذهنه كثيرا من الآراء ثم نقلها للغير جاعلا اياها آراءه الشخصية دون مراعاة لمصادرها أو للسابقين عليه ، وبأدق المعانى بدأ حياته « مفكرا حرا » اذ يبدو أن ابويه تركاه لنفسه فى سن مبكرة بل وشجعاه على تكوين رأى وحكم مستقل ، وتأثر تطوره كثيرا بحرية التفكير المبكرة هذه ، فلم يكن انسان اقل منه تقديرا للثقات من الأمور العقلية ولا أقل منه رجوعا اليهم ، ولم يكن انسان أكثر منه استخداما لأفكار الآخرين كمادة خام لتكوين أحكامه الخاصة ، وستبدو اهمية ذلك عندما ناتى الى دراسة نمو آراء أوين المخالفة للدين فى سنوات رجولته .

وكان الآباء فى القرن الثامن عشر ــ فيما أعتقد ــ متخلفون عن الآباء الذين جاءوا بعدهم فى العهد الفكتورى ، لأنهم رأوا من واجبهم اللجوء كثيرا الى استخدام العصا ، وطالما ضرب اوين فى كثير من المناسبات ، لكن احدى المناسبات يرويها روبرت أوين فى كتاباته وهو فى السادسة والثمانين وتوضح لنا بصورة جلية نوع الصبى الذى تمخض عنه الرجل ، ووقعت الحادثة عندما كان بالكاد فى سن السابعة .

« كنت أتوق دائما لتنفيذ رغبات والداى ولم ارفض ابدا أن افعل ما يطلبانه منى ، وفى يوم قالت لى امى شيئا غير واضح رأيت أن الرد السليم عليه هو « لا » فقلت « لا » بطريقتى العادية مفترضا أننى انزل عند رغبتها ، لكنها لم تفهم موقفى وحسبت اننى رفضت طلبها ، وفجأة وبشىء من الحدة على غير عادتها من الحديث لى بحنان قالت « ماذا ! ألا تريد ؟ » ، ولاننى قلت « لا » فقد اعتقدت اننى لو قلت « نعم سأفعل » سأناقض نفسى فقلت ثانية « لا » لكن بدون أن أقصد عصيانها ، ولو أنها عندئذ سألت فى أناة لتعرف أفكارى ومشاعرى لوصلت الى فهم سليم ولسار كل شىء كالمعتاد . لكن أمى لم تدرك أفكارى ومشاعرى كلمتنى فى حدة أشد وبغضب لاننى لم أعصها أبدا فيما سبق وكانت لا شك مندهشة ومستاءة عندما قررت القول بانى لن افعل ، ولم تكن أمى تضربنا أبدا بل كانت مهمة التاديب متروكة لأبى وكثيرا ما ذاق أخوتى وأخواتى وقع السوط الذى نحتفظ به فى المنزل الاقرار النظام بين الأطفال لكننى لم يمسنى السوط أبدا من قبل ونودى والدى وعرف رفضى ، وسألنى مرة أخرى عما اذا كنت سأفعل

ما تريده أمى فأجبت قائلا « لا » بثبات وتأكيد ، فذقت عندئذ ضربة الســوط التى تكررت عقب كل رفض منى بعد تكرار السؤال وكنت أقول كل مرة « لا » وأخيرا قلت « يمكنكم ان تقتلونى لكننى لن أفعل » وكان ذلك نهاية الأمر ، ثم سوى الخلاف سريعا واستمر موقعى فى الأسرة كالأبن المفضل كما كنت دائما » (١) ٠

وقد يكون رد فعل القارىء هنا أيضا أن أوين مدعى ومعجب بنفسه ، وأعتقد أن هذا خطأ ، فما كان غير صبى ذى قوة ارادة طبيعية وهو يستخدم تلك القوة ويمارس ارادته ، وقد استفاد من هذا الحادث فيما بعد عنــدما تولى تعليم الأطفال فى مصانع نيولانارك ٠

وتحتوى السيرة الذاتية لأوين التى كتبت قرب نهاية حيــاته الطويلة كثيرا من أحداث طفولته فى نيوتاون ، وينبغى أن نترك القارىء ليقرأها فى كتاب من أمتع القراءات يعطى فكرة جديدة جدا عن أوين الصبى والرجل ، ويحتوى الكتاب أيضا صورا من أحداث حياته فيما بعد ، ويعزو لنفسه فى شبابه آراء ومبادىء واضحة المعالم والتكوين ، والكتاب صادق جدا وحى ككل ما فعله أوين ٠

واستمتع أوين بطفولته ومن الواضح أنه كان قادرا منذ البداية على اكتساب الأصدقاء وكل ذكرياته تقريبا كانت ذكريات سعيدة ، كان ســعيدا فى البيت وسعيدا بين زملائه وأقرانه ، وكان أغلب أقربائه من الفلاحين ، وأمضى فى زيارتهم أوقاتا طيبة ، كما قضى أوقاتا طيبة يجوب البلدة والمنطقة، وربطته علاقة وثيقة مع ابن عم له ، وصادق أيضا طالب جامعى اســـمه جيمس دونJames Donneوكان عمــره نحو ١٩ سنة بينما كان أوين فى الثامنة أو التاسعة ، لكنهما كانا يمشيان معا مسافات طويلة يتحدثان فى مختلف الموضوعات ، وأثمرت هذه الصداقة الوثيقة التى استمرت فى مرحلة تالية من حياتهما ثمرات طيبة كما يقول أوين وعملت على توسيع نطـــاق تفكيره وحبه الجارف للطبيعة ، وحمل معه حبه للطبيعة وجمالها عندما انتقل الى بيئة المصنع ، بل أقام عليه أحد الملامح الرئيسية لنظامه التعليمى فى نيولارناك ٠

لكن لم يترك أوين الصغير طويلا حرا كما يريد ، ففى التاسعة تــرك المدرسة بعد أن عمل مساعد مدرس لمدة سنتين ، وأسند اليه عمل فورا ، وكان يجاور اسرة أوين الآنســات تلســـلى Misses Tilsley وكن يملكن دكانا للأقمشة والبقالة ، وكان أوين يساعدهن فى أيام الزحام عندما كان لا يزال

---

(١) حياة أوين ، ص ١٤ ٠

فى المدرسة ، ثم التحق بالعمل عندهن متفرغا عام ١٧٨٠ وظل يعمل لمـــدة عام ويعيش طبعا مع أسرته ٠

وكان أحد اخوة أوين قد ذهب قبل ذلك الى لنـــدن طلبا للرزق وصار مساعدا لسروجى فى هاى هولبورن High Holborn ، ولما مات السروجى تزوج ارملته وتولى الورشة ، واراد أوين الصغير أن يحذو حذو اخيه ويسعى لتجربة حظه فى العالم الواسع ، وتلقى وعدا بانه عندما ياتى عيـد ميلاده العاشر فسوف يسمح له بالذهاب لأخيه فى لندن ليحاول البحث عن عمـل لدى محل اقمشة ، وجاء اليوم فودع اهل بلدته وقام بعدد من الزيـــارات وتلقى كثيرا من هـــدايا الوداع ، ورافقه أبوه الى ولشـبول Welshpool ومنها ذهب الى شروزبرى Shrewsbury وهى اقرب موقع تمر فيـه عربات تذهب الى لندن ٠ ودخل العالم العريض وفى جيبه ٤٠ شلنا هى كل ثـروته واقام مؤقتا فى منزل اخيه ٠

وكان لوالده اصدقاء كتب اليهم فى شأن ولده ، وكان منهم مســـتر هبتنستول Heptinstall ويعمل تاجر دنتلا فى لود جيت هيل Ludgate Hill الذى عرض عليه عملا لدى قمــاش فى ستـــامفورد Stamford لانكاشير Lancashire على أن يعمل صبيا تحت التمرين ، لمدة ثـلاث سنوات الأولى بغير اجر والثانية بأجر ٨ جنيهات والثالثة بأجر ١٠ جنيهات مع الاقامة والأكل والغسيل فى المنزل » ، **وكتب اوين يقـول « قبلت هـذه الشروط ونظرا لأن ملابس تكفينى اكثر من سنة فقد بدأت منذ ذلك الحـين وأنا فى العاشرة من عمرى اعول نفسى بدون اللجوء لوالدى طلبا لمعـــونة اضافية ٠ (١)**

---

(١) حياة اوين ، ص ٦٦ ٠

الفصـــل الثالث

صبى الدكـــان

THE SHOP-BOY



وصف ديفو Defoe فى رحلاته Tours بلدة ستامفورد بأنها « بلدة جميلة جدا وجيدة البناء وذات ثروة » وهى بلدة ذات شخصية معنوية فيها نحو ٥٠٠ ناخب وعدد سكانها بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ نسمة ، وهى الى جانب ذلك مركز تجارى اكتسبت أهمية لأسواقها ومعارضها لاسيما لمعرض خاص يقام كل عام لبيع الخردوات ، وكان لمستر ماكجافوج McGuffog مخدوم أوين مركز ممتاز بين تجار البلدة ، يتعامل أساسا مع أسر المقاطعة التى تقيم متناثرة فى المناطق المجـــاورة فى لنكولنشـــاير Lincolnshire وروتلاند Rutland ، وكان ماكجافوج اسكتلنديا بدأ حياته العمليـة بائعا جـــوالا برأسمال نصف كروان واستطاع تدريجيا أن ينشىء علاقات كثيرة ثم فتح أخيرا دكانا فى ستامفورد بوصفها مركزا مناسبا ، ويقول عنـــه أوين أنه « أمين جدا ، ورجال أعمال طيب ، ومنظم جدا ، وعطوف ، وكريم ، ومحترم من جيرانه وزبائنه وممن يشترى منهم لمواظبته وحسن تصرفه · (١) وكتب أوين « كنت محظوظا لأن هذا الرجل كأن أول من عملت له » ·

وكان ماكجافوج ثريا يشترى كل بضائعه نقدا ويصر على التعــــامل بما يعتبره هامشا عادلا فوق التكلفة ، وأقام فى بيت « محتـــرم ومريح وتزوج من ابنة شخص ثرى من الطبقة الوسطى ويبدو أنهما متفاهمان جدا معا وكلاهما نشط محب للعمل ، يرعيان عملهما دائما ، ومحترمان فى كل الأوقات ولهما مقام عال بين تجار التجزئة بل يعتبران من أرستقراطية هـــذه الطبقة دون أن يتصفا بأى ضـــــعف من أوجـــه صفات الضعف المعـــروفة فيهـــا » (٢) ·

وأقام أوين مع آل ماكجافوج الذين لم ينجبـــا أطفالا ، وعاملاه ، كما يقول « وكأنه أقرب لأن يكون ابنهما من كونه غريبا أتى من مكان بعيد » « وكانت ادارة المحل جيدة وتلقى أوين تدريبا منظما ودقيقا وشاملا فى جميع الفروع ، ويكتب أوين قائلا « أعتقد أننى اعتبرت نشطا وملتزما بالتعليمـــات الصادرة الى لأن مستر ومسز ماكجافوج نادرا ما رأيا منى خطأ أو وجهـــا لى كلاما غير مقبول ، وكانت مسز ماكجافوج تشرف على العمل فى كثيـــر من الأحيان » (٣) ·

---

(١) حياة اوين ص ١٦

(٢) المرجــع السابق ، ص ١٧ ·

(٣) المرجع السابق ص ١٧ ·

وكان بالبيت مكتبة والعمل غير مجهد لأن معظمه كان يجرى ما بين العاشرة صباحا والرابعة بعد الظهر ، فوجد أوين وقتا يقدر بخمس ساعات في المتوسط يوميا يقرأ فيها طول السنوات الثلاث التي قضاها في ستامفورد ، وواصل ضمن قراءات أخرى دراسة الكتب الدينية ، وكان ماكجافوج من اتباع كنيسة اسكتلندا Presbyterian بينما زوجته من اتباع كنيسة انجلترا ، وكان يذهبان ومعهما أوين لحضور الصلاة مرة في الصباح في كنيسة أحدهما وأخرى بعد الظهر في كنيسة الآخر ، وحفزت العظات المتعارضة تفكير أوين فبدأ يدرس عقائد مختلف الطوائف المسيحية وغيرها من طوائف المؤمنين ، وطبقا لروايته التي لا نرى سببا للشك فيها ، **فقد وصل وهو في سن الثالثة عشر الى نتيجة تقول أن جميع الطوائف المتعارضة على خطأ وان اختلافات العقيدة بينهم لا ترجع الى ارادات الأفراد الذين يعتنقونها بل الى تأثير المؤسسات الاجتماعية · « علمني عقلي ومنطقي أنه ليس في وسعي أن أضع أيا من صفاتي وأن هذه الصفات أملتها على الطبيعة ، فلغتي وديني وعاداتي كلها من املاء المجتمع على ، وأنا بأكملي ابن الطبيعة والمجتمع ، فالطبيعة تمنح الملكات والمجتمع يوجهها ولذا كان لزاما على أن أهجر جميع المعتقدات في كل دين تعلمه الانسان بعد أن رأيت الخطأ فيها وفي أسسها ، لكن مشاعري الدينية تحولت مباشرة وحلت محلها روح البر والاحسان العام ، لا لطائفة واحدة ولا لحزب ولا لقطر ولا للون بل للجنس البشرى مع رغبة حقيقية ومشبوبة لفعل الخير من أجل البشر » (١) ·**

ويبدو هذا القول دليلا ناصعا على النضج المبكر ، لكن في طريقة عرضه الكثير مما يعتبر فكر الرجل الشيخ وهو يحاول التذكر أكثر مما يكون فكر الصبى الذى يحاول الشيخ أن يتذكره ، غير أننا لو فصلناه لوجدناه بلا شك ناطقا بما كان يدور في ذهن أوين الصغير ، الذى تربى في مناخ دينى واطلع مبكرا على الخلافات الطائفية فانصرف عن جميع الطوائف في السن الذى يكتفى فيه الصغار عادة بالايمان بمعتقدات آبائهم أو أولياء أمورهم مقتنعين بها ، بل ان ابتعاده عنها كان قويا وعنيفا لأن ميوله الدينية كانت قوية بدرجة استثنائية ·

وهناك قصص كثيرة عن شبابه تشهد بذلك ، فحتى قبل أن يغادر نيوتاون كان قد اكتسب لنفسه اسم « القسيس الصغير » ويحدثنا هو أنه كتب ثلاث عظات واحتفظ بها حتى قرأها بعد سنوات في ستيرن Sterne ووجدها شديدة التشابه في فكرتها مع ثلاثة عظات أخرى حتى خشى أن يظن أنه انتحلها ولذا مزقها (٢) ، وقدم أوين أدلة أخرى على تدينه وهو صبى

---

(١) حياة أوين ص ٢٢ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٤ ·

فى ستامفورد ، فقد صدم لما رآه من انتشار عدم العناية بالالتزام بالسبت واحترامه « **وقفـز الى ذهنى وانا فى الثانيــة عشـــر او الثالثة عشـر ان اكتب فى هذا الشأن الى مستر بيت Pitt الذى كان رئيسا للوزراء (١) ، وأوضحت فى خطابى مظاهر عدم تقديس السبت السائدة فى ســـتامفورد واعربت عن أملى فى أن تتخذ الحكومة بعض الاجراءات لفرض الالتـــزام بالسبت بصورة أفضل ٠٠ وبعد ثمانية أو عشرة أيام اشترى مستر ماكجافوج احدى صحف لندن وقال لى « هذا رد على خطابك من مستر بيت » وكنت لم أتوقع ردا فدهشت وصعد الدم الى وجهى وسألته عن فحوى الرد فقال انه تصريح طويل من الحكومة توصى جميع الأحزاب بمراعاة السبت بشــكل اكثر التزاما »** ٠

وظن أوين عندئذ أن خطابه هو الذى أحدث ذلك الأثر لكنه وجد بعـد ذلك أن الأمر مجرد مصادفة ، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل حتى تغيرت آراؤه ، وانصرف اهتمامه عن مسألة السبت والالتزام به ٠

وانتهت السنوات الثلاث التى كان فيها صبيا يتدرب فى ستامفورد ، وطلب منه ماكجافوج أن يبقى مساعدا له وغمره بكثير من العطف الدافىء ، لكن أوين قرر أن يسير فى طريق واحد على ذلك ، فقد تعلم فى دكان ماكجافوج كل ما يمكن ان يتعلمه هناك وأراد أن ينطلق الى نطاق عمل أوســـع افقا ، ولذا رفض رجاء مخدومه وهو آسف واتجه الى أخيه فى لندن ليبحث لـه عن عمل جديد (٢) ٠

ولم ير فى هذه السنوات الثلاث أى فرد من أفراد أسرته ، فعاد من لندن الى نيوتاون وأقام قليلا مع أسرته وزار جيرانه ، وفى غضـــون ذلك كان مخدومه يجد فى رعايته واستطاع أوين بناء على توصية منه أن يجد عمـلا لدى فلينت وبالمر Flint and Palmer وهو محل قماش قديم العهـــد لـه شهرة طيبة ، وكان موقعه عند كوبرى لندن القديم والتجارة والعاملات فيه مختلفة كل الاختلاف عما لدى ماكجافوج فى ستامفورد حيث معظم التعـامل مع أسر المقاطعة وفى بضائع من أعلى جودة والمعاملات تتبع خطا مسـتقرا من الأدب وفى أناة تامة وبلا عجلة ، أما عند فلينت وبالمر فكانت المعـاملات نقدا « فالمحل مستقر وعريق واعتقد أنه أول محل يبيع نقدا ويربح صـــغير » وأدرك أوين الفرق على الفور » فالزبائن من طبقة دنيا ويعاملون بطريقـة مختلفة ، ولا وقت للمساومة فالأسعار محددة لكل شىء ورخيصة بالمقارنة بأسعار المحلات الأخرى ، فاذا اعترض المشترى أو تردد سحبت من أمامه البضائع واتجه الاهتمام الى زبون آخر فالمحل ممتلىء بالمشترين من الصباح

---

(١) صار بيت رئيسا للوزارة فى آخر عام ١٧٨٣ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٢٢ ٠

حتى وقت متأخر من المساء » (١) وباختصار انتقل أوين من أخلاق العالم القديم فى ستامفورد الى زحام العاصمة الآخذة فى الاتساع ·

وفرض عليه عمل شاق « وكانت واجبات المساعدين فى هذه المنشأة المزدحمة متعبة جدا ، فيجب عليهم الاستيقاظ وتناول الافطار وارتداء ملابسهم ليكونوا فى استقبال المشترين بالمحل الساعة الثامنة ، ولم يكن ارتداء الملابس فى ذلك الوقت عملا سهلا ، فكان على وأنا عندئذ صبى صغير أن انتظر دورى ليقوم الحلاق ليدهن شعرى ويرش عليه المسحوق ويلفه فى خصلات وكان لى خصلتان كبيرتان فى كل جانب من رأسى وخصلة على شكل ذيل خنزير ، وحتى يتم كل ذلك بعناية وأناقة شديدة لم يكن أحد يجرؤ على التفكير فى الظهور أمام المشترين ويبدأ المحل فى الامتلاء بالزبائن بين الثامنة والتاسعة ويزداد عددهم حتى يزدحم ويفيض على مساحة المحل رغم سعته ، ويستمر ذلك حتى وقت متأخر من المساء أى حتى العاشرة عادة أو العاشرة والنصف أثناء شهور الربيع كلها ، ويتناول الموظفون الغذاء والشاى فى عجلة ، فيتسلل اثنين أو ثلاثة أو حتى واحد كل مرة ولا يتاح لهم الا ابتلاع الطعام ثم يعودون الى أماكنهم ليتسلل غيرهم وهكذا ، وكانت الوجبة الوحيدة المنتظمة هى الافطار أما أيام الأحد فتقدم وجبة غذاء جيدة وممتعة ، وبعد أن يغادر الزبائن المحل فى العاشرة أو العاشرة والنصف يبدأ فصل جديد من العمل ، فالاصناف التى تباع مثل الخردوات كثيرة العدد جدا وعند عرضها على الزبائن تحل وتفك ويضطرب نظامها وتختلط ولا وقت ولا مكان لتنظيمها أثناء وقت العمل طوال اليوم ، ولذا يجب أن تنظم بعد وقت العمل بعد أن يغلق المحل أبوابه ، ويستغرق ذلك من الساعة الحادية عشر حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل الى أن يستعيد المحل نظامه من جديد وهكذا دواليك ولا أكاد بعد الفراغ من كل ذلك فى الثانية صباحا أن استطيع الصعود الى النوم سوى بالتشبث بالدرابزين ، وبعد الوقوف على الاقدام طول النهار وقدرا كبيرا من الليل أوى للفراش لانام نحو ٥ ساعات » (٢) ، فلم يكن الأطفال العاملون فى المصانع هم وحدهم عبيد الثورة الاقتصادية فى القرن الثامن عشر ·

ويجرى هذا فى شهور الربيع أما فى الصيف فتقل حركة البيع قليلا ، ويستطيع أوين أن يتناول وجباته فى شىء من الدعة وينام عند منتصف الليل ، لكنه قبل أن يتناوب عمله فى الصيف التالى قرر أن ينجو بنفسه من تلك العبودية ، فطلب من أصدقائه أن يبحثوا له عن عمل أفضل ، وما لبث صديقه القديم مستر هبتنستول Heptinstall أن حصل له على عرض بالعمل لدى مستر ساترفيلد Satterfield وهو تاجر أقمشة بالجملة والتجزئة فى مانشستر كان محلا من الدرجة الأولى وعرض على الى

---

(١) حياة أوين ، ص ٢٥ ·

(٢) حياة أوين ، ص ٢٦ ·

جانب الاقامة والمأكل والغسيل أربعين جنيها سنويا (١) ، ووافق أوين على هذا العرض الذى رآه رائعا ٠

لكن عندما جاءه العرض شعر بالأسف لمغادرته محل فلينت وبالمر فقد مات مستر فلينت وانتقل المحل لادارة الأخوة بالمر وكانوا ثلاثة أصغرهم فى سن أوين تقريبا وكانا قد تصادقا وأخذا يقضيان أيام الآحاد معا فى رحــلات وأوقات فراغهما فى جولات وقراءات فقد أصبح المحل أقــل حركة عن ذى قبل ، وتألم أوين لمفارقته صديقه ، وذهب مرة أخرى بحثا عن حظه وهو فى سن الخامسة عشر أو السادسة عشر الى مكان لم يكن له فيه معارف مطلقا ولا فــرد واحد ٠

ووجد أوين محل ساترفيلد لا يشبه كثيرا محل بيع بالجملة لكنه ممتاز كمحل بيع بالتجزئة يتعامل مع زوجات وأسر أغنياء التجار ورجال الصناعة فى مانشستر ويتاجر فى بضائع رائجة ، ومرة أخرى أقام لدى أسرة صاحب المحل وعومل معاملة كريمة ولم يكن العمل مرهقا فوجد مرة أخرى وقتــا متسعا للقراءة ، ويكتب أوين قائلا ان مستر ساترفيلد بائع ممتاز لكنــه ليس دقيقا كمشترى ولذا لم يجمع ثروة تذكر برغم رواج تجارته ، بينمــا استطاع مخدومه الأول مستر ماكجافوج أن يجمع ثروة ويتقاعد عندما بلغ أوسط العمر تاركا العمل الى الخروج للصيد مع نبلاء المقاطعة ، ولما مــات ترك لأرملته دخلا ألف جنيــه ســـنويا ، وذلك لأنه كان يشترى نقــدا ، أما ساترفيلد فقد اضطر للشراء بالأجل وبالكاد استطاع أن يسدد ديونه ، لكن العمل أعجب أوين ول فيه حتى بلغ الثامنة عشرة ٠

وكان قد اكتسب خبرة جيدة عندئذ عن مختلف فروع تجارة التجــزئة واصبح خبيرا ممتازا فى الحكم على مختلف أنواع المنسوجات لأن المحلات الثلاثة التى عمل فيها كان كل منها متخصص فى أصناف من البضائع تختلف عن أصناف الآخر مما أكسبه تدريبا شاملا وواســـعا استفاد منه أكمــل استفادة ، وتعلم لا سيما من مخدومه الأول عادات حسنة منها اتقان مســك الدفاتر فى نظام ودقة ونظافة وحسن السلوك والمعاملة كما صقلت تصرفاته وقراراته ودراساته الكثيرة ، وهكذا وصل الى سن الرجولة فى الثامنـــة عشرة على استعداد للانطلاق الى مغامرة جديدة ٠

---

(١) حياة أوين ص ٢٧ ٠



الفصـــل الرابع

قصـــة عمـــل

A ROMANCE OF BUSINESS

كان عام ١٧٨٩ عام الثورة الفرنسية لكن هذا الحدث لا سجل له فى حياة أوين ولم يترك فى تاريخه أثرا بينما معاصروه وردزورث Wordsworth وكولردج Colleridge وسوذى Southy وكثير غيرهم من الشباب من كل الطبقات زلزلوا من جراء المبادىء الجديدة التى هبت رياحها على انجلترا عبر المانش من فرنسا ، لكننا لا نجد دليلا على أن تلك المبادىء الجديدة حركت انتباه أوين واهتمامه فى تلك الأيام ، ولم تثر فيه مغامراته حتى الآن أى ردود فعل سياسية ، لقد فكر بعمق فى الدين وبدأ فعلا فى صياغة نظريته عن خلق وشخصية الانسان وكيفية تكوينها ، لكن لا يبدو أنه فكر فى أى تطبيق سياسى لآرائه ، وسنرى فيما بعد أن انجيل اليعاقبة ومبدأ الديمقراطية السياسية لم يجدا فى ذهنه قبولا ، فقد وصل الى ما وصل اليه بشأن المجتمع من طريق آخر مختلف جد الاختلاف ٠

لكن يبرز عام ١٧٨٩ فى حياة وتاريخ أوين كعام فاصل وان يكن بالنسبة اليه منقطع الصلة بالسياسة فهو العام الذى القى بنفسه فيه بجرأة فى خضم دنيا الأعمال واندفع بما يملأه من روح المغامرة القوية ليصبح سيد نفسه ويستقل كرجل أعمال لحسابه الخاص ٠

ولا شك أن صبيا فى الثامنة عشر حين يصبح رجل أعمال مستقل انما بخطوط نحو موقف يشكل حدثا مدهشا ومثيرا فى حد ذاته ، لكنه لم يكن يبلغ فى ذلك الوقت مبلغ الاثارة التى يمكن أن نحسها اليوم بازائه ، فمثل هذه الأحداث تقع دائما فى عصور التغير السريع والتحولات العظيمة ، ووجدنا فى سنوات الاثراء السريع اثناء الحرب العظمى صبيانا صغارا فى مثل هذه السن وأقل أصبحوا فجأة من أصحاب السفن أو مصانع الذخيرة ، فطوفان التغيير الاقتصادى يفتح أبواب العمل والمستقبل أمام المواهب جميعا شرعية كانت أم غير شرعية ٠

وغمر مانشستر فى ذلك الوقت فيض من التغيرات السريعة ، وعاشت عام ١٧٨٩ ضمن هذا الفيض وقفزت صناعة القطن هناك لتصبح أعظم المشروعات التجارية فى العالم والصناعة الأولى فى النظام الرأسمالى الآخذ فى النمو سريعا ، وواجهت صناعة الصوف تحديا حقيقيا وخطيرا من الصناعة القطنية الجديدة بعد أن ظلت لقرون مضت الصناعة الأساسية فى البلاد وشغلت أذهان أجيال عديدة من التجار والساسة وتحدت لانكشاير وسابقت يوركشاير الى مركز التطور الاقتصادى وسارت مانشستر قدما لتصبح أعظم مدينة تجارية فى الشمال وبدأت تتخذ تلك السمات من المبادىء التى كان مقدرا لها أن تطبع البلاد كلها بطابعها بوصفها منطق النظام الجديد الذى لا يقاوم ٠

ولم يجاوز مجمـــوع سكان مدينتى مانشستر وسالفورد Salford ۱۰٫۰۰۰ نسمة عام ۱۷۰۰ ثم بدأ عدد السكان فى التزايد سريعا فى القـرن الثامن عشر ، وعندما أجرى تعداد محلى فى ۷۳/۱۷۷٤ بلغ سكان مانشستر ۲۲٫٥۰۰ نسمة وسكان سالفورد نحو ٥۰۰۰ نســـمة ، وكان عدد سكان الضواحى المجاورة الداخلة فى أبرشية مانشستر ١٤٠٠٠ نسمة تقريبا ، لكن لكن هذه الزيادة لا تقارن أبدا بالنمو الذى حدث فى الفترة التالية ، فقـــد أسفر التعداد العام الذى أجرى سنة ۱۸۰۱ عن زيادة هذا العدد الاجمالى من ٤١٫٠٠٠ نسمة الى ۹٥۰۰۰ نسمة ، وعندما أجرى التعداد الرابع عام ۱۸۳۱ وصل المجموع الى حوالى ۲۳۸۰۰۰ نسمة أى أن سكان مانشستر زادوا ثلاثة أضعاف فى الثلاثة أرباع الأولى من القرن الثامن عشر ثم تضـــاعفوا مرتين خلال الفترات التالية ومدتها ۳۰ عاما ثم تضاعفوا ست مرات تقريبا فى الستين عاما من ۱۷۷۰ حتى ۱۸۳۰ (۱) ٠

ويرجع معظم هذه الزيادة الضخمة الى نمو صناعة القطن التى لم تبدأ فقط مع الثورة الصناعية بل وجدت قبل عصر « الآلات الجديدة » ونظـــام المصانع بزمن طويل ، فقد كانت هناك صناعة صغيرة لكنها رائجـــة فى « وبريات مانشستر » القطنية ، وغيرها من المنسوجات التى يستخدم فيها القطن ، وكان « القطن الشـــعر Cotton Wool » وهو ما سمى به القطن الخام فى تلك الأيام يستورد على نطاق صغير فى القرن السابع عشـــر ، وكان يمثل سلعة دائمة التداول فى التجارة مع الهند وجزر الهند الغربيـــة فى أوائل القرن الثامن عشر لكن تجارة القطن فى انجلتـرا كانت صـــغيرة الحجم نسبيا ، واحتوت معظم الأقمشة التى سميت « قطنيات » على خليـط من المواد الأخرى ، واستخدم الكتان فيها كسداة Warp وجرت العادة على خلط القطن الشعر بغزل الحرير أو الصوف ، وكانت الآلات الجديدة لازمـة حتى يمكن صناعة المنسوجات من القطن الخاص والتغلب على العقبـات التى عاقت نمو هذه الصناعة فى مقتبل القرن الثامن عشر ٠

وزادت واردات القطن الخام زيادة مضطردة من منتصف القـــرن الثامن عشر وازداد الاقبال على السلع القطنية المصنوعة منزليا ، وبلغـت الواردات من القطن الخام عام ۱۷۰۰ أقل قليلا من مليونى رطل ، ولم تحقق أية زيادة حتى عام ١٧٤٨ عندما قفزت فجأة كنتيجة مباشرة فيما يبـــدو لظهور المخترعات الأولى الهامة التى أثرت على الصناعة ، فبلغ المســتورد ٦٫٧۰۰٫۰۰ رطل من القطن عام ۱۷٥۱ وزاد الى ٤ ملايين رطل عام ١٧٠٤ ثم ٦٫٧۰۰٫۰۰۰ رطل عام ۱۷۸۰ ، وظهرت نتائج استخدام الآلات بوضوح فى عقد السنوات التالى ، وبلغ المستورد من القطن الخام ۳۱٫٥۰۰٫۰۰۰ رطل عام ۱۷۹۰ زاد الى ٥٦٫۰۰۰٫۰۰۰ رطل عام ۱۸۰۰ برغم ظـــروف

---

(۱) انظر هويلر Wheeler تاريخ مانشستر . ص ٢٤٩ وما بعدها ٠

الحرب ، وبقدوم عام ١٨٣٠ بلغت الواردات السنوية من القطن أكثر من ٣٠٠ مليون رطل ، وزادت قيمة صادرات المنسوجات القطنية من ٣٠٠٠٠ جنيه عام ١٧٠١ الى ٣٥٥٠٠٠ جنيه عام ١٧٨٠ ثم ١٦٦٢٠٠٠ جنيه عام ١٧٩٠ ثم ٥٤٠٦٠٠٠ جنيه عام ١٨٠٠ وارتفعت الى أكثر من ١٨ مليون جنيه عام ١٨٣٠ وكانت الزيادة فى كمية السلع القطنية التى تباع بالقطعة كبيرة جدا لأن تغيير طرائق الانتاج بادخال الآلات أدت الى تخفيض عظيم جدا فى الأسعار ٠ (١) ٠

وأدت زيادة السلع القطنية بالطبع الى صراعات مع المصالح المعنية فى تجارة المنسوجات الأخرى ، فلم تكن صناعة الصوف الصناعة الوحيدة الكبرى فى البلاد والتى تستخدم أكبر عدد من العمال وأكبر قسط من رأس المال فقط بل انها كانت أيضا على اتصال وثيق بالطبقة الحاكمة ٠ لأن المادة الخام اللازمة لصناعة القطن كنت تستورد كلها من الخارج أما معظم المادة الخام فى صناعة الصوف فتنتج محليا ، وبذلك يؤدى ازدهار صناعة الصوف الى زيادة دخل أصحاب الاراضى من الايجار ، وكانت هذه الطبقة من أصحاب الأراضى ما تزال راسخة من مواقعها من السلطة وتحتكر القوة السياسية ، نعم كان الصوف يستورد بكميات قليلة نسبيا لكن هذا الاستيراد قصد به فقط سد العجز من الانتاج المحلى ، ويختلف الأمر هنا عن استيراد القطن اختلافا بينا ، فالقطن مادة خام بديلة كان ينظر اليها باعتبارها نوعا من الصوف وبديلا أرخص كثيرا ، وقد بدأت صناعة هذه المادة تنافس بشدة صناعة قديمة وسائدة ومسيطرة وتستخدم طرائق انتاج أكثر فاعلية فى تلك المنافسة ٠

ولذا فالنظرة لصناعة وتجارة القطن الصاعدة اتسمت بالعداء الشديد ، واتجهت المعارضة بادىء الأمر قبل أن تزداد أهمية الصناعة المحلية الى عملية استيراد البضائع القطنية المصنوعة من الشرق ، وصدرت تشريعات خاصة عام ١٧٢٠ ظلت سارية الى عام ١٧٧٠ عندما كانت الصناعة فى لانكاشير فى بداية نموها السريع وطبقت على الأقمشة القطنية المطبوعة سواء فى الخارج أو محليا واستثنى من نطاق هذا القانون وبريات Fustians مانشستر وبعض المنتجات القطنية الأخرى القديمة الانتاج والمعروفة فى لانكاشير ، لكن هذه التشريعات لم تلق نجاحا كبيرا فى محاولة استخدامها ضد الصناعة النامية بسرعة ، وقوبلت بكثير من التهرب حتى اذا قويت مصالح تجارة القطن عام ١٧٧٠ أخذت تطالب بالغائها ونجحت فى ذلك ، وظلت صناعة القطن فى السنوات التالية حرة تواصل تقدمها بلا عقبات

---

(١) عن هذه الارقام أنظر بينز Baines تاريخ صناعة القطن ومان Mann جداول تجارة القطن وبورتر Porter تقدم الأمة ص ٣٦٩

فيما عدا المناقشات التى دارت ابان الحرب فيما يتعلق بفرض الضرائب على المواد الخام التى تستخدمها تلك الصناعة ، والحق انها اكتسبت حرية كبيرة لأنها نشأت فى ظل قانون التيودور Tudor الذى ظل يحكم منافسيها ، ولأنها أيضا تمت خارج نطاق المدن القديمة ذات الشخصية المعنوية ٠

ولا شك أن من أسباب السماح للصناعة القطنية بالنمو أنها استطاعت فتح أسواق شاسعة أمام صادرات البضائع البريطـــانية بدون أن تنافس صناعة الصوف منافسة خطيرة ، لأنها صناعة لا طلب كبير عليها فى البلاد ذات المناخ الحار ، وطالما ارتفعت الشكوى فى القرن الثامن عشر من أنـه لا المستعمرات الانجليزية بأمريكا ولا الهند فيها سوق متسعة لتلك الأقمشة ، ولا ينتظر أن تفتح أسواق متسعة لها فى مناطق أخرى لأن البلاد المتقـــدمة لها صناعاتها الصوفية الخاصة بها وتستهلك الأقمشة الصوفية المصنوعة فيها ، وحتى لو ظهرت امكانيات التوســـع فى الطلب على المنســـوجات الصوفية بسرعة فليس من السهل مقابلة الطلب اذ لا يتيسر التوسع فى عرض الصوف الخام بسهولة داخليا ، ولا يتوافر الصوف فى الخارج أيضا بكميات كافية يمكن الاستيراد منها ٠

وبينما يستمر غزو الهند ونمو التجارة مع جزر الهند الغربية وأمريكا الاستوائية ظهرت الفائدة الكبيرة فى امتلاك سلعة تصدير تناســـب هـذه الاقطار واحتياجاتها ووقفت الصناعة القطنية الهندية المحلية بادىء الأمر فى طريق الصناعة البريطانية لكن تقدم الآلات حطمها وبدأت لانكاشير تصـــدر بضائعها شرقا وغربا بكميات متزايدة ، ولم يكن هناك حدود للقطن الخـــام ورغم أن واردته من الهند انخفضت فقد جاءت الواردات الكبيرة من أمريكا الوسطى والجنوبية أولا ثم من أمريكا الشـــمالية أيضا مع نمو تجـــارة الرقيق ، ولم تمض سنوات قليلة على انتهاء حرب الاستقلال الأمريكية حتى استقرت الولايات المتحدة كمورد للقطن الخام الى لانكاشير ووصل القطــن الأمريكى الى مركزه السابق المسيطر فى السوق البريطانية ، واســتمدت لانكاشير عام ١٨١٥ أكثر من نصف واردتها القطنية من الولايات المتحدة ٠

وفى عام ١٧٨٩ كانت هذه التغيرات فى بدايتها لأن الآلات الجـــديدة التى جعلت تطور صناعة القطن ممكنا كانت فى بداية استخدامها على نطاق واسع ٠ نعم اخترع كاى Kay المكوك الطائر Flying Shuttle عام ١٧٣٣ فأمكن به مضاعفة انتاج النساجين وتبديل الأساس الفنى للصناعة ، وحفـز هذا الاختراع المخترعين على البحث عن وسيلة لزيادة انتاج الغزل بادخال تحسينات ميكانيكية على عمليـــة الغزل ، لكـن هارجريفز Hargreaves لم يبتكر مغزله Spinning-Jenny حتى عام ١٧٦٧ وظهـــرت فى نفس الوقت تقريبا العجلة المائية Water Frame التى طورها تجاريا ريتشـــارد آركريت Richard Arkwright وتلى ذلك اختراعه عام ١٧٧٥ فربط بين عملية التمشيط Carding الأولية والعمليات التالية لها من البـــرم Roving

الغزل Spinning ، وبعد ذلك بأربعة سنوات اختراع كرومبتون Crompton آلة الغــزل Spinning mule ·

لكن التغييــر الحيوى الأســـاسى فى صناعة القطـــن لا يعزى الى اختراعات كاى وهارجريفز فهذه الاختراعات يمكن أن يديرهـــا العـــامل ويستخدمها فى منزله بما كان يسمى « النظام المنزلى » بل يعزى ذلك التغيير الى الآلات الجديدة التى ادخلها اركريت وكرويتون لأنها صممت منذ البداية لتعمل ميكانيكيا مما يستدعى بالضرورة ادخال نظام المصانع ، وكانت القوة الميكانيكية تستمد غالبا من الماء قبل أن ينتشر استخدام الآلة البخارية التى اخترعها بولتون Boulton ووات Watt وأدى ادخال الآلات الجــديدة الى ضرورة تجميع العمال فى المصانع ·

وقد ذكرت فيما سبق الأسماء التقليدية التى يقال انها أسماء مخترعى الآلات ، لكن الحقيقة أن كل اختراع لم يكن نتيجة فكرة أصيلة وكاملة قامت فى ذهن رجل واحد ، لكنه عملية متواصلة وتدريجية من التحســين لأفكار سابقة ، ويذهب الفضل عادة للرجل الذى اكتملت العملية على يديه ، وفيما يختص بآركريت بالذات فموضع التساؤل هو عما اذا كان قد اختـــرع أى شىء على الاطلاق بل قام بمجرد لم شمل أعمال مخترعين سابقين ، وهــذه نقطة هامة ورئيسية لأنها تقدم أساسا للتصدى لبراءات الاختراع التى حاول أن يحمى بهــا آركريت احتكاره للعمليـــات الجـــديدة ، ولا يتيسر لنـــا أن نورد هنا قصة النزاع الكبير والحـــرب التى شنها أصحاب الأعمال بمانشستر والتحالف الذى قام بينهم والمال الكثير الذى أنفقوه فى هـــذا الصدد ويكفى أن نقول أن براءات اختراع آركرايت الغيت عام ١٧٨٥ وأصبح فى وسع كل من يريد استخدام الآلات أن يستخدمها دون أى قيود ·

وظهر بالطبع فى السنوات القليلة التالية كثير من المغـــامرين ذوى الآمال العريضة الراغبين فى الأستفادة من الفرص الجديدة المتاحة للانتاج الرخيص المربح ، وغمرت مانشستر وما حولها نهضة كبيرة فى بناء وتجهيز المصانع الجديدة واستخدام الآلات الحديثة · وحلت العجلة المائية مشكلة انتاج خيط قطنى على قوة كافية لاستخدامه كسداة ، وأمكن باســـتخدام آلة الغزل تطبيق الطريقة الفنية الجديدة فى انتـــاج غزل القطن الرفيـــع والسميك وأصبح الطريق ممهدا لتطورات أخرى عظيمة فى صناعة القطـن على أساس الاستقلال الكامل عن الصناعات البريطانية الأخرى ، لأن من يملك ولو رأسمال قليل نسبيا لكنه يسارع الى استخدام الطرائق الحديثة يستطيع أن يجنى أرباحا عالية ويحقق رخاءا اقتصـــاديا مستقرا ، فلا عجب أن ازدحم الميدان سريعا بالمتنافسين ·

وقد أوين مانشستر فى أوج هذا التطور ، ولم يكن يعلم شيئا البتة عن الآلات ، لكن تجربته المتنوعة كبائع جعلته خبيرا بالمنسوجات لا ســـيما

البضائع القطنية الجديدة المصنوعة فى بريطانيا والتى احتلت مركزا مرموقا فى عالم الموضة ، وعرف أوين عندما كان فى ستامفورد اقمشـــة الموسلين Musline البريطانية التى بدأ صامويل أولدنيو Samuel Oldknew صناعتها بعد عام ١٧٨٠ بقليل وكانت تباع الياردة منها بنصف جنيه وتعتبر عندئذ من أرقى الأقمشة ، ثم ظهر فى أواخر حياة أوين نوع أرقى منها كانت اليـاردة منه تباع ببنسين كما يقول هـــو فى مذكراته (١) ، كان أولدنيو هو الرائد لهذه الصناعة ، لكن فى عام ١٧٨٩ دخل كثير غيره فى الساحة مترسـمين خطاه وجاءت المخترعات سريعات بثورة دائمة ومتجددة تولدت عنها اصناف عديدة من الأقمشة بفضل الآلات الجديدة ٠

وكان من بين الاصناف التى يتاجر فيها ساترفيلد الهياكل السـلكية لقبعات السيدات ، وكان يقوم بصناعتها للمنشأة صانع يسمى ارنســت جونز Ernest Jones ، وبدأ جونز هذا يتحدث الى أوين عن آلات الغـزل العجيبة ويوحى اليه بأن صناعتها تجلب الربح الوفير ، لكن جونز لم يكـن يملك رأسمال وكان يقول لأوين ان مائة جنيه تكفى كاساس لبدء مشـروع ممتاز ، واقترح على أوين أخيرا أن يشاركه ويقدم المائة جنيه المطـلوبة بينما يساهم جونز بخبرته الميكانيكية على أن يقتسما الربح مناصـفة بالتساوى وأعجب أوين هذا العرض فكتب الى أخيه فى لندن ونجح فى أن يقترض منه المبلغ المطلوب ثم أبلغ مستر ساترفيلد أنه سيترك العمل عنده وذهب ليشارك جونز ، ووافق أحد المقاولين فى مانشستر على أن يبنى لهما الآلات ويؤجرها لهما بايجار سنوى ، ويقول أوين « ما لبثنا أن أصبح لدينا أربعون عاملا يعملون فى صناعة الآلات وحصلنا على الحديد والنحـاس والخشب بالأجل لصناعة الآلات » (٢) ٠

وهكذا بدأ أوين حياته العملية كصاحب عمل ، لكن الأمور لم تسر كما يرام دائما مع شريكه الذى كان ميكانيكيا ماهرا لكن لم يكن رجل أعمـال على نفس المستوى ولا قادرا على ادارة المصنع ولذا وقع على أوين عبء الرقابة التجارية وادارة العمال : « نظرت بدقة وحكمة للعمال فى مختلف الأقسام رغم أنى لا أعلم شـيئا فى الحقيقة ، لكن استطعت أن أحافظ على النظام بملاحظة كل شىء فى جميع أنحاء المنشأة التى سارت فى ظل مثـل هذه الظروف بطريقة أفضل جدا مما توقعت ، وصنعنا آلات الغـزل التى تعرف فنيا باسم « البغال » Mules كغزل القطن وبعناها وحققنا عمـلا تجاريا مربحا ، لكننى اكتشفت افتقار شريكى الى المقدرة الادارية والتجارية ولذا كنت أعمل وأنا أرتجف خوفا » (٣) ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ٣٥ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٣١ ٠

(٣) المرجع السابق ، ٣١ ، ٣٢ ٠

ودام الأمر كله بضعة شهور فقط ، وفى نهاية هذه الفترة تلقى جونز عرضا من رجل يملك رأسمال كاف يرغب فى مشاركته العمل ، فرأى أنه لا حاجة به الى أوين وعرض عليه أن يشترى نصيبه ، وتلقى أوين نصيبه عينا فى شكل ست آلات غزل مصنوعة فى المنشأة وآلة للف الغزل واعداده فى حزم Budles للبيع ، ورغب أوين فى الافلات من علاقاته بجونز فقبل الشروط رغم أنه علم فيما بعد أنه كان يمكنه الحصول على أكثر من ذلك « بلغت الآن التاسعة عشرة تقريبا وها أنا أبدأ العمل لحسابى الخاص بالآلات المشار اليها » (١) ٠

وكان أوين وهو ما يزال شريكا لجونز قد تلقى من مخدومه القديم ماكجافوج McGuffog عرضا جيدا جدا بأن يعود اليه فى ستامفورد وسيقدم رأس المال ويعطيه نصف الربح فورا ثم يعطيه المنشأة كلها بعد سنوات قليلة ، وكان عرضا كريما لكن أوين لسبب ما غير واضح لنا رأى نفسه مضطرا لرفض العرض ربما لأنه كان مرتبطا بصفقة مع جونز ، ولو أنه قبل العرض لكان محتملا — كما يقول — أن يتزوج ابنة أخ ماكجافوج التى علم فيما بعد انها متعلقة به : « لقد كان من المحتمل جدا أن أعيش وأموت غنيا كتاجر أقمشة فى ستامفورد » (٢) غير أن الانسان يشك كثيرا فى أن يعيش أوين مستقرا فى حياة راكدة مهما كانت الظروف ٠

رفض أوين عرض ماكجافوج وترك جونز واستقل بنفسه ونجح فى استئجار مصنع فى انكوتس لين Ancoats Lane وأجر جزء منه من الباطن فأصبح الجزء الذى يشغله مجانا ورتب فيه الآلات التى نالها من شريكه السابق الذى أعطاه ثلاث آلات فقط من الستة التى وعده بها ، وبدأ العمل بهذه الآلات الثلاث وثلاثة عمال عليها وأخذ ينتج الخيوط من غزولات قطنية يشتريها من شابين اسكتلنديين هما ماكونل McConnell وكنيدى Kennedy وقد أصبحا فيما بعد من كبار الغزالين فى مانشستر لكنهما لم يكونا يمتلكان فى ذلك الوقت آلات غزل لصنع الخيوط بينما لم يمتلك أوين آلات لصنع الغزل الأولى وهى العملية التحضيرية لغزل الخيوط ، فكان هذا التعاون بينهم مثمرا واستطاعوا جميعا القيام بعملية مربحة لهم ٠

وبينما أخذ شريك أوين السابق جونز ينحدر نحو الفشل استطاع أوين أن يجنى ربحا قدره ستة جنيهات أسبوعيا ولم يجد صعوبة ما فى تصريف انتاجه ، وكان يدفع ١٢ شلنا ثمنا لرطل الغزل الأولى ويبيع الخيوط بثمن قدره ٢٢ شلنا للرطل ووجد أن هامش الربح هذا مريح ، وعندما ترك ساترفيلد أقام لدى أرملة فى سانت آن سكوير St. Anne Square مقابل نصف جنيه فى الاسبوع لغرفة نوم خاصة له وغرفة جلوس مشاركة مع نزيلين

---

(١) حياة أوين ، ص ٣٢ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ ٠

آخرين ، ويقول أوين « وجدت المنزل نظيفا ، والعناية متوافرة وحسنة مــع شاى أو قهوة فى الافطار ، ووجبة ساخنة جيدة الطهى وحلوى فى الغذاء وخبز جيد وجبن وزبد وزجاجة بيرة فى العشاء ولا أذكر أننى عشت حياة أحسن من تلك أو أكثر منها باعثا على الرضا ، لكى كيف أمكن لتلك الأرملة العجوز أن تستمر فى امدادنا بكل ذلك وتربح أيضا لنفسها ما يكفيها للعيش ؟ هذا ما لم أفهمه ، ولعلها كانت تملك المنزل ، كما أن الطعام كان رخيصا فى تلك الفترة (١٧٨٩ ــ ١٧٩٠) ، وكانت الأرملة تبدو دائما فى حــــالة من من البهجة والرضا » (١) وبعد انفصاله عن جونز ترك سانت آن سكوير وذهب للاقامة عند المقاول الذى أجر منه المصنع ٠

ولو ترك أوين ليبنى مشروعه بنفسه ولحسابه الخاص من هذه البداية المتواضعة فلعله كان سيصبح مع الوقت أحد كبار رجال الأعمال ، فالأرباح كبيرة ورأس المال يتراكم بسرعة ، لكن سنحت له بعد عام واحد فرصة أكبر ، فمن بين مصانع الغزل الكبيرة الجديدة التى اقيمت فى مانشستر لتســتخدم الآلات الجديدة مصنع للغزل الرفيع اقامة مستر درنكووتر Drinkwater وهو تاجر ثرى من مانشستر يعمل فى التجارة الخارجية أساسا ولا يعرف شيئا عن الآلات أو صناعة القطن ، فاعتمد فى الادارة الفنية للمصنع على خبير ميكانيكى اسمه مستر جورج لى Mr. George Lee كان قد أشــــرف على بناء المصنع وتركيب الآلات ، لكنه لم يلبث أن جاءه عرض أفضــل مــن سير جـــورج فيليبس Sir George Philips من سالفورد Salford بالمشاركة فى مصنعه ، وأصبح درنكووتر فى موقف حرج لأن العمليــة كانت جديدة عليه وليس من السهل العثور على من تتوافر فيه الخبرة الفنية ليحل محل مستر لى ، فنشر اعلانا فى جرائد مانشستر وراه أوين فقرر فور اللحظة أن يقدم طلبا للحصول على الوظيفة وكان يناهز العشرين ، والمصنع الذى يريد أن يتولى ادارته يستخدم نحو خمسمائة عامل ٠

« بدون كلمة لبست قبعتى وذهبت رأسا الى مستر درنكووتر وطلبت أن يعهد لى بالوظيفة التى أعلن عنها وكنت صغيرا وبلا خبرة ، وما حــدث عندئذ ترك أثرا باقيا فى نفسى لأنه أدى الى عواقب هامة فى المستقبل ، قال فورا أنت صغير جدا ، وكنت قد تزينت فبدوت أصغر سنا مما أنا فى الحقيقة فقلت « هذا اعتراض سمعته منذ أربع أو خمس سنوات لكننى لم أكن أنتظر أن أسمعه الآن » « كم عمرك ؟ » عشرون عاما فى مايو هذا العام » ٠ « كم مرة تسكر فى الاسبوع ؟ » (كان السكارى كثيرون وعادة السكر منتشرة بين الجميع تقريبا فى مانشستر ولانكاشير فى تلك الفترة) « لم أسكر فى حياتى أبدا » وأحمر وجهى لهذا السؤال غير المنتظر وكانت اجابتى وطريقة كلامى مما ترك أثرا طيبا فيما أعتقد لأن السؤال التالى الذى سمعته كان

(١) حياة أوين . ص ٣٢ ٠

« ما هو المرتب الذى تطلبه »؟ » · « ثلاثمائة جنيه فى السنة » « ماذا » وقد اندهش مستر درنكووتر لطلبى لأنه ردد كلامى قائلا « ثلاثمائة فى السنة ! لقد تلقيت كثيرا من الطلبات لا أعلم عددها من أشخاص يريدون الوظيفة وما أظن أن مجموع ما طلبوه كمرتب يصل الى المبلغ الذى تطلبه » « لا يمكن أن يكون الحكم على بما يطلبه الآخرون » ، ولا أقبل أقل من ذلك فأنا أكسب هذا المبلغ من مشروعى الخاص » · « هل تستطيع اثبات ذلك لى ؟ » ، « نعم سأعرض عليك عملى ودفاترى » ، « اذن سأذهب معك وأراهما » وذهبنا الى مصنعى وشرحت لمستر درنكووتر طبيعة عملى وفتحت دفاترى وثبت له كلامى بما اقنعه فقال : « ما هى المراجع التى أسألها عن تصرفاتك فى الماضى ؟ » فقدمت له اسماء مستر ساترفيلد والسادة فيلنت وبالمر ، ومستر ماكجافوج ، فقال « تعال الى يوم كذا وسأبلغك الرد » ، وكان ذلك ليتيح لنفسه وقتا للاستعلام عنى » (١) ·

وعندما جاء الموعد حصل أوين على الوظيفة واشترى مستر درنكووتر الآلات التى يملكها أوين بسعر التكلفة ، وبهذه الطريقة المدهشة أصبح أوين مديرا على ٥٠٠ عامل وبمرتب يعد مرتفعا جدا بالقياس لتلك الأيام مع أنه لم يكد يتم العشرين من عمره واستلم العمل فورا ، وكانت معرفته قليلة بالآلات الجديدة التى سيشرف عليها ولم يكن المصنع قد بلغ مرحلة التشغيل الكامل ، وكان سلفه قد ترك العمل فى اليوم السابق ، ولم يجد أوين أى مساعدة من درنكووتر الذى لم يكلف نفسه مجرد النزول الى المصنع ليقدمه للعمال « وهكذا وبدون أية تعليمات توليت ادارة المنشأة ، وكان يجب على شراء المادة الخام ، واعداد الآلات — لأن المصنع لم تكتمل آلاته بعد — وتصنيع القطن الى خيوط غزل ، وبيع الخيوط ، ومسك الحسابات ، ودفع الأجور أى تولى المسئولية الكاملة لأول مصنع يقام لانتاج الغزل الرفيع بالآلات تولى اقامته أحد كبار الفنيين فى ذلك العصر » (٢) ·

وواجه أوين هذه التجربة كما واجه مأزق سابق عندما بدأ العمل مع جونز : « بدوت متجهما وأخذت أفحص كل شئ بدقة عظيمة ، وفحصت الرسومات والحسابات التى تركها مستر لى عن الآلات ، فكانت خير عون لى ، وكنت من أوائل الحاضرين صباحا واستمر فى العمل حتى أغلق المصنع بنفسى ليلا ، وواصلت هذا الفحص الصامت والاشراف يوما بعد يوم لستة أسابيع لا أرد على سؤال سوى بلا أو نعم وفى نهاية المدة أصبحت سيد الموقف وقادرا على اصدار التعليمات فى كل الأقسام » (٣) ·

---

(١) حياة أوين ، ص ٣٧ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٩ ·

(٣) حياة أوين ، ص ٣٩ ·

وهكذا تم الأمر وسار أوين بالمصنع الى النجــــاح ، ولم يكتف أوين باتباع خطط من سبقوه ، بل نجح فى تحسين نوعية وجودة خيوط الغــــزل الذى ينتجه المصنع بدرجة كبيرة فلم يمض وقت طويل حتى كان الغزل الذى انتجه المصنع تحت ادارته ارفع مما كان ينتجه من قبل ويباع بسعر أعلى من سعر المخزون الذى تركه مستر لى · وكان مستر درنكووتر يقابل بالسخرية عندما عهد بادارة مصنعه الى غلام صغير لكن تحولت الأمور الى النقيض بعد ذلك حين ظهرت النتائج ، وعنى أوين بالنواحى الميكانيكيــــة ونواحى الكفاءة البشرية ، فأعاد ترتيب الآلات وأدخل عليها تحسينات ، كما أدخل تحسينات على ظروف العمل والعمال الذين ـ حسب قوله ـ كانوا فى غاية الرضا واكتسب عليهم تأثيرا عظيما ، ويعزو أوين نجاحه الى عاداته من الانضباط والدقة والى علمه بالطبيعة البشرية ، وكانت نظرياته الخاصــــة بتكوين الشخصية والأخلاق تختمر فى ذهنه ، ومن رأيه أنه اذا أريــد مــن الناس أن ينجزوا عملا طيبا فمن الضرورى أن نوفر لهم بيئة مادية ومعنــــوية صالحة ·

وترك مستر درنكووتر العمل بأكمله الى أوين ولم يدخل المصنع أبدا **خلال الشهور الستة الأولى التى تولى فيها أوين الادارة ، والواقع انه لم يزر** المصنع سوى ثلاث مرات خلال أربع سنوات ، وما كان ذلك الا لـيصــاحب زائرا ممتازا ، لكنه كان يعلم ما يدور ، وبعد ستة شهور طلب من أوين أن يزوره فى بيته الريفى ، وفى تلك الزيارة أعرب عن رضاه بما يفعل أوين وعرض عليه أن يظل مديرا بمرتب ٤٠٠ جنيه للسنة الثانية ثم ٥٠٠ جنيه فى السنة الثالثة ثم بحصة الربع فى المصنع معه ومع ابنيه ، وقبل أوين العرض بالطبع ووقع على اتفاق بهذا الشأن ، وسمح له بطبع اسمه على عبــوات خيوط الغزل كمدير للمصنع فانتشر صيته فى دائرة أوسع بين المنتجين فى انجلترا واسكتلندا حيث كان للمصنع زبائن كثيرون ·

ويقول أوين أنه حتى أنه ذلك الحين كانت الأقطان الخام التى تستخدمها آلات الغزل فى انجلترا تأتى من جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية وجزيرة بوربون الفرنسية (وتعرف الآن باســـم رينيون Reanion) ، وكانت آلات الغزل المستخدمة عندئذ فى انجلترا لا تصلح لقطن أمريكا الشــــمالية التى أصبحت فيما بعد مورد القطن الرئيسى ، وكان نصيبه أثناء ادارته لمصــــنع درنكووتر أن يجرى أولى التجارب على قطن سى أيسلند Sea Island الذى يعتبر من أحسن الأقطان للغزل الرفيع ، ونجح بالصدفة وعرف الغـــزل الذى أنتجه بأنه أحسن الغزول الرفيعة أو من أحسنها بحيث كان يبـــاع بعلاوة ١٠٪ عن الاسعار الجارية والاقبال عليه شديد . ولم يكن من السهل دائما الحصول على خيوط غزل يعتمد عليها من الآلات الجديدة التى كانت ما تزال فى مرحلة التجربة لكن أوين استطاع أن يزيد من جودة خيوط الغزل ويزيدها من ١٢٠ الى ٣٠٠ وبيعها بزيادة ٥٠٪ من الأسعار الجارية ·

وحدثت عام ١٧٩٢ أزمة خطيرة فى صناعة الغزل بسبب الحــــرب فى أوروبا وتأثرت مصانع كثيرة ، لكن درنكووتر كان لديه رأسمال كبير ولم تتأثر تجارته كثيرا وكان يمتلك الى جانب مصنع بانك توب Bank Top مصنعا آخر فى نورثويتش Northwitch فأسند الاشراف عليه الى أوين وعمل مديره تحت اشرافه العام ٠

لكن كان للأزمة أثر غير مباشر على خطط أوين ، وقد سبق أن المحنـــا الى صامويل أولدنو منتج الموسيلين بممصنعه فى ماربل Marple الذى سبقت انجازاته ما فعله أوين فى نيولانارك ، فقد أقام أولدنو مجتمعا صـــناعيا لا مصنعا فحسب ، وجمع فى هذا المجتمع الزراعة والمحاجر وصناعة القطن وبنى قرية لاقامة عماله ، ويقال أنه كان صاحب عمل مثالى بالنسبة لهـذا الوقت ، ويبدو أن الوثائق التى اكتشفها حديثا البرفســور أنوين Anwin تثبت ذلك ، ومن المرجح كثيرا أن ما صنعه أولدنو أثـــر على خطط أوين التالية ، وكان فى ذهنه عندما أنشأ مجتمع نيولانارك ٠

وأصيب أولدنو بعد عام ١٧٩٢ بمتاعب مالية بعد أن أنفق كثيرا على تجهيز منشآته فلم يعد لديه رأسمال يكفيه ليقف ويعمل وكثرت عليه الديون خاصة لآركرايت فبدأ يتقدم لخطبة ابنة درنكووتر ، ويقول أوين ان غرضــه من ذلك الاستعانة بأموال درنكووتر ، ولم تتقبل ابنة درنكووتر فى بـادىء الأمر تقدم درنكووتر اليها فقد كان لها معجب آخر ولأنه كان يكبرها كثيرا فى العمر من ناحية أخرى ، لكن أولدنو كان له مركز مرموق وكان والدها يريد من يعادله مركزا ، وأمكن نتيجة لذلك ترتيب الأمور وتمت الخطبة ٠

وتأثر أوين بما حدث لأن أولدنو كان شديد الرغبة فى عقد تحـــالف قوى بين منشآته ومنشأة درنكووتر واخضاعهما معـــا لاشرافهما ، ووقفت المشاركة بين درنكووتر وأوين فى سبيل هذا الهدف ، فلم يرغب أولدنو أن يصير أوين شريكا وان رغب فى أن يستمر مديرا ، وأخيرا تحدث أولدنو مع والد زوجته المقبلة فأرسل الأخير الى أوين ليطلب منه ايضاح شروطه لكى يستمر مديرا ويتنازل عن اتفاقية المشاركة ٠

وكان أوين قد توقع كل ذلك ولذا أخذ معه مستند المشاركة عندما ذهب لمقابلة درنكووتر الذى كلمه فى البقاء كمدير فكان رد أوين قاطعا كما ينتظر منه فقال : « أحضرت الاتفاق معى وها هو سألقيه بنفسى فى النار لأننى لن ارتبط أبدا بأى شخص لا يريد أن يرتبط بى كشريك ، وفى هذه الظـــروف لا أستطيع البقاء مديرا مهما كان المرتب الذى تدفعه لى » (١) ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ٥٧ ٠

وبذل درنكووتر وسعة لاثناء أوين عن انفعاله فقد أسف أشد الأسف على فقدان مدير نجح فى عمله هذا النجاح ، ووافق أوين على البقاء الى ان يجد درنكووتر رجلا كفئا ليحل محله ، لكن قراره كان نهائيا ، ويقـول أوين أنه « تصرف على أساس المشاعر لا على أساس العقل » ، فهو لم يترك فقط مرتبا ممتازا بدون أن يكون أمامه أى بديل ، بل وترك أيضا اتفاقا يوفر لــه قيمة مالية عظيمة جدا ، وكان فى الرابعة والعشرين عندئذ ٠

ولم يتم زواج أولدنو من ابنة درنكووتر ولا الاندماج بين منشآتهما لكن قبل أن يحدث هذا الفشل كان أوين قد اتخذ ترتيبات أخرى ، وظل نحـــــو سنة فى مصنع بانك توب Bank Top لكنه تلقى عروضا كثيرة منها عـرض من ضامويل مارسلاند Samuel Marsland الغزال الكبير الذى اشـــترى مؤخرا مع آخرين أملاك تشورلتون Chorlton فعرض على أوين أن يصبح شريكا بمقدار الثلث فى الأرباح مع مصنع كبير يزمع انشاءه على أن يقـدم مارسلاند كل الرأسمال ، ويقول أوين « كان ذلك عرضا طيبا جدا لكن نظرا لأنه لم يعرض على نصف الأرباح فان مشاعرى ساقتنى الى رفضه » (١) ٠

ورأى أوين فيما بعد أنه أخطأ فى الرفض ن العرض الذى قبله بعـد ذلك كان دون الأول بكثير وهو عبارة عن مشاركة مع شابين لا خبرة لهمـا لكن يملكان رأس المال ، وقبل أن يتم الاتفاق جاء أوين عرضا آخر وانضـم الى مؤسستين قديمتين وغنيتين هما مؤسسة السادة بوروديل واتكنســون Borrodale and atkinson بلندن ، ومؤسسة السادة بارتون Barton بمانشستر ، لانشاء شركة شورلتون للغزل ، على أن تصبح المصانع الجديدة التى تولى اقامتها فى شورلتون تحت ادارته ويساعده فيهـــا مسترتوماس اتكنسون شقيق رئيس مؤسسة لندن ، وترك أوين درنكووتر عام ١٧٩٤ أو فى أوائل عام ١٧٩٥ لكن المصانع فى تشورلتون لم تبدأ العمل الا بعد سنتين أو ثلاثة ، **ورفض اوين استخدام المصانع فى عمل منتجات تنافس منتجـــات مخدومه السابق وتخصص فى تشورلتون فى انتـــاج خيوط الغـزل التى تصنع منها الأقمشة المطبوعة أو أنواع الموسيلين التى لا تدخله فى منافسة مع درنكووتر ، ويقول أوين « كان درنكووتر دائما طيبا وكريما معى الا فيما يتعلق بتنفيذ تعهده معى ، ولذا لم أشأ الاضررار به » (٢) ، وليست هـذه فيما أعلم هى الحادثة الوحيدة فى حياة أوين التى ابتعد فيها عن الاضرار بأحد أو حتى اظهار الغضب على أحد ، لأن فلسفته ــ كما سنرى ــ لا تسمح بالغضب أو الاضرار وكان فريدا فى التمسك بما يعتقده ٠**

---

(١) حياة أوين ، ص ٥٨ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٥٩ ٠

الفصـل الخامس

مانشستر ـ الـزواج

MANCHESTER — MARRIAGE



رغم أن مانشستر صارت فى القرن الثامن عشر احدى المدن الهامة جدا فى انجلترا الا انها لم تصبح مدينة لها حق انتخاب أعضاء فى البرلمان الا عام ١٨٣٨ ، بل لم تقم بها أية مفوضية للشرطة قبل عام ١٧٩٢ ولا أى شكل من الحكم المحلى أو النظام القضائى غير المحاكم الاقطاعية القديمة ، لكنها صارت فى القرن الثامن عشر مركزا لحياة ثقافية نشطة فكان فيهـــا ويزلى * Wesley واتباعه الأقوياء ، وكان مذهب التوحيد يلقى تأييدا قـويا وتبشيرا صادقا به فى كنيسة كروس ستريت Cross Street Chapel الشهيرة ، وكان دكتور بينز Baines رئيس كليـــة مانشستر الجـــديدة New College Manchester ورئيس المركـــز التـــدريبى للموحـــدين فشخصيته لها وزنها القوى ، ومن بين العلماء العاملين معه جـون دالتـون John Dalton مؤسس النظرية الذرية ، وانشأ دكتور برسيفال Dr. Percival عبقرى مجلس الصحة بمانشستر الجمعية الأدبية والفلسفية عام ١٧٨١ التى كان من أعضائها البارزين الأخوين هنرى ، ودالتون ، وروبرت أوين ، وكانت المدينة تعج بالتجار الأغنياء ، ويبين لنا دى كوينسى De Quincey فى كتـابه صور من الحياة الشخصية Autobiographic Sketches الدرجـة العالية من اللرفاهية والرقى التى سادت بينهم ٠

وباختصار فان المدينة كانت تنمو ثقافة وثروة قبل أن يعتريها التحول السريع بتأثير الآلات الجديدة ، ويتحدث جون بيرم John Byrom فى يومياته عنها بوصفها مكانا طيبا للمعيشة أثناء النصف الأول من القرن حين لم تكد تمسها الظروف الجديدة ، لكنها دخلت فى طور التغيير أيام أوين ، فتسارع نبض الحياة ، وارتفعت مبانى المصـــانع وانتشرت المساكن الحقـيرة فى الضواحى التى كانت جميلة من قبل ، وورث الجيل الجديد الذى يمثله أوين التراث الحضارى والثقافى السابق وحوله الى شىء آخـر ، شىء أكثـر اقتحاما ، ذو طابع عملى ، وفوق كل ذلك يتسم بايقاع سريع ٠

وجاء أوين الى مانشستر عندما أخذ الاتجاه الجديد يحل سريعا محل القديم ، لكنه لم يلفه تماما ولم يجعله تقليـــدا ميتا ، وأدى أوين دوره فى التحول غير أنه تعلم أشياء من النظام الجديد الذى كان فى ســبيله الى الغروب ، وشاهد عملية التحول وهى تجرى واستخلص مما شاهد بنفسه نتائج ثبتت لديه ٠

جون ويزلى : أحد رجـال الدين البـارزين ، عاش فيمـا بين (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) ومؤسس مذهب الميثوديست فى المسيحية ، وكان من عـادته أن يجوب سـنويا انحاء انجلتـرا على ظهر حصانه ليبشر بمذهبه الجديد ٠

واخرجت السنوات التى قضاها أوين فى مانشستر كوامن قـــدراته وأتمت تطوره نحو الرجولة الاستقلالية التى لا تعتمد الا على نفسها ، وعودته على المجتمع الراقى والثقافى ، وقد ترك لنا وصفا لنفسه عندما قـــدم له درنكووتر أول عرض للمشاركة فقال « كنت ما أزال شابا سىء التعليم غير لبق شديد الشعور بنقائصى التعليمية أتكلم دون مراعاة لقواعد النحو وبلهجـة انجليزية تشوبها لكنة أهل ويلز نتيجة للغة التى عهدتها فى نيوتاون التى كانت خليطا مشوشا من اللغتين ، ولم اختلط الا بالمجتمع الذى يمكـــن أن يصل اليه مساعد فى محل يبيع بالتجزئة ، وكنت حساسا جـــدا وأنا بين الغرباء أن يبدر منى شعور أو تصرف غير لائق ولم أشعر أبدا بالرضا عن طريقتى فى الكلام أو التصرف فكان وجهى يحمر خجلا مهما بذلت من الجهد للتماسك ، والحقيقة أننى شعرت بنفسى فى قبضة آراء تفوق كثيرا قدرتى على التعبير عنها ، وهذا ما سبب لى الارتباك مع الغرباء خاصة فى صـــحبة أولئك الذين تلقوا تعليما جيدا ومنظما طبقـا للآراء السائدة يومئـــذ عن التعليم » (١) ٠

لكن أوين اكتسب سريعا أصدقاء راقين ، فمن بين معارفه الأول جون دالتون John Dalton الكيميائى الذى كان يعلم الرياضيات فى نيوكولدج بمانشستر (٢) واعتاد أوين وآخرين الاجتماع فى حجرته بالكلية بانتظـــام للمناقشة ، وتناولت المناقشات المسائل الدينية والأخلاقيـة والاكتشـــافات الحديثة فى الكيمياء والعلوم الأخـــرى ، ويقول أوين أنه فى احد هـــذه الاجتماعات تحدث دالتون عن نظريته النووية ، وكان صامويل تيلور كولردج Samuel Taylor Coleridge الشاب يزور هذه المجموعة فى مناسبات عديدة وحدثت بينه وبين أوين مجادلات حامية ويقول أوين « كان مســـتر كولردج يمتلك ذخيرة كبيرة من الكلمات يضعها معا فى جمل بليغة،لكن كلماتى القليلة التى تتجه الى الهدف مباشرة كانت تؤدى الغرض بوجه عام ، وكانت البلاغة والثقافة فى جانبه لكن قوة الحجة كانت فى جانبى (٣) ، ومن أسف أننا لا نعلم موضوع الجدل فقد كان كولردج فى ذلك الوقت مازال واقعـــا تحت تأثير الثورة الفرنسية ، وأغلب الظن أن المناقشات دارت حول أساسيات الســياسة ٠

واتسع محيط معلومات أوين وقـــدرته على التعبير بفضـــل هـــذه الاجتماعات ، وكانت نيوكولدج كلية للموحدين ، وكان جـــون دالتون من الكويكرز Quakers بينما عبر أوين عن آرائه المضادة للطائفيـــة الدينية ، وشيئا فشيئا أخذت الكلية تضيق بآرائهم ، وطلب دكتور بينز Dr. Baines منهم — وكان رئيس الكلية — الاقلال من اجتماعاتهم بالكلية ، وانتقلت الجماعة

---

(١) حياة أوين ، ص ٤٣ ٠

(٢) كلية مانشستر الآن باوكسفورد ٠

(٣) حياة أوين ، ص ٤٩ ٠

الى مكان آخر واكتسب أوين اسم « الآلة المجادلة » (انهم قالوا عنى أننى جعلت الانسان مجرد آلة متحدثة ، وأن طبيعة وظروف المجتمع تتطلب أن يكون كذلك » (١) ٠

وما لبث أوين أن وجد ميدانا أفسح ليمارس فيه قدراته العقلية فقـد انتخب عام ١٧٩٣ عضوا فى الجمعية الأدبية والفلسفية التى كانت عندئذ تحت رئاسة مؤسسها عالم الطبيعة دكتور بيرسيفال الذى التف حوله مثقفو مانشستر ، واقترح أوين ادخال دالتون فى عضوية الجمعية واختير سريعا عضوا فى مجلس الادارة ، وحدث قبل ذلك أن طرحت صناعة القطن للمناقشة ودعى دكتور بير سيفال أوين للحديث والقاء أول خطاب عام له « لم اتحدث أبدا فى الجمعية من قبل ولا اسمعت صوتى للجمهور العام ، ولم تخامرنى اية رغبة فى أن اسمع صوتى لهم فقد كنت حساسا وخجولا بدرجة لا تجعـل لى مثل هذه الرغبة ٠٠ وأحمر وجهى وثاثات ببضعة جمـل غير مترابطة وشعرت بكدر شديد وقد كشفت عن جهلى وعدم لباقتى أمام الناس » (٢) ، لكن اوين اتبع خطبته ببحث مكتوب عن صناعة القطـن قدمه للجمعية فى نوفمبر ١٧٩٣ ، وقدم أوين بعده ثلاثة بحوث أخرى (٣) ٠

ومن صداقات أوين فى فترة اقامته بمانشستر صداقته مع روبرت فولتون Robert Fulton رائد الملاحة البخـارية الأمريكى ، وقد سكنا معا حقبـة من الزمن عام ١٧٩٤ ، وتعتبر حياة فولتون العملية شـيئا متميزا فى ذلك الزمان ، فقد ولد لأبوين فقيرين وارسل للتتلمذ عند جواهرجى لكنه أحس بالرغبة فى أن يصبح رساما للمناظر والأشخاص وجاء الى انجلترا للدراسة ، فتعرف الى جيمس وات James Watt ودوق برد جووتر Duke of Bridgewater فبدل خططه مرة أخرى وتحول للاهتمام بالهندسة المدنية والاختراع ، وانهمك عام ١٧٩٤ فى اختراع آلة لحفر الترع والقنوات ، واستنفد ماله فى الحصول على براءة اختراع لهذه الآلة واقرضه أوين بعض المال ودخـلا معـا فى عقد مشاركة وذلك بعد أن ترك أوين عمله لدى درنكووتر وقبل أن يصـبح شريكا فى شركة تشورلتون للغزل ، ولما التحق أوين بهذه الشركة غض النظر عن مشاركته لفولتون واعتبر المال الذى قدمه له وكان يبلغ ١٠٠ جنيه قرضا ، واستمرت علاقة الصداقة بين أوين وفولتون حتى عام ١٧٩٧ وسدد فولتون ٦٠ جنيه ثم ذهب للاقامة فى فرنسا ليجرى تجارب على التوربيدات لحـرب الغواصات ، ولم يسمع عنه أوين بعد ذلك شيئا سواء من باريس أو بعـد

---

(١) حياة أوين ، ص ٥٠ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٥١ ٠

(٣) بودمور Podmore مجلدا ١ ، ص ٥٨ وكان موضوع البحوث « فائدة التعليم » « العلاقة بين السعادة العامة والميكانيكا العملية » « مصدر الآراء الخاصة بتحسين الفضائل الاجتماعية » وهى ارهاصات عن نظرياته المتأخرة ٠

عودته الى أمريكا ، وشعر أوين بالسرور فيما بعد لأنه ساعد فولتـون فى فترة حرجة من حياته العملية ولأنه أيضا كان سببا لزيارته لجلاسجو حيث أطلع على المحاولات الرائدة التى قام بها هنرى بل Henry Bell لصـنع سفينة بخارية (١) ، والتقط بذرة الفكرة التى طورها فى أمريكا بعـد ذلك لتصبح وسيلة عملية للملاحة البحرية (٢) ٠

وزال عن أوين خجله واصبح يختلط بمجتمع مانشستر بسهولة ، لكنه ظل خجولا مع النساء ولم يصادق منهن أحدا بعكس قـدرته على مصـادقة الرجال والاحتفاظ بصداقتهم غير أنه كان جذابا للنساء برغم ما قيل عـن دمامته ، ويبدو أن شابة واحدة على الأقل جميلة ومثقفة مالت اليه لدرجـة أنها تمنت أن تصبح زوجته ، لكن أوين لم يدرك ذلك الا بعد وقت طـويل ، وكتب عن تلك الفترة حين كبر سنه قائلا « كان حريا بهذه الصلة أن تناسب وتشبع كل مشاعر طبيعتى لو اننى كنت أمتلك عندئذ علما بالعالم وثقة كافية بالنفس تمكننى من اقامتها ، لكنها لم تقم ، فقد عارضتها الظروف وكان ينتظرنى قدر آخر » (٣) ، ويقول لنا أوين أنه كان يريد زوجة ورغم أنه انجـذب الى هذه الشابة فقد منعه خجله فيما يبدو من التقدم اليها ٠

وكان أوين يقيم أو يسكن فى تشورلتون هـول Chorlton Hall وهو المنزل الكبير فى الضيعة التى كان يبنى فيها مصنعه الجديد ، ثم انتقل بعد ذلك بفترة قصـيرة عام ١٧٩٧ ، ليقيـم فى بيت كبيـر يسمى جرينهيز Greenheys أقامة أحد تجار مانشستر ومات قبل أن يسكنه « واعتقد أن هذا التاجر هو والد توماس دى كوينسى الذى يتضمن كتابه « صـور من الحياة الذاتية » إشارات عديدة الى جرينهيز ،والواقع أن أسرة دى كوينسى عاشت فعلا فى هذا المنزل لفترة من الزمن وولد توماس دى كوينسى فيـه عام ١٧٩٠ ، وبعد وفاة الأب اشترى أوين المنزل بالمشاركة مع أحد أصدقائه وزملاء العمل ويسمى مارشال وحولاه الى مسكنين خاصين ، وعاش أوين هناك سنتين وهو عازب ومعه زوجين كبيرين فى السن يقومان على خدمته ، وكان يطلب يوميا من مديرة البيت أن تصنع له على الغذاء فطيرة بالتفـاح تاركا لها الخيار فى باقى أصناف الطعام وكانت تجيد صنع تلك الفطائر ، ولعله قبس من الوراثة ذلك الذى جعل ابن أوين ، روبرت ديل Robert Dale

---

(١) لابد ان هذه محاولة مبكرة جدا من بل لان سفينته « كديت » لم تنزل البحـر سوى عام ١٨١٢ ٠

(٢) انظر حياة أوين ، ص ٨٩ عن علاقة اوين وفولتون ٠

(٣) حياة اوين ، ص ٦٧ ٠

أن يسجل فى قصة حياته الذاتية أنه طلب لأول مرة هذا النوع من الحلوى (١) عندما أعطوه حرية أختيار الطعام ·

ولما بدأت شركة تشورلتون للنسيج عملها صار من الضرورى لأوين أن يتحرك لانشاء علاقات عمل ، وبدأ يزور مدن لانكاشير الصناعية زيارات منتظمة ثم أخذ يزور اسكتلندا أيضا فيما بعد ، وفى احدى زياراته الى بلاكبرن Blachburn سنحت له فرصته الوحيدة لممارسة الصيد ، ولما دعى الى الصيد قال انه ليس لديه جواد فقدموا اليه جوادا ولم يستطع الرفض رغم عدم رغبته فى ممارسة تلك الرياضة ، وترك كل شىء لحكمة جواده الذى استطاع أن يجتاز به العقبات ويصل به الى موقع كل حيوان يصاد واكتسب أوين شهرة كفارس جيد لكنه لم يشترك أبدا فى الصيد بعد ذلك ·

وذهب أوين لزيارة اسكتلندا لأول مرة بصحبة أحد رجال الصناعة من برستون Preston واستغرقا فى رحلتهما من مانشستر الى جلاسجو ليلتين وثلاثة أيام فى سفر متصل على طرق « فى حالة يرثى لها » ، ولم تكن عربات البريد قد بدأت السير بعد وكان التواصل قليلا بين الشمال والجنوب ، وكان السفر الى اسكتلندا كالسفر الى بلد أجنبى « لم اتصور عندئذ اننى ساهتم بهذه البلاد بالصورة التى اهتممت بها بعد ذلك » (٢) ·

وبينما يسير أوين فى جلاسجو يوما ما قابل شقيقة احد أصدقائه فى مانشستر روبرت سبير Robert Spear الذى أقنعه بمباشرة غزل قطن سى أيلند ، وكانت مس سبير قد جاءت لزيارة صديقه لها اسمها آن كارولين ديل Ann Caroline Dale ابنة ديفيد ديل David Dale المالى والزعيم الدينى الشهير فى جلاسجو ، فتعارفا واقترحت مس ديل أن يزور أوين مصنع الأقطان الكبير الذى يملكه والدها فى نيولانارك وكانت المنشأة « تتكون وقتئذ من قرية صناعية اسكتلندية بدائية وأربعة مصانع لغزل القطن » (٣) ، ورتبت الزيارة ورضى عنها أوين كثيرا وقال لصديقه « من بين جميع الأمكنة التى رأيتها حتى الآن أختار هذا المكان لمحاولة تجربة فكرت فيها منذ زمن طويل وتمنيت أن تسنح لى الفرصة لممارستها عمليا » (٤) ، ويقول أوين مسجلا الحادثة أنه لم يفكر أبدا بانه سوف تسنح له فرصة ما لتحقيق رغبته·

---

(١) ر · و · أوين · وانا انسج طريقى ، ص ١٠٠ ·

(٢) حياة أوين ، ص ٦٢ ·

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة ·

(٤) حياة أوين ص ٦٣ ·

ونشأت عن مقابلته صدفة لمس ديل معرفة لطيفـــة ، وكانت واخواتها يسرن عادة كل صباح على ضفة نهر كلايد Clyde وصاحبهن أوين عـــدة مرات أثناء زيارته تلك ، وعندما غادر جلاسجو طالبت اليـــه مس ديل أن يأتى لزيارتها مرة أخرى عندما يعود الى المنطقة ، وعـاد بعـد وقت ليس بالطويل ومعه خطاب لمس ديل من صديقتها مس سبير ، وكتب أوين يقـول « كان تبادل الخطابات بين الأصدقاء فى تلك الأيام ترفا زائدا لا سـيما اذا بعدت المسافات ، ولم يفكر احد أبدا فى طريقة ارسال البريد بطـــابع قيمته بنس واحد كما هو الآن ولذا كثـــر أن ينقل الناس الخطـــابات فيما بين الأصدقاء » (١) ٠

واستأنف اوين السير مع مس ديل على ضفة نهر كلايد مرة اخـــرى فى زيارته الثانية وزادت الصلة عمقا بينهما ، « وجدت أن هذه الزيـارة الثانية لجلاسجو قد انتجت مشاعر اخرى غير العمل » (٢) لكنه لم يعلن شيئا بل لم يقابل والد مس ديل الذى كان يتغيب كثيرا فى رحلات عمل ٠

كان اوين خجولا مع النساء كما رأينا فكان على مس سبير أن تتولى حثه ، وعندما تقابلا عقب زيارته الثانية قصت عليه قصة عن تصرف مس ديل عقب مقابلتهما الأولى وأن مس ديل سألتها كثيرا عنه وانها قالت لو اننى تزوجت يوما فانى اتمنى أن يكون هو زوجى » (٣) ، فكان هـذا الحـديث تشجيعا لميوله وفى زيارته الثالثة لجلاسجو سار مع مس ديل وطلب اليها أن تصبح زوجته وأوحت اليه مس ديل دون تصريح أنها تحبه لكنها أوضحت انها لن تتزوجه بدون موافقة والدها وأن هذه الموافقة غير ممكنة لأن والدها ديفيد ديل لا يحب الانجليز ولا أهل ويلز وأن آراءه الدينية متشددة جدا ٠

وكان ديفيد ديل فى ذلك الوقت فى طليعة رجال الأعمال بجلاســـجو وكان والده تاجـر بقـالة فى ســـتيوارتون Stewarton باقليم آيرشـــير Ayrshire حيث ولد ديفيد عام ١٧٣٩ ، وتتلمذ اولا على يد نساج فى بيزل Paisley ثم اشتغل كاتبا لدى تاجر حرير ، وبدأ عملا مستقلا عقب ذلك بوقت قصير فى تجارة الكتان ، ولما جمع ثروة أضاف الى اهتماماته الأعمال المصرفية واصبح أحد الشخصيات الرئيسية فى النبل الملكى الاسكتلندى ، وزار ريتشارد آركريت جلاسجو عام ١٧٨٣ لمتابعة مشروعاته الخاصـــة بتطوير صناعة القطن ، ودخل ديل فى مشاركة مع هذا الرجل العظيم مـن رجال الأعمال ، وكانت النتيجة انشاء مصانع نيولانارك ، لكن ما لبث أن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ ٠

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة ٠

(٣) المرجع السابق ، صفحة ١٦٩ ٠

ثار نزاع (١) بينهما وانقطعت علاقاتهما وأصبحت مصانع نيولانارك ملكا خاصا كلها لمستر ديل وبدأت التشغيل عام ١٧٨٤ ، وفى السنوات القليلة التالية انشأ ديل أو اشترك فى انشاء عدد كبير من مصانع الغزل والنسيج والصباغة فى مختلف أنحاء اسكتلندا ٠

لكن ديفيد لم يكن شخصية كبرى فى دوائر الأعمال بمدينة جلاسجو فحسب ، بل كان أيضا الرئيس الفعلى لطائفة البرسبتيريان Presbyterian المتشددة المسماة « المستقلون القدماء الاسكتلنديون » Old Scotch Independents التى انشقت على الكنيسة أيام شبابه ، وليس فى هذه الطائفة قساوسة محترفون يتقاضون أجورا بل يكسب رعاة الكنائس عيشهم بالعمل كسائر الناس ، وعمل ديل راعيا لكنيسة هامة من كنائس الطائفة فى جلاسجو ومنسقا عاما للطائفة كلها فى نفس الوقت ، ومدحه أوين لخلقه وكرمه بعد أن عرفه فيها بعد ، غير أن رجلا مثل أوين ينشر آراء دينية متحررة لم يكن ليلقى ترحيبا من جانب زعيم أكثر الطوائف الاسكتلندية تشددا خاصة أن أوين لم يكن أيضا اسكتلنديا ، وفضلا عن ذلك فقد كان ديل من غلاة المحافظين فى حزب التورى Tories بينما آراء أوين السياسية لا يمكن تصنيفها الا بوصفها بعيدة كل البعد عن نظرات المحافظين (٢) ، ويضاف الى ذلك كله أن أوين أتصل بابنة الرجل دون أن يقابله هو شخصيا ٠

وكان لابد من عمل شىء ما فى تلك الظروف ، وتصرف أوين هنا أيضا بوحى الساعة وعندما سمع شائعة بأن ديل يرغب بشدة فى تقليص أعماله وينوى بيع مصانع نيولانارك ذهب لزيارة ديل مستفسرا عن شروطه ، ولقى استقبالا باردا بل محاطا بالشكوك كما بدا له « كنت فى حوالى السابعة والعشرين من العمر ومظهرى يدل على أننى أصغر من ذلك فقال لى بارتياب « لا يمكن أن ترغب فى شرائها فانت أصغر سنا بكثير عن مثل هذه الشئون (٣) ، وقال أوين انه يشارك رجالا أكبر منه سنا يملكون رأسمال كبير ، واتفقا أخيرا على أن يذهب الى نيولانارك لمعاينة المصانع ثم يعود الى مانشستر ليشاور شركائه ، ووافق أوين على هذاالترتيب لكنه اعتقد أن ديل لم يأخذ امر مأخذ الجد ٠

ولم يضع أوين وقتا فى تنفيذ ما اتفق عليه ، وسافر من جلاسجو الى نيولانارك وهى مسافة تقل عن ثلاثين ميلا لكنه كان لابد له أن يمر خلال

---

(١) انظر تفاصيل المشاجرة فى كتاب ر ٠ و ٠ أوين « ناسجا طريقى » ص ٩ ٠ ويقول ان كل السبب فى المشاجرة هو الخلاف على اقامة البرج الخشبى الذى يوضع عليه جرس المصانع ، وكان للرجلين وجهة نظر جمالية مختلفة ٠

(٢) انظر ١ ٠ ليديل « مذكرات ديفيد ديل » ١٨٥٤ ٠

(٣) حياة أوين ، ص ٧١ ٠

ثلاث بوابات لتحصيل رسوم المرور ، ولم يكن مع أوين نقود صغيرة فقـــدم للحارس عند البوابة الأولى نصف جنيه ، ولم تكن العملات الذهبيـــة معروفة فى الاستعمال عندئذ فى إسكتلندا ، فاخذ الحـــارس يقلب النصف جنيـــه وأخيرا رفض قبوله وأن يدع أوين يمر وهو مدين له برسم المرور على أن يأخذ عملة لا يعرفها ، وتكرر ذلك عند البوابتين الأخـــريين ، ويكتب أوين « استنتجت من ذلك أننى أتيت الى منطقة بدائية جدا (١) ٠

وعاين أوين المصانع بدقة وعـاد الى مانشستر وقدم تقـــريره الى شركائه موصيا بقوة على شرائها ووافق اثنان منهم على الذهاب معه فـورا لزيارة المصانع ، وقبل وصولهم الى جلاسجو كانت مس ديل قد أبلغت أباها عن علاقتها بأوين ووجدته رافضا للأمر بعداء شديد ، وقال عن أوين أنـه غريب ومتشرد ولا يريد أن يسمع شيئا عن الأمر ، وأبلغت مس ديل هـــذه الأنباء السيئة الى أوين مؤكدة أنها لن تتزوج بغير موافقة أبيها ٠

هكذا كان الموقف عندما جاء أوين وشريكيه لمقابلة ديفيـد ديل الذى دهش لرؤيتهم وطلبهم منـــه شراء نيولانارك ، وبعد عمل الاســـتعلامات الضرورية أكد ديل رغبته فى البيع ولم يبق سوى تحديد الثمن ، وقال ديل أنه لا يعرف فى الحقيقة كم تساوى المصانع وأضاف « لكن مستر أوين يعرف أفضل منى قيمتها فى هذه الفترة وأرغب لو حدد ما يعتقد أنه ثمن عـــادل للبائعين والمشترين » ، وارتبك أوين قليلا ازاء هذا الطلب لكن بعد النظـر اقترح ثمنا لها ٦٠ر٠٠٠ جنيه يدفع بواقع ٣٠٠٠ جنيه سنويا على عشرين سنة ، ووافق مستر ديل فورا بين دهشة أوين وشريكيه وسالهم عما اذا كانوا يوافقون فأجابوا بالايجاب « وهكذا وبهذه الكلمات القليلة انتقلت من ملكية مستر ديل الى يد شركة تشورلتون للغزل » (٢) ٠

وانتهت بذلك عملية بيع وشراء المصانع وبطريقة عجيبة لكنها لم تؤد فورا الى ازالة معارضة مستر ديل لزواج أوين من ابنته ، وكانت وشقيقاتها يقمن فى بيت بنيولانارك حيث تعودن قضاء جزء من فصل الصيف هنـــاك ، وانتقل هذا المنزل ضمن المصانع الى الملاك الجدد ، وأرادت بنات ديل ترك المنزل فورا لكن أوين اقترح عليهم البقاء وأقـــام هـــو فى فندق كلايدزديل Clydesdale Hotel فى أولد لانارك Old Lanark فسنحت له فرص كثيرة لمقابلة مس ديل لكن والدها أصر ازاء ذلك على عودتها الى جلاسجو ، لكن ديل سرعان ما عرف أوين معرفة أكيدة وبدأ يميل اليه ، كما وجد أن ابنته

---

(١) حياة أوين ص ٧٢ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٧٣ ٠

تحب اوين فسحب معارضته اخـــيرا ، وتزوج اوين وان كارولين ديل فى خريف ١٧٩٩ ، وعقد الزواج بمنزل ديفيد ديل طبقا لتقاليد الطائفة ، لكنهما تزوجا على يد قسيس رسمى يتبع كنيسة اسكتلندا « طلب مستر بالفور منى ومن مس ديل ان نقف وسأل كل منا عما اذا كان يرضى بالآخـــر زوجا ، وهز كل منا راسه موافقا دون كلمة اخرى « اذن انتما متزوجان ويمكنكما الجلوس » وانتهى الحفل » (١) ٠

وسافر مستر ومسز اوين بعد ذلك بقليل الى مانشستر حيث ازمعا الاقامة لكن الأمور ساءت فى نيولانارك بعد شهور قليلة لعدم نجاح المديرون القدامى فتقرر ان يترك اوين شريكه اتكنسون فى مانشســـتر ليتولى ادارة المصانع هناك وينتقل هو الى اســـكتلندا ليشرف مباشرة على مصـــانع نيولانارك ، وبذلك دخل اوين فى يناير ١٨٠٠ مملكته الجـــديدة التى ظلت مرتبطة باسمه كمدير للمصانع فى نيولانارك ٠

---

(١) حياة اوين ، ص ٧٦ ٠



الفصل السادس

نيـولانارك ۱۸۰۰ ـ ۱۸۱۳

NEW LANARK, 1800—1813



انشئت مصانع نيولانارك كما نعلم عـام ١٧٨٢ بمعرفة ديفيـد ديل بالمشاركة مع ريتشارد آركريت ، لكن لم تكد الأعمال المبدئية تنتهى فيها حتى انحلت الشركة بينهما بعد سنتين تقريبا واصبحت المصانع ملكا خالصا لديفيد ديل الذى كان ينوى أن يكون صاحب عمل خيرا فأدخل فيها بعض الملامـح التى طورها أوين فيما بعد ، فمثلا عندما احترق أحد المصانع عام ١٧٨٦ ظل يدفع للعمال أجورهم حتى استئناف العمل ، وأعد بعض الترتيبات لتعـليم الأطفال الذين كانوا يستخدمون بأعداد كبيرة ، وبدأ على نطاق ضيق سياسة توريد للسلع من خلال دكان أنشأه فى القرية ، لكن ديفيد ديل نفسه لم يتدخل كثيرا فى ادارة نيولانارك ونادرا ما كان يزورها رغم أن أسرته كانت تقضى جزءا من السنة فى بيت هناك ، وترك الاشراف عليها لآخرين وظل ذلك حتى اشتراها أوين وشركائه فكانت ادارتها مسندة الى أخ غير شقيق من أخوة ديل أسمه جيمس ديل يساعده مدير محترف ٠

ورغم أن اوين كان مديرا وشريكا فى المنشأة فلم تكن يـده مطلقة ، وبلغت ثروته حيئنذ ٣٠٠٠ جنيه ، وكان يتقاضى مرتب ادارة ١٠٠٠ جنيـه الى جانب حصته فى الأرباح وابتيعت المصانع بمبلغ ٦٠ر٠٠٠ جنيه وتطلبت مبالغ كبيرة لتحسينها وبذلك أصبح أوين شريكا صغيرا لأن حصته صغيرة نسبيا ، ولذا كان تصرفه منذ البداية مقيدا بما يمكنه الحصول عليـه من موافقة شركائه الاكثر ثروة والأكبر نصيبا ، وكانوا الى حد ما راغبين فى منحه حرية العمل لكن سيطرتهم على قراراته اقامت حدا على ما يمكنه أن يذهب اليه ولأنهم كانوا رجال أعمال يهمهم الحصول على اكبـر ربح ممكن على أساس العرف الجارى فى ادارة المصانع وقد اشتروا نيولانارك كمضـاربة تجارية لا كميدان تجارب اجتماعية ، لكن لأوين آراء أخرى غير انه اضطر للاحتفاظ بها لنفسه الى حد كبير ٠

ومن جهة أخرى تمتع أوين بميزة كبرى فهو فى الموقع بينما شركاؤه بعيدون جدا ، فهو يستطيع اذن من وجهة نظر طرائق الادارة الفعليـة أن يتصرف كما يشاء مادام تصرفه هذا لا يعتبر فى نظر شركائه استنزافا غير سليم للمال ، وسبق له أن حاول فى مانشستر بعض التجارب على اسـاس نظرياته ومع ذلك حصل على ربح طيب من مشروعاته هناك ، ويبدو على كل حال انه منح حرية كاملة معقـولة أثناء السـنوات الأولى مما يسـميه « حكومته » فى نيولانارك ٠

وكتب بعد ذلك بسنوات كبيرة : « اقول « حكومة لأن نيتى لم تكـن متجهة الى مجرد ادارة مصانع القطن بل الى ادخال مبادىء تتنـاول سلوك الناس وكنت بدأتها بنجاح مع عمال مصنع مستر درنكووتر والى تغيير أحوال

الناس التى رايتها محاطة بظروف لها اثار سيئة على اخلاق جميع قاطنى نيولانارك ، ولدى الآن اثر تطورات لا دخل لى فيها ، الأساس للعمل الذى اجرى عليه تجاربى التى طالما رغبت فى اجرائها لكن قليل هو ما فى امكانى تنفيذه » (١) ، وبهذه الروح امسك اوين زمـــام « الحكم » منتويا الى ان يجعل من نيولانارك لا مجرد مصنع ناجح بل معمــل لسلسلة عظيمة من التجارب الاجتماعية فى الاصلاح التعليمى والمعنوى والمادى ·

وواجهت أوين فى نيولانارك صعوبات تعتبر من وجهات كثيرة منتظرة فى مثل هذه الظروف والزمان ، فالتوسع السريع فى نظام المصـــانع زاد الطلب كثيرا على الأيدى العاملة ، لكن المصانع لم تكن محبوبة وقليل من اقبل على العمل فيها الا تحت نوع ما من الاضطرار ، وجاء الاضطرار غالبا من تحطيم نظام الحياة القروية بقوة استحداث نظام الأسيجة وتحـــويل الأرض الزراعية الى المراعى ، وادى ذلك الى خروج القرويين من أوطانهم الأصلية بحثـا عن العمـــل فى المـدن ، ويلاحظ ان نظـــام سبينهاملاند Speenhamland لاغاثة الفقراء بالمساعدات فى الأجور شجع على زيادة عدد السكان لأنه ربط مقدار الكسب بحجم الأسرة لكن حتى مع هذه الاجراءات وتوافر اليد العاملة لم تجد المصانع كفايتها من العمال وعمدت الى تشغيل الاطفال والنساء باجور منخفضة جدا وساعد على ذلك انهيار مهنة الغزل والنسيخ المنزلية قبل نمو الصناعة ذات الانتاج الكبير ، وسبق اطفال الفقراء باسم « التلمذة الأبرشية Parish Apprentice الى العمل فى المصـــانع بمعرفة سلطات قانون الفقراء Poor Law تحت ظروف هى فى الواقـــع عبودية حقيقية ، وفضـــلا عن ذلك كان العمـــال يجلبون من بين الريفيين الجائعين فى ايرلندا ومرتفعات اسكتلندا حيث كان يطرد الفلاحون بالألوف من الأرض لتحويلها الى غابات لتربية الغزال أو مراعى للأغنام لصـــالح الأغنيـاء (٢) ·

اما فى منخفضات اسكتلندا حيث توجد نيولانارك فكانت احوال الزراع طيبة نسبيا وبدا من المستحيل ايجاد اليد العـاملة للمصانع من بينهـم ، ولذا اضطر ديل ثم اوين الى جلب العمـــال من مكان بعيد ، ويكتب اوين يصف الحالة وقت توليه الادارة : « صعب جدا اقناع اية اسرة ميســورة ورشيدة بترك بيتها والعمل فى مصانع القطن كمـــا هى حينئذ » (٣) ، وهو رفض لم يلومهم عليه ·

---

(١) حياة اوين ، ص ٧٨ ·

(٢) لمعرفة تفاصيل عن طرد العمال من مرتفعات اسكتلندا ، انظر ماركس « راس المال » مجلد ١ ، ص ٧٥٢ ·

(٣) حياة اوين ، ص ٧٩ ·

وفضلا عن الصعوبات العامة التى تعانيها مصانع القطن عامة فيما يتعلق باليد العاملة عانت نيولانارك صعوبات خاصة ، فكان النـــاس فى المنطقة المحيطة بها وفى بلدة أولدلانارك المجاورة يكرهون المصانع ويرفضون العمل بها أو ارسال أطفالهم للعمل تحت نظام المصانع ، ولابد والحالة هذه من البحث عن العمال فى جهات بعيدة ، وكانت أغلبية الكبار الراشـــدين من سكان المرتفعات الذين تعودوا على حياة الزراعة بمختلف ظروفهـــا واحوالها يكرهون المصانع التى سيقوا اليها كملجأ أخير من التضرر جوعا ، ويقول أوين أنه أختلط بهم عدد جاءوا من أحط طبقات البروليتاريا فى المدن ، ومع ذلك كان النقص شديدا فى الأيدى العاملة حتى من هذه النوعيـات غير المناسبة وما أمكن الحصول عليهم لم يمتزجوا جيدا ولم يشكلوا أساسا طيبا يبنى عليه مجتمع منظم سعيد ٠

ولا يستغرب اذن أن تسوء أحوال القرية والمصنع بدرجة كبيرة خاصة عندما تولى أوين الادارة ، وليس لدينا من سبيل لمعرفة الحالة سوى مـن خلال ما يقصه أوين نفسه ولعله بالغ فى شرور مجتمعه من أجل تبيـــان الفرق بين الحالة عندما بدأ العمل وبين نتائج ادارته ، لكن لا سـبب يدعونا الى الشك فى لب حقائق ما يقول ومنها تفشى ادمان الخمر والسكر والعربدة وسوء الأخلاق والسرقة ، أما حالة المساكن فهى ما يورث الاشـــمئزاز مع انتشار الاقذار فى كل مكان بالمساكن وبشوارع القرية ، ويقـــول أوين أن الناس كانوا شديدى التدين بوجه عام لكنهم ينتمـون الى طوائف كثيـــرة متنافسة ومتنازعة مما أدى الى قيام المشاجرات العنيفة بينهم ، حتى أن أوين مال الى اعتبار أن الدين كان سببا لهذه الحياة البغيضة التى يعيشونهـــا ، وباختصار لم تكن نيولانارك حين قدمها أوين قرية مثالية ولا مكانا يجـذب الزوار المهتمين باصلاح المصانع أو نشر الوسائل الصحية فيها ٠

وكان بالمصانع الى جانب الكبار بين ٤٠٠ و ٥٠٠ من الصغار أو تلاميذ الأبرشية أولئك الأطفال التعساء الذين درجت سلطات قانون الفقراء على سوقهم الى أى صاحب مصنع مستعد لقبولهم دون أن تسأل عنهم بعد ذلك او عن احوالهم أو ما جرى لهم ٠ وهكذا كان أفضل ما يمكن أن يفكر رجل الأعمال فى الحصول عليه من ايدى العاملة فى تلك الأيام المزارعين الذين طردوا من المرتفعات ممن يكرهون حياة المصانع ويجـدون الســـلوى فى زجاجات الخمر والأطفال الفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة ، واراح ديفيـد ديل ضميره بانزال الأطفال مساكن مقبولة نسبيا وتعليمهم أوليات التعليـم الدينى لكنه اتبع الوسائل الدارجة المتبعة عندئذ فى الحصول على اليـد العاملة لمصانعه ٠

وبلغ سكان نيولانارك عندما تولى اوين الادارة نحو ١٣٠٠ نسمة فضلا عن تلاميذ الأبرشية وبعض عمال قلائل يعيشون على مسافة ميل او نحوه فى بلدة اولدلانارك وهى البلدة الأصلية ويشير اليها اوين بهـذا الاســـم فى

العادة • وعاش سكان نيولانارك في مساكن المنشاة فقد بنى ديل القرية والمصانع وعاشت معظم الأسر في غرفة واحدة دون مرافق صحية كافية ، وكانت الشوارع قذرة والمساكن سيئة الصيانة ، وبدأ أوين أول مشروع له ببناء طابق اضافى فوق كل بيت ليضمن غرفتين لكل اسرة تقريبا وهذا كل ما وسعه عمله •

وتراوح سن تلاميذ الأبرشية بين ٥ و ١٠ سنوات رغم ان سنهم في الأوراق الرسمية ما بين ٧ و ١٢ سنة ، ولم تفترق ساعات عملهم عن الكبار اذ يعملون ١٣ ساعة يوميا مع وقت لتناول الطعام يبلغ ساعة وربع ، أما تعليمهم أوليات الدين والقراءة والكتابة - لبعضهم - فيجرى بعد ساعات العمل الطويلة هذه ، لكن هذا النوع من التعليم بعد استنفاد قوة الأطفال لا جدوى حقيقية له سوى زيادة عذابهم فلم أجد بينهم أحد يفهم شيئا مما قد يحاول قراءته فكان كثير منهم ينامون اثناء الدرس » (١) « أما أطفال القرية الآخرون فلم يتوافر لهم حتى هذا النوع المضحك من التعليم •

وبرغم سوء حال هؤلاء الأطفال فقد كان خيرا من حال الأطفال في المصانع الأخرى في ذلك الوقت « لم يدخر صاحب المصنع البار (ديل) وسعا ولا نفقة في رعاية الأطفال الفقراء « وبنى بيتا كبيرا لايوائهم » وكانت غرفهم فسيحة ونظيفة دائما وجيدة التهوية ، وكان الطعام وفيرا ومن أجود الأنواع والملابس جيدة وملائمة ، ووظف ديل جراحا لعلاج الأمراض ومنعها ، وأحسن المدرسين الموجودين عندئذ من الناحية لتعليم الأطفال فروع المعرفة التي رؤى انها مفيدة للأطفال في مثل ظروفهم ، كما عين مشرفين لمتابعة كل ذلك واختارهم من المشهود لهم بالطيبة والشفقة وباختصار لا يبدو من النظرة الأولى ان شيئا ينقص المصانع من وجهة نظر البر الكامل » (٢) ، وكتب اوين في مكان آخر يقول أن بيت اقامة الأطفال الفقراء » كان في حالة رائعة (٣) •

لكن كل ذلك لا يغير الحقيقة وهي ان النظام كله كان خطأ ، فكانت سلطات الأبرشيات تصر على ارسال الأطفال للعمل وهم صغار جدا « بسبب نظرة اقتصادية خاطئة » كما يقول أوين رجل البر (٤) ، وكانت ساعات العمل طويلة جدا مما لا يجعل للطعام الجيد أو التعليم أو الرعاية والحنان أى أثر أو فائدة « وأصبح كثير منهم اقزاما جسما وعقلا وتشوه بعضهم وصار عملهم طوال النهار وتعليمهم بالليل مؤلما وشاقا مما دعا اعداد منهم

---

(١) حياة اوين ، ص ٨٣ •

(٢) نظرة جديدة على المجتمع ، مقالة ٢ ، ص ٤٥ •

(٣) حديث الى سكان نيولانارك •

(٤) نظرة جديدة على المجتمع ، المقالة ٢ ، ص ٤٥ •

للهـــرب وأخذوا ينتظرون بفارغ صبر وقلق انتهاء فترة تلمذتهم التى تمتد سبع أو ثمانى أو تسع سنوات اذ أنها تنتهى عادة عندما يبلغون سنا بين ١٣ ، ١٥ سنة ويخرجون عندئذ ولم يتعلموا كيف يكسبون عيشهم ودون معرفة كافية بالدنيا فيذهبون عادة الى ادنبـــرة او جلاسجو فتهاجمهــم الاغراءات الكثيرة التى تقدمها كل المدن الكبرى ويقع الكثيرون ضحيتها (١)٠

واستنتج أوين على الفور بأن الشىء الوحيد الذى يجب عمله هـــو انهاء هذا النظام السىء برمته ، ولذا لم يستخدم أطفالا فقراء ، واستغنى عن الموجودين تدريجيا كلما سنحت الفرصة ، لكنه لم يستطع الاستغناء عـن طرق جلب العمال من أماكن بعيدة فقد كان لزاما أن تعمل المصانع ولابـــد لذلك من الحصول على العمال ، لكنه هنا أيضا قرر ادخال اصلاح شامل ، فقد كان عدم رضاه عن ادارة المصنع والعمال الكبار أكبر من سخطه على نظام تشغيل الأطفال وايوائهم « فالنظام كله برغم الرعاية الرحيمــة التى بذلها مستر ديل كان فى غاية السوء ، وأنشئت المصانع وأديرت بعقـــول عادية لا تعرف سوى الاجراءات واتصرفات البدائية » (٢) ٠ فلم تكـــن أحوال العمال بائسة فحسب ، بل كان المصنع نفسه سىء التنظيم من وجهة نظر الكفاءة الانتاجية ٠ وحاول أوين أول الأمر أن يقنع المديرين القـــدامى بوجهة نظره لكنه سرعان ما وجد أن لا فائدة فى ذلك ، وترك هؤلاء العمــل ، وبعد فترة عندما استغنت منشأة أوين عن مصنع تشورلتون جاء مســـتر همفريز الذى كان مساعده هناك ليعمل مديرا لمصانع نيولانارك ، لكن أوين كان قد بدأ قبل ذلك فى أحداث التغيير الكبير الذى رآه ٠

ولم يحاول أوين احداث ثورة فجائية « فيجب أن تجـرى التغـــيرات تدريجيا وأن تغل ربحا للمنشأة » (٣) ، وكان عمله الأول مزدوجا : اعادة ترتيب وتحسين الآلات وبناء البيوت وتكبيرها وشق شوارع مناسـبة فى القرية ، وتصرف منذ البداية على أساس عقيدته الاجتماعية التى مؤداها انه يجب أن تكون البيئة جيدة ماديا ومعنويا اذا أردنا أن يصبح الناس خـيرا مما هم وأن ننال نتائج جيدة معنوية ومادية » ٠ وكانت هذه التجـربة فى نيولانارك أول بداية للاجراءات العملية الرامية الى تغيير المبدأ الأسـاسى الذى سيقوم عليه المجتمع منذ البداية ، وهى تجربة لن يكون هناك اقـوى منها دليل على اثبات صدق المبدأ القائل بأن الخلق يصنع الفرد ولا يصنعه الفرد ، وأن المجتمع يمتلك الآن الوسيلة والقدرة على حسن تكوين خـلق

---

(١) المرجع السابع ، ص ٤٦ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٨٤٠

(٣)حياة أوين ، ص ٨٤ ٠

وشخصية كل انسان » (١) · وسنسمع الكثير فيما بعد عن « مبـدأ » أوين هذا ، ونكتفي هنا بتسجيله على أنه هو الذى ألهمه منذ البداية كل الاجراءات التى نفذها فى نيولانارك ·

ودامت علاقة أوين بنيولانارك ثمانية وعشرين عاما ، منها خمسة وعشرين عاما كان هو المسيطر الفعلى المباشر وامتدت وتوزعت على طول هذا الربع قرن التغيرات التى أدخلها ويصعب تحديد المرحلة التى أدخل فيها تغييرا معينا أو الى أية مدة ظل التغيير مطبقا بشكل معين ، لكن يمكن القول بوجه عام أن عمل أوين فى نيولانارك ينقسم الى فترتين الأولى وهى الأطول تمتد من ١٨٠٠ الى ١٨١٣ عندما كون شركته الثالثة من أجل تشغيل المصانع فى وقت صعب وتحولت نيولانارك خلال ذلك تدريجيا الى أنجح منشأة من نوعها حينئذ من حيث النتائج التجارية والانسانية ، واقتصر عمل أوين فى هذه السنوات ـ وهو عمل عاقته الاحتكاكات مع شركائه المتتابعين ـ عن ادخال تحسينات تدريجية على ظروف العمل والمعيشة لعماله ، وكان ما يمكنه عمله فى هذا المجال مقيدا بضرورات تحقيق الربح ، ولم تجتذب هذه التغييرات الرأى العام والانتباه الجماهيرى الا قليلا جدا ، ولم يهتم أوين من ناحية بجذب أنظار الجمهور ولم يشارك فى الشئون العامة بأى دور ملحوظ ، ولم يعرفه العالم عندئذ الا بأنه رجل عمل ناجح جدا وانسانى الشعور بدرجة استثنائية لكن نظرياته لم يعرف عنها شىء خارج دائرة أصدقائه ·

وامتدت الفترة الثانية من ١٨١٣ الى نحو ١٨٢٥ وبدأت حين نشر أول كتاباته الهامة « بيان عن منشأة لانارك » (١٨١٢) « ونظرة جديدة على المجتمع أو مقالات عن تكوين الأخلاق » ، وقد نشر المؤلفان عام ١٨١٣ ، وبدأت أيضا بتكوين الشركة الثالثة التى زالت فى ظلها ولأول مرة كل القيود المالية التى كانت تعوق تصرفاته فى نيولانارك لكن حلت محلها صعوبات ليست أقل ازعاجا ، وصار أوين من عام ١٨١٣ شخصية جماهيرية عامة وأصبحت نيولانارك مكانا شهيرا يؤمه الزوار والوفود من كل أنحاء العالم بحثا عن التنوير ، وصار أوين ومصنعه من ١٨١٦ مركز بحوث لموضوعين أثارا جدلا شديدا ، الأول الكفاح من أجل تشريع المصانع وتحديد ساعات العمل ، والثانى الموضوع الدينى الذى عجل باثارته اعلانه الشهير فى مطعم مدينة لندن City of London Tavern عام ١٨١٧ ، وظل أوين من عام ١٨١٣ مسيطرة بدقة على أمور المنشأة لكن اقامته هناك لم تكن دائمة · وأخذ يتنقل ليلقى المحاضرات أو لتقديم آرائه واقتراحاته علنا للرأى العام ، وترك نيولانارك عام ١٨٢٥ ولم يعد يسيطر على شئونها الا قليلا برغم احتفاظه بمكانه كشريك فيها ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥ ·

ومن المهم ملاحظة ان أوين لم يحاول تحقيق أى من أهدافه الكبرى الا فى الفترة الثانية من هاتين الفترتين ، فلم يفتتح « معهد تكوين الأخلاق Institution for the formation of character الذى يعتبر رمزا لفكرته عما يجب أن يكون عليه أى مصنع ، سوى عام ١٨١٦ ، ولم يبلغ نظام التعليم فى المنشأة غاية تطوره الا فى ذلك العام ، أى أن دخول خطط أوين مرحلة النضج يتوافق تماما مع بدء مشاكله العامة ، وبرزت نيولانارك وهى فى أوج تطورها كمهب لعواصف الجدل كما كانت أيضا كعبة الزوار ، وكان أوين فى قمة انشغاله بتنفيذ نظامه فى نفس الوقت الذى كان يتنازعه فيه عمله بنيولانارك واهتماماته الاجتماعية والاقتصادية الأوسع مدى ٠

وسأتناول فى هذا الفصل الفترة الأولى من الفترتين المشار اليهما بعاليه مقتصرا عليها ما أمكن ، وسأترك أيضا الملمح المميز الأول لنظام نيولانارك أى مدارس وملاعب الأطفال مؤجلا أياه لحديث آخر ،وجدير بالذكر أن أوين نفسه يعتبر الثلاثة عشر عاما الأولى أو نحوها من عمله فى نيولانارك مرحلة تحضيرية بحتة ، وفى افتتاح « المعهد » يوم رأس السنة عام ١٨١٦ شرح أوين للعمال فلسفته عن الحياة والمجتمع ووصف علاقتها بما صنعه حتى ذلك الوقت ، وكان فى ذهنه أن يعيد بناء الخلق الانسانى من أساسه ويعيد بناء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة أيضا مستهدفا بذلك بناء الخلق الانسانى ، لكنه لن يستطيع تحقيق كل ذلك بالعمل فى منشأة تجارية واحدة ، ولذا اقتصر هدفه فى المراحل المبكرة على تحسين بيئة العمال أى الاعداد الضرورى تمهيدا للنظام الجديد القادم « مقصدى كان ازالة الأسباب **المباشرة التى تؤدى الى ايجاد البؤس واستمراره بينكم بقدر ما يمكن اعداده من الوسائل المؤدية الى ذلك لأن هذه الأسباب اذا تركت فسوف تستمر فى احداث البؤس ولذا فقد أزلت أبرز مسببات الكذب والبهتان والسرقة وادمان الخمر وغيرها من العادات المؤذية التى اعتادها الكثير منكم ، وأدخلت بدلا منها مسببات أخرى مقصود بها خلق عادات خارجية أفضل وقد أوجدت فعلا تلك العادات الخارجية وأقول عادات « خارجية »** External **أفضل لأن الاجراءات التى نفذتها حتى الآن كانت تهدف الى ذلك الغرض فحسب ، فما صنعته حتى الآن كان محض اعداد » (١) ٠**

قدم أوين الى عمال نيولانارك من الجنوب أجنبيا عنهم ومتدخلا فى شئونهم ، وهو الغريب ، فطبيعى أن لا يكون محبوبا منهم « عارض العمال معارضة منظمة كل تغيير اقترحته وجاهدوا وسعهم لتفويت غرضى منهم ، وكنت مستعدا لذلك لأن من الطبيعى بالنسبة لهم أن يكرهوا الاجراءات الجديدة وجميع المحاولات الرامية الى تغيير عاداتهم وتسامحت ازاء معارضاتهم ، وقصدت الى كسب ثقتهم وهو أمر شديد الصعوبة من جراء شعورهم نحوى كغريب من بلاد أجنبية لأن العمال فى اسكتلندا كانوا يعتبرون انجلترا بلادا أجنبية فى ذلك الوقت » (٢) ٠

(١) حديث الى سكان نيولانارك ، ص ١٣ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٨٦ ٠

الواقع أن اجراءات أوين كان يمكن اعتبارها فى الحقيقة تدخلا بلا مبرر فى حرية عماله ، وكان ديل لا يسمح بانشاء محال عامة أو حانات فى القرية لكن أولد لانارك كان بها كثير من هذه الأمكن ولا تبعد أكثر من ميل لكنها خارج نطاق المصانع وكان فى نيولانارك بعض الدكاكين الخاصة التى تبيع بالتجزئة وكلها تبيع المشروبات الكحولية وتجارتها فيها رائجة واتجهت سياسة أوين بادىء الأمر الى اغلاق هذه الدكاكين واحلال دكاكين تملكها المنشأة بدلا منها وتبيع كل احتياجات العمال « اشتريت كل شىء نقدا من المنتجين وتعاقدت على توريد الوقود واللبن وغيرها بكميات كبيرة وتأكدت من أن كل هذه السلع من أجود الأصناف ، وبعتها لهم بسعر التكلفة ، وكانت نتيجة هذا التحول توفير أموال العمال بما يبلغ نسبته ٢٥٪ الى جانب امدادهم بأحسن الأنواع بدلا من الأصناف الرديئة التى كانت تباع لهم فيما سبق » (١) ويلاحظ أن أوين كان يبيع الويسكى فى دكانه ، لكنه ويسكى جيد بدلا من الكحول الخام ٠

أما الأمر الثانى الذى اهتم به مباشرة فهى الشئون الصحية ، وعندما تولى أوين شئون القرية كانت فى حالة يرثى لها ٠ فنصيب كل أسرة غرفة واحدة وطبيعى أن تكون سيئة الصيانة ، وعمل أوين على تكبير البيوت وبناء بيوت أخرى لتتوافر غرفتان لكل أسرة ، لكن أراد منهم الاحتفاظ بنظافة هذا المسكن ، وبدأ أوين فمنع العادة المتبعة من وضع وتكديس القمامة فى الشوارع خارج أبواب المساكن وأخذ فى نقل القمامة ، وشق شوارع مناسبة ووضع ترتيبات لجمع القمامة من المنازل وحظر وضع القمامة وتكديسها أمام البيوت ، لكن كان من الصعب ضمان النظافة داخل البيوت وهى الشرط الأساسى لتوافر الأحوال الصحية السليمة ، ولم يلجأ أوين فى هذا الصدد الى فرض الحظر بالقوة عن طريق توقيع العقاب بل أنشأ نظاما من الزائرين الصحيين فجعل العمال ينتخبون لجنة لزيارة المساكن مهمة أعضائها السعى بالاقناع الى تحسين مستوى النظافة والتدبير المنزلى ، وكان هؤلاء الزائرين الصحيين يطردون من البيوت أول الأمر ، لكنهم شقوا طريقهم تدريجيا حتى ارتفع المستوى العام كله وأصبحت نيولانارك أنظف وأصح قرية عمالية فى البلاد ، واستغرق هذا الانجاز كمعظم انجازات أوين سنين لكن بدون توقيع عقاب ولو لمرة واحدة ٠

وجاءت بعد ذلك مسألة سلوك العمال فى المصنع ، فوضع نظام تفتيش دقيق لمنع السرقات التى كانت متفشية وأمكن به اكتشاف أى حادث سرقة فورا ومعرفة الفاعل لكن أوين لم يكفيه ذلك فأدخل نظام « الشاهد الصامت » Silent Monitor الذى سفهه الكثيرون لكنه أرجع اليه الكثير من أسباب نجاحه ولنترك أوين يصف لنا هذا النظام هو ذاته بأسلوبه وكلماته ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ٨٧ ٠

« وجدت أن احسن طريقة لعلاج السلوك المنحرف واكثرها فاعليــة هو عمل شاهد صامت لكل عـــامل فى المنشـــاة عبـــارة عن قطعة مــن الخشب طولها نحو بوصتين وعرضها بوصة وهى مربعة وذات أربعـــة جوانب يطلى واحد منها باللون الأسود والثانى بالأزرق والثالث بالاصفر والرابع بالأبيض وهى مستطيلة الطرف العلوى الذى فيه عيون من السلك يمكن بها تعليق قطعة الخشب بحيث يكون أى جانب منها الى الأمام ، وتعلق قطعة الخشب فى مكان ظاهر بالقرب من كل عامل ويدل اللون الظـاهر فى الأمام على سلوك العامل أثناء اليوم السابق ، فالسلوك السىء يـدل عليـه اللون الأسود ورقم ٤ ، والسلوك المستهتر والسلبى يدل عليه اللون الأزرق ورقم ٣ ، والسلوك الحسن يدل عليه اللون الأصفر ورقم ٢ ، والســلوك الممتاز يدل عليه اللون الأبيض ورقم ١ ، ثم اعدت دفاتر لتسجيل الســلوك لكل قسم وسجلت فيها سلوك كل فرد لكل سنة بمضيها فى العمل ، واسندت الى المشرف على كل قسم مهمة تعليق الشواهد الصامتة كل يوم ويتـولى رئيس كل مصنع مراقبة سلوك المشرفين فى مصنعه ، واذا ظن أى عـامل أو عاملة أن المشرف لم يعدل من حكمه على سلوكه فله أولها حق الشـــكوى لى شخصيا أو لرئيس المصنع فى حالة غيابى ··· وفى بداية تطبيق نظام تسجيل السلوك الجديد كان اللون السائد للأغلبية العظمى اللون الأســود ثم اللون الازرق للكثيرين ونال اللون الأصفر قليلون ، وتدريجيا انحســر اللون الأسود وحل محله الأزرق ثم انحسر الازرق وحل محله الاصـــفر ونال البعض اللون الابيض لكنهم قليلون » (١) ·

وربما كان لهذه الطريقة الغريبة والتى لا تتناسب مع الآراء الحديثة اثر عظيم لا فى حد ذاتها بل مع غيرها من الوسائل التى طبقها أوين ، وبدت الطريقة وكأنها معاملة العمال كأطفال ، لكن لب النجاح راجع الى بســاطة شخصية أوين بدرجة تقرب من الطفولة ، فمن المستحيل تقريبا أن تغضـــب منه طويلا ، وقد يرتكب أحدهم وقاحة كبرى لكن أوين يتحملها ويحـــول مرتكبها الى صديق فور ما يجعل نفسه مفهوما للعمال وموضع حبهم فى نيو لانارك ·

ومع الزمن زال شعور الكراهية والعداء بالنسبة اليه بل أصبح محبوبا الى درجة عظيمة ، واتسمت خطواته الأولى فى ازالة المعارضة التى أثارها بالحكمة ، فالتمس الأفراد ذوى النفوذ بين العمال وأفهمهم أهدافه ووجهـات نظره ، ومن طريق هؤلاء القلة استطاع أن يؤثر فى الكثرة ، لكن الاعتراضات عليه استغرقت وقتا طويلا حتى زالت ، ولم يأت التغيير الحقيقى قبل عـام ١٨٠٦ عندما انتشر استخدام القطـــن الامريكى فى المصانع ، فقـــد ظلت الاحتكاكات قائمة طويلا بين الحكومتين البريطانية والأمريكية حول مطالبـة الحكومة الأمريكية بحرية التجارة مع فرنسا ومطالبة الحكومة البريطانيـة

---

(١) حياة أوين ، ص ١١١

بحق التفتيش فى البحر بلا قيود ، وأدى ذلك الى فرض امريكا حظرا على تصدير القطن الى انجلترا وبالتالى الى مجاعة قطنية فى انجلترا ، وارتفعت اسعار القطن ارتفاعا عظيما ، ولم يعرف احد الى متى يدوم الحظر وكان الشراء بالأسعار العالية مضاربة خطرة ، **واصبح على أصحاب المصانع الاختيار بين اغلاق المصانع او المخاطرة بالانتاج بتكاليف شديدة الارتفاع فيتعرضون لخسائر كبيرة ، وقرر أوين وشركاؤه اغلاق المصانع لكنه أقنع هؤلاء الشركاء بان يحذو حذو مستر ديل عندما اغلق مصانعه منذ عشرين عاما واستمر فى دفع الأجور كاملة للعمال ، ودام الاغلاق أربعة شهور ، ودفع أوين أكثر من ٥٠٠٠ جنيه كاجور للعمال المتعطلين بسبب الأغلاق ، فكسب قلوب العمال بذلك نهائيا .**

وأتم أوين الغزوة التى بدأها ، وتدل كل الأحداث وكل الدلائل على أن أوين صار محبوبا جدا فى نيولانارك ، ولا يمكن التشكيك فى اخلاصه ورغبته فى تحسين المنشأة لا سعيا لتحقيق الربح فى المقام الأول بل تحقيقا لصحة وسعادة الانسان وهى قيم انسانية يقدرها أوين أعظم تقدير ، ويكتب أوين عن عمائه : « من ذلك الحين لم ألق منهم أية معارضة أو عائق فى سبيل تقدم الاصلاح الذى أنشده وسرت فى طريقى متبعا جميع طرائقى بقدر ما ظننت أن شركائى يسمحون لى والى أن أدت أفكارهم الخاطئة الى منعى من التقدم ومواصلة الطريق » (١) .

وتدلنا بعض الأحداث التى بقيت سجلاتها كيف كسب أوين ثقة موظفيه، ففى يوم من الأيام دخل غلامان الى الأرض الملحقة بمنزل أوين ليقطعا عصى للهوكى ، فقال أحدهما للآخر « اذا رآنا مستر أوين فهو يعاقبنا ؟ » وفى اللحظة التالية قبض أوين على كتف هذا الغلام ، وقال له « ربما لا تدرى أن ما فعلته يعتبر خطأ ، هو خطأ واذا لم يقل لكما أبواكما ذلك فقد أهملا تربيتكما ، واذا احتجتم يوما من الأيام لشىء من هذه العصى فلا تسرقانها لأن اللصوص لا يفعلون شيئا طيبا ، تعاليا الى وسأسمح لكما بأخذها وعندئذ تأخذانها دون ارتكاب أى جرم » (٢) .

وصار احد الغلامين فيما بعد ـ وهو راوى القصة ـ معلما فى مدارس نيولانارك وكان فى السابعة عشرة وتعاقد على العمل لمدة ثمانية عشر شهرا لكنه ترك العمل بعد ستة شهور دون اذن وذهب ليجرب حظه فى الجامعة ، وعندما عاد حاول ما استطاع أن يتجنب أوين لكن الأخير ذهب اليه

---

(١) حياة أوين ، ص ٨٨ .

(٢) روبرت أوين فى نيولانارك ، لمدرس سابق ، ص ٨ . وذكر الحادثة ايضا ر.د. أوين فى كتابه « وأنا أنسج طريقى » ص ٧٤ .

وسأله عن حياته الجامعية فى جلاسجو وعرض عليه العودة الى عمله الأول اذا شاء دون أن يوجه اليه كلمة لوم عما فعل وعاد الشاب الى عمله وظل سنوات عديدة معلما فى مدارس نيولانارك » (١) ٠

ولم يعتقد أوين أبدا فى جدوى العقاب ، وطبيعى أن يضطر فى السنوات الأولى من ادارته أن يعاقب السكيرين بل ويفصل من تكرر منهم السكر ، لكنها حالات خاصة استثنائية وترك العقاب فى المراحل التالية ، وأقر النظام فى نيولانارك بطريقة الاقناع التى ورائها ارادة ونشاط أوين ذاته، ولم يتخذ أوين أى اجراء عقابى ضد من عارضوا خططه ، ويقول الكاتب الذى أشرنا اليه آنفا « لا أعلم أن مستر أوين فصل عاملا واحدا لأنه عارض اجراءاته فى رجولة وضمير » (٢) وتدل الدلائل على أن العقاب بالغرامات أو أنواع العقوبات الأخرى البسيطة كان قليلا جدا بل لا يكاد يحدث ، واستطاع أوين أن يفرض مستوى عال من السلوك والكفاءة يعتبر استثنائيا فى ارتفاعه دون اللجوء الى العقاب أو الفصل سوى فى حالات نادرة ٠

لكن كل ذلك بدا لأوين ـ كما رأينا ـ ضئيلا الى جانب ما يريد فعله ، وأدخل أوين بعض النظم التعليمية فى المصانع لكنه اعتبر كل اجراءاته لا قيمة لها اذا لم يضف اليها خطة منظمة لتعليم أطفال القرية ، وأدرك حقيقة أن « الخلق والشخصية » يتكونان فى سنوات الطفولة وأننا مهما اتبعنا من اجراءات مع الكبار فلن نستطيع محو الأثر السىء لهذه السنوات الأولى فلابد أن نقيم مدارس جيدة للأطفال ومدارس حضانة لصغارهم ، ويجب أن يرفع سن الالتحاق بالعمل فى المصانع وأن يضمن تلقى الأطفال تعليما جيدا قبل أن يبدأوا العمل وكسب عيشهم ، وفى عام ١٨٠٩ رأى أن الوقت حان لتطبيق أفكاره عمليا ، فأعد ترتيبات لاقامة عدد من المبانى الجديدة للمدارس والملاعب وقاعات المحاضرات حيث يتلقى الأطفال أحسن تعليم يستطيع تقديمه لهم ٠

وسنتناول فى فصل تال آراء أوين عن التعليم ، ويعنينا الآن أثر هذه الخطط على شركائه الذين أعربوا عن معارضتهم الشديدة لهذا الانفاق الذى لا ضرورة له والتى يحسن توزيعها كأرباح ، وفى مطلع عام ١٨٠٩ زار شريكان منهما نيولانارك خصيصا للتحقيق فى هذه الاجراءات والخطط ، ويبدو أن أوين استطاع اقناعهما ، فقد وصلته بعد عودتهما صينية من الفضة عليها نقش يهنئه بانجازاته ٠

لكن بعد شهور قليلة خاف الشركاء وكانوا يملكون ٧/٩ رأس المال مغبة الانفاق المقترح على المدارس وغيرها من « خيالات » أوين ، وعلى ذلك قدم وفد كبير الى نيولانارك وعرضت المسألة على المناقشة من جديد ، وفشل

---

(١) روبرت أوين فى نيولانارك ٠

(٢) نفس المرجع السابق ٠

أوين هذه المرة فى اقناعهم ولما رأى أنه لا يستطيع ادارة العمل بدون اطلاق يده فقد عرض عليهم أن يشترى نصيبهم وطلبوا منه أن يذكر المبلغ فحـــدد ٨٤٠٠٠ جنيه وهو لا يزيد عن المبلغ الذى دفعوه الى ديل الا بمقدار ٢٤٠٠٠ جنيه لكنه كان سيدفعه نقدا فيما يبدو وليس بالتقسيط على عدة سنوات ، ووافق شركاء أوين على شروطه ، فكون على الفـور شركة جـــديدة لشراء المصانع اشترك فيها أحد شركائه القدامى وهو جون أتكنســون الذى كانت علاقته متينة بأوين فى مانشستر ودخل الشركة أيضا قريبين لأوين بالزواج هما كامبل Campbell ودنستون Dennistoun ، وامتلك أوين نصيبا فى الشركة الجديدة يزيد كثيرا عن نصيبه فى الشركة القديمة لكن ظل مع ذلك فى وضع يمكن للشركاء أن يتغلبوا عليه لأن أصواتهم مجتمعة أكثـــر من صوته بحسب المساهمات فى رأس المال ٠

وصفيت حسابات الشركة القديمة واتضح أنه أثناء السنوات العشرة التى استمرت فيها « بعد دفع ٥٪ سنويا لأصحاب رؤوس الأموال حققـــت الشركة أرباحا وصلت الى ٦٠ر٠٠٠ جنيه » (١) ٠ وتكونت الشركة الجديدة عام ١٨٠٩ من أوين ، ودنستون ، حتى ١٨١٣ وتجددت متاعب أوين بعـــد باسم « شركة نيولانارك » واستمرت حتى ١٨١٣ وتجددت متاعب أوين بعـد قليل ، فقد تزوج اثنين من شركائه ــ هما دنستون والكسندر كامبـــل ــ من ابنتين لقريب لمستر ديل هو مستر كامبل من بلدة زورا Zura وكان مستر كامبل هذا صديقا لأوين فعهد اليه بمبلغ كبير مقـــداره ٣٠ر٠٠٠ جنيـه للاستثمار مفضلا اياه على أن يضع المبلغ تحت تصرف زوجى ابنتيه وكانا تاجرين من جلاسجو ، وأجرى هذا الترتيب فى الأصل دون علمهما ، لكنهما حين اكتشفاه قامت بينهما وبين أوين معركة حامية ، مما أضر بالعلاقة العملية ولم تمض مدة طويلة حتى أثار الشركاء مرة أخرى اعتراضات على خطـة أوين الخاصة بانشاء المدارس وتحسين أحوال العمـــال ، ولم يأبه أوين بالاعتراضات بادىء الأمر « واصلت طريقى الى أن أرسلوا لى اخطارا رسميا بالا استمر فى بناء المدارس » (٢) وحدث ذلك عام ١٨١٢ على الأرجح ٠

وازاء ذلك قدم أوين استقالته كمدير للشركة متنازلا معها عن مرتب ١٠٠٠ جنيه سنويا واستمر فى منصبه كأحد الشركاء وكان له أكبر نصيب فى رأس المال ، لكن هذا الاجراء لم ينه المسألة وأصر شركاؤه على تصفية الشركة وبيعت المصانع وعرض أوين أن يحدد مبلغا يأخذه أو يدفعــه مقـــابل ملكية الشركة ، لكنهم رفضوا وأصروا على بيع المصانع بالمزاد العلنى ، وتبع ذلك فترة شديدة الصعوبة ، فقد عين همفريز الذى كان مديرا للعمال مكان أوين الذى فقد مرتبه من ناحية وأصـــبح رأسماله مجمـــدا فى الشركة ورفض شركاؤه اقراضه مما له فى الشركة واضطر الى الاقتراض من الغير لنفقاته ، وبالاختصار كان الخلاف خطيرا ومريرا فى نتائجه ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ١٢٠ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ١٢٠ ٠

وفرغ أوين من كتابة أول كتاب له « مقالات فى تكوين الأخلاق » الذى نشر بعد ذلك بقليل بعنوان « نظرة جديدة على المجتمع » ، وبعد تلك المعركة ذهب فى زيارة طويلة الى لندن لاجراء الترتيبات اللازمة لنشر مقـــالاته ومتابعة جهوده لتطوير التعليم على المستوى القومى واســـتغل زيارته واتصالاته لتكوين شركة جديدة تشترى مصانع نيولانارك ، وفى كتاب صدر فيما بعد ووزع على نطاق ضيق (١) يصف أوين ما فعله فى نيولانارك وما كان يخطط لها مستقبلا ، وكان هدفه تكوين شركة لا تتألف من مجرد رجـال أعمال لكن من أشخاص لديهم المال ويدفعهم طبعهم الميال للبر الى الاهتمام بمشروعاته ونجح فى عام ١٨١٢ و ١٨١٣ فى تجميع مجموعة تبدو متفقـة مع رغباته وضمت هذه المجموعة ويليام ألان William Allan وكان ثريا من اتباع الكويكر Quaker ومحاضرا فى الكيمياء ومحررا لمجلة « رجـل البر » The Philanthropist وثرى آخر من الكويكر اســـمه جون ووكـر John Walker الذى أصبح من أوثق أصـــدقاء أوين ، وجوزيف فوســتر Joseph Foster من بروملى Bromley ثم جوزيف فوكس Joseph Fox وهو طبيب أسنان صديق لمســتر ألان ، والدرمان مايكل جيبس Alderman Michael Gibbs الذى صار عمدة لندن وهو من حزب التورى ومن أعمـدة كنيسة انجلترا ، وأخيرا وان لم يكن آخرا جيرمى بنتام Germy Bentham العظيم ونصير مذهب المنفعة Utalitarian .

واتفق أوين مع هذه المجموعة على انشـاء شركة جديدة لكن شركائه الأول لم يكن فى نيتهم التنـــازل عن نيولانارك التى تدر أرباحا كبيرة دون كفاح ، واصروا على بيعها بالمزاد العلنى ، لأنهم علمــوا أن أوين لا يمــلك المال ولم يعلموا بالترتيبات التى وصل اليها أثناء وجوده فى لندن وظنوه مشتغلا بنشر مقالاته ومساعدة لانكاستر والآخرين فى حملاتهم التعليمية ،ا ولذا راودهم الأمل الكبير فى شراء المصانع رخيصة جدا ودون معارضة ٠ ومن أجل ذلك نشروا فى جلاسجو تقارير تقول أن المصانع فى حالة سيئة وأن أوين أسوأ مدير بمشروعاته الطائشة ، وأن نيولانارك لا تساوى نصف المبلغ الذى دفعوه عند تكوين الشركة ، وقالوا انهم دفعوا ٨٤٫٠٠٠ جنيه لكنهـم يسرهم أن يحصلوا على ٤٠٠٠٠ جنيه عندما تباع قريبا ، وقرروا أن يكون هذا المبلغ هو المبلغ الاســـاسى للمـزاد وركنـوا الى الأمل فى شرائهـا دون منافس ٠

---

(١) بيان عن منشأ نيولانارك ، ١٨١٢ ٠

ولما اقترب يوم المزاد ذهب أوين الى جلاسجو مع ثلاثة من شركائه الجدد هم فوستر وجيبس وثالث (١) لكنهم لم يكشفوا عن العلاقة بينهم ونزلوا فى أحد الفنادق دون أية اشارة الى نواياهم ، وقبل بدء المزاد قابل أوين شركاءه القدامى وعرض عليهم رسميا شراء المصانع بمبلغ ٦٠٫٠٠٠ جنيه فرفضوا وأصر من ناحية على رفع الثمن الاساسى للمزاد الى هذا المبلغ . وفتح المزاد بثمن أساسى ٦٠٠٠٠ جنيه وعرض محامى أوين ٦٠٠٠٠ جنيه وعرض الشركاء القدامى ٦١٠٠٠ جنيه ، وأخذ المحامى يزيد بالمئات بينما يزيدوا هم بالألوف حتى وصل المزاد الى ٨٤٫٠٠٠ جنيه وهنا انسحب الشركاء للتشاور وعادوا للمزايدة ٥٠٠ جنيه كل مرة بينما زاد محامى أوين ١٠٠ جنيه كل مرة ، وبعد فترة أخذ الشركاء يزيدون أيضا ١٠٠ جنيه كل مرة ووصل المزاد الى ١٠٠٫٠٠٠ جنيه وانسحب شركاء أوين القدامى مرة أخرى للتشاور ثم عادوا المزايدة حتى ١١٠٫٠٠٠ جنيه وانسحبوا للتشاور مرة ثالثة ، وجاء كامبل الى أوين فى محاولة للتسوية ورفض أوين الانسحاب « حضر المزاد مستر كركمان فينلىKirkman Finlay رجل التجارة البارز فى جلاسجو وصديق الطرفين وترك القاعة وهو يقول بصوت سمعه كل الحاضرين : سيفوز بالمزاد المزايد الصغير (ويعنى الذى يزايد بمبلغ ١٠٠ جنيه) » (٢) ، وارتفع مبلغ المزاد الى ١١٤٫٠٠٠ جنيه محامى أوين فورا ١٠٠ جنيه ، وتشاور منافسوا أوين لآخر مرة ، ولم يتفقوا على الاستمرار فى المزايدة ، ورسا المزاد على أوين وشركائه بمبلغ ١١٤٫١٠٠ وكانوا قد قرروا المزايدة الى مبلغ أقصاه ١٢٠٫٠٠٠ جنيه ، وقال جون أتكنسون لكركمان فينلى حين عاد للقاعة « هذا الملعون أوين اشتراها وبمبلغ أرخص من قيمتها ٢٠٫٠٠٠ جنيه » ، ويعلق أوين على ذلك قائلا « هؤلاء هم الشركاء الذين ظلوا شهورا عديدة يبخسون قيمة المنشأة ويقولون أنه يسرهم أن ينالوا فيها ٤٠٫٠٠٠ نيه » (٣) .

وكان شركاء أوين القدامى على ثقة تامة من فوزهم بالمزاد حتى أنهم أصدروا دعوات لوليمة عشاء بعد المزاد ابتهاجا بالحادث ، وكان يجب أن تقام المأدبة برغم فشل مخططاتهم ، وكان بين الضيوف كولونيل هنتر Colonel Hunter صاحب الصحف بجلاسجو ، واشتهر بميله للدعابة فقام واقترح نخبا من أجل « نجاح الأطراف الذين باعوا فى الصباح منشأة بالمزاد العلنى بمبلغ ١١٤٫١٠٠ وكانوا قد قرروا لها ثمنا لا يزيد عن ٤٠٠٠٠ جنيه ، واملئوا الكؤوس لنجاح عجيب وغير عادى » (٤) ، ولم يلق النخب ترحيبا من جانب ضحايا المزاد .

---

(١) يقول أوين (حياة أوين ص ١٢٤) أن آلان هو الثالث الذى صحبه الى جلاسجو ولا يتطابق هذا مع قول آلان فى مذكراته كما جاءت فى كتابه « حياة ومذكرات » ص ١٨١ .

(٢) حياة أوين . ١٢٦ .

(٣) حياة أوين . ص ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق . ص ١٢٨ .

وظل أوين بضعة أيام فى جلاسجو لاكمال الاجـــراءات مع شركائه الجدد ، وتلقى فى غضون ذلك رسالة من نيولانارك تسأله متى سيصل الى هناك فأرسل ردا ، وفور الفراغ من اجراءات نقل الملكية ذهب وشركاؤه الى نيولانارك « وعندما وصــــلنا الى حـــدود أميال قليـــلة من رويال بورج Royal Burghببلدة لانارك الجديدة سمعنا هتافا عاليا ورأينا جمعا كبيرا يجرى نحونا فأخاف ذلك أصدقائى الكويكر ولم أعلم عدد هذا الجمـــع ولا ما يريدون بهتافهم ، وطلبوا من سائقى العربة التوقف وقبل أن نعلم شـيئا عن نيتهم فكوا الجياد من العربة ، وأخذوا يجرونها نحو لانـــارك دون أن يعبأوا برجائنا لهم أن يكفوا عن ذلك ، وكان التل منحدرا لكن عددهم كان كبيرا وكانوا يتبادلون جر العربة بحيث سارت بأسرع مما كان يمكن أن تسير بجر الخيول لها » (١) ٠

والواقع أن أهالى لانارك القديمة والجديدة خرجوا جميعا كتلة واحدة للترحيب بعـــودة أوين ، وهكذا دخـــل مملكته ، ودامت شركته الثانيـــة أربع سنوات وغلت ربحا قدره ١٦٠ر٠٠٠ جنيه بعد دفع ٥٪ فائدة على رأس المال ويدخل فى ذلك المبلغ ٣٠ر٠٠٠ التى دفعت زيادة فى ســـعر الشراء ، ونجح أوين فيما يبدو فى المجانين فحصل على أرباح عظيمة من ناحيـــة وحصل أيضا على امتنان عماله ، وعاد شركاؤه الجدد الى لندن فرحـــين بالاستقبال فى نيولانارك وبالصفقة التى أتموها ٠

---

(١) المرجع السابق . ١٣٣ ٠

الفصـــل السابع

الحياة فى براكسفيلد

LIFE AT BRAXFIELD



رغبة فى تقديم صورة متكاملة للأحداث المتصلة بنيولانارك حتى تكوين الشركة الثالثة ، فقد أجلت كل حديث عن أعمال أوين بعد أن أقام فى اسكتلندا فى بداية عام ١٨٠٠ ، فلم يقم مع زوجته غير شـــهور قلائل فى مانشستر ، وأقاما من أول يناير ١٨٠٠ فى اسكتلندا بالمنزل الذى أشرنا اليه فى نيولانارك على أرض المصانع ثم أخذا يقضيان فصل الصيف هناك بينما كانت اقامتهما المعتادة فى الشتاء مع ديفيد ديل بمنزله الكبير الذى بناه لنفسه بشـــارع شارلوت فى جلاسجو ، وكان أوين يقيم فى منزل نيولانارك عندما يســتدعى الأمر وجوده بالمصانع شتاء ، وفى جلاسجو كانت مخازن ومكاتب منشأة نيولانارك ، ولذا كان أوين يقسم وقته بين المكانين وينتقل بينهما على ظهور الجيـــاد ٠

وتمت الصداقة بين أوين وديفيد ديل بسرعة كبيرة ، ويقول أوين أنهما منذ زواجه لم يتبادلا كلمة سيئة « خاصة وأن أفكارنا الدينيــة كانت جــــد مختلفة » (١) والواقع أنهما بدلا من تجنب الخوض فى هذا الموضـــــوع كانا يناقشانه باستفاضة ، ويختم ديل المناقشات قائلا : « لابد أنك على حــق لأنك شديد التأكد مما تقول » (٢) ٠

وكان ديل قد تجاوز الستين (ولد عام ١٧٣٩) ورغب فى تصـــفية التزاماته التجارية المكونة من مصانع قطنية متعددة غير مصانع نيولانارك وساعده أوين فى ذلك بالنصيحة والاجراءات العملية ، وفى عــــام ١٨٠٢ صحب شريك ديل جورج ماكنتوش (٣) George Macintosh لزيارة المرتفعات لمعاينة مصنع بدأ ديل وشريكه تشغيله فى منطقة بعيدة باسكتلندا وفى أثناء الرحلة أقام أوين فى بورج أوف انفرس Burgh of Inverness وترك فى كتاب حياته الذاتية وصفا جميلا للرحلة وصعوبات السفر فى المرتفعات فى تلك الأيام (٤) واستغرقت رحلته مع ماكنتوش عدة أيام وكانت رحلة ترويح وعمل معا ٠

ونزولا على نصيحة أوين باع ديل مصنع المرتفعات ومصانع أخرى كان مساهما فيها ، وظل عضوا فى مجلس ادارة البنك الملكى بجلاسجو لكنــه أصبح قليل النشاط العملى مما مكنه من القيام بزيارات لأوين فى نيولانارك

---

(١) حياة أوين . ص ٩٨ ٠

(٢) المرجع السابق . ص ٩٩ ٠

(٣) والد مخترع « الماكنتوش »

(٤) حياة أوين . ص ١٠٠ ٠

أثناء الصيف وتوثقت أواصر الصداقة بين الرجلين ، وعندما تدهورت صحة ديل ظل أوين معه باستمرار فى مرضه الأخير حتى مات عام ١٨٠٦ ٠

وترك ديل زوجته وأربع بنات غير متزوجات أتين للاقـــامة مع أوين وزوجته وكن مازلن طفلات فأشرف أوين على تعليمهن ، وبعد قليل من موت ديل أخذهن فى رحلة بانجلترا واسكتلندا « وزرن فى البـــلدين كل مكان يستحق أن يزوره شباب السياح » (١) وماتت احداهن فيما بعد وتزوجـــت اثنتان من قساوسة وذهبت الرابعة لتعيش مع احدى شقيقاتها المتزوجات ، ويتحدث أوين دائما عن أخوات زوجته بود شديد لكنه لم يكن يراهن بعـد زواجهن ، فلم يتمكن من التغلب على خلافاته مع رجال الدين كما أمكنه ذلك مع ديل ٠

وقبل أن تأتى بنات ديل للاقامة مع أوين كان قد أنجب ابنه الأكبـــر روبرت ديل أوين الذى ولد عام ١٨٠١ ثم ويليام عام ١٨٠٢ « واعقبهمـــا ابنتان .آن كارولين Anne Caroline وجين ديل Jane Dale بفاصل زمنى سنتان بينهما ، ثم جاء ديفيـد ديل David Dale وريتشـــارد Richard وأصغر بناتى مارى Mary لتختم عدد أسرتى » (٢) ٠

واستمر أوين يقيم فى قرية نيولانارك حتى عام ١٨٠٨ ويقضى معظم الشتاء فى بيت ديل القديم بجلاسجو ، لكن حين جاءت بنات ديل أصبح المنزل فى نيولانارك صغيرا فاستأجـر براكسفيلد هـــاوس Braxfield house لمدة طويلة وهو منزل ريفى كبير لا يبعد على المصنع أكثر من ربع ميل ، وكان مقرا للورد براكسفيلد سىء السمعة الذى كان كاتبا للمحكمة العليا واشتهر بسوء تصرفه فى محاكمات الخيانة الاسكتلندية عام ١٧٩٤ عندما حكم بالنفى على موير Muir وآخـرين مع أعضــاء جمعيات المراسلة الاســكتلندية Scottish Corresponding Societies (٣) وكان هو الأصل الذى نقل عنـه روبرت لويس ستيفنسون Robert Lewis Stevenson صـــورة فير أوف هرمستون Weir of Hermiston ومات براكسفيلد عام ١٧٩٩ ، وعاش ابنه وزوجته هناك وأصبحا صديقين لأسرة أوين ومنهما استأجر أوين المنـزل ، ويقول أوين « كان لنا عربتنا الخاصة وخيولنا ، وعربة وخيول وخدم لأخوات زوجتى ، ولذا كانت مصاريفنا كبيرة (٤) ، ولابد أنها كانت كذلك لأن أوين احتفظ ببيت ديل فى جلاسجو لعدة سنوات بعد ذلك ليقيم فيه شتاء ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ١٣٧ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ٩٨ ، انجب أوين ابنا آخر مات فى طفولته ٠

(٣) انظر ميكل Meikle اسكتلندا والثورة الفرنسية ، وبراون Brown الثـورة الفرنسية فى انجلترا والتقارير المعاصرة عن المحاكمات ٠

(٤) حياة أوين ، ص ١٣٧ ٠

ويعتبر براكسفيلد هاوس الخلفية المنزلية لحياة اوين فى تلك الفترة ، وترك ابنه روبرت ديل اوين فى كتاب حياته الشخصية ذكريات جميلة عن صباه هناك : « ضيعة براكسفيلد جميلة وتقع على ضفاف نهر كلايد فى مكـــان جميل ، ويقع البيت على هضبة متماوجة مغطاة بالحشيش الأزرق مساحتها نحو ٣٠ أو ٤٠ فدان ، وقد تغطى آلنحدر نحو النهر بغابات كثيفة فيها ممرات متعرجة مغطاة بالحصباء تصل الى النهر الى جنوب المصنع بنحو ربع ميل ، وما اجمل اوقات المرح التى امضيناها هناك (١) لكن اطفال اوين قبـل ان يبلغوا سن المرح ذاقوا شيئا من نظريات ابيهم عمليا ، ويقول روبرت ديل اوين أنه اعتاد فى طفولته ان يصرخ طويلا وبشدة اذا منع عنه شىء يريده وقال ابوه « عندما يصرخ الطفل يا عزيزتى كارولين ضعيه فى وسط حجرته على الأرض ولا ترفعيه حتى يكف عن الصراخ » · « لكنه يا عزيزى ســوف يستمر فى الصراخ ساعات » ، « اذن دعيه يصرخ » ، « قد يؤذى ذلك رئتيه الصغيرتين وربما اصـابته التشنجات » ، « لا اظن لكن على كل حـــال سوف يؤذيه اكبر ان يشب طفلا يصعب التحكم فيه فالانسان وليد الظـروف وقد وضع العلاج موضع التجربة وبعد تكراره خمس او ست مرات انتج اثره الفعال ، ويقول روبرت ديل اوين « تعلم الطفل المذنب درسا عظيما فى الحياة وهو الخضوع لما لابد منه » (٢) ·

وقد يدل ذلك على شدة الوالد ، لكن الحقيقة ان اوين كان على العكس من ذلك تماما ، فكان اطفاله شديدى الحب له ، وجعلهم رفاقه منذ طفولتهم المبكرة ، وكان مستعدا دائما لمناقشة الأمور معهم وشرحها لهم ، وشغوفا ببث استقامة المعاملة فى نفوسهم وحب جمال الطبيعة ، وحدثت صـــعوبات فى مرحلة مبكرة بالنسبة لموضوع طرح فى تلك المناقشات ·

كانت مسز أوين من أتباع مذهب كالفن المتشددين Calvinist مقتنعـة بمبادىء أبيها الدينية ، أما أوين فيرى أن جميع الطوائف الدينية خطأ مـن أساسها لكنه لم يتدخل فى الارشاد الدينى الذى أخذت زوجته تقدمه للأطفال بمجرد أن يتمكنوا من ادراكه ، لكن ابناء أوين كانوا يسمعون أباهم يناقش هذه الشئون مع زواره بطريقة أخرى مختلفة تماما واستفسر روبرت ديـل أوين من أمه عن آراء أبيه بعد أن سمعها تقول مرارا أن البروتستانتية هى طريق الخلاص الوحيد ، واضطرت الأم الى الاعتراف بأنها تشـك فى أنه مؤمن ، وصدم أوين الصغير صدمة شديدة وقرر فى ذهنه مدفوعا بانتمائه لأسرته أنه لابد من عمل شىء ما ، وتشاور مع أمه التى جانبتها الحكمـــة فاشارت عليه أن يصلى من أجل والده ليصبح مسيحيا تقيا كجده ، وأضافت والدموع فى عينيها آه لو تحول الى المسيحية لكان كل شىء يمكن أن يتمناه قلبى وحينما نموت يذهب الى السماء معنا جميعا » (٣) ·

---

(١) ر·د· اوين وانا انسج طريقى ، ص ٤٤ ·

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ ·٢

(٣) وانا انسج حياتى ، ان ٥٦ ·

وقرر أوين الصغير أن ينتهز أول فرصة للحديث مع أبيه « فاجأت أبى بأن سألته أولا عما يعتقد فى المسيح عيسى ، فكان رده أنه يحسن بى الالتفات الى تعاليمه خاصة تلك التى تحض على البر والاحسان ، وهذا حسن الى الآن لكنه لا يكفينى ، فسألت مرتعشا سؤالا مباشرا عما اذا كان أبى لا يؤمن بأن المسيح ابن الله ، فبدت عليه الدهشة قليلا ولم يجب مباشرة وقال « لماذا تسأل هذا السؤال يا ولدى ؟ » وبدأت أقول « لأنى متأكد .. فقال أبى مبتسما « انه ابن الله ؟ » ، نعم « فقال أبى « ألم تسمع أبدا عن المحمديين ؟ ، وبينما كنت أجمع فكرى قلت أننى سمعت أن مثل هؤلاء القوم يعيشون فى مكان بعيد « هل تعلم ما هو دينهم ؟ » «لا » ، « هم يعتقدون أن المسيح عيسى ليس ابن الله وأن شخصا آخر اسمه محمد هو نبى الله المختار ، فقلت مندهشا « ألا يؤمنون بالكتاب المقدس ؟ » .. « يؤمنون بكتاب اسمه القرآن ويعتقد المحمديون أن عيسى كلمة الله ويقول هذا الكتاب لهم أن الله أرسل محمدا ليبشرهم ويخلص أرواحهم » (١) .

وتجمع العجب سريعا فى ذهنى ، كتاب منافس ومخلص منافس!أيمكن هذا ؟ وسألت ، « هل أنت متأكد تماما بأن ذلك صحيح يا أبى ؟ » ، « نعم يا عزيزى متأكد تماما » « لكننى أعتقد أن المحمديين قليلون جدا لا يقرب عددهم من المسيحيين » « هل تسمى الكاثوليك مسيحيين يا روبرت ؟ » « لا يا والدى البابا ضد المسيح » .

« ابتسم والدى » اذن فالمسيحيون عندك هم البروتستانت ؟ » ، « نعم » « حسنا يوجد محمديون أكثر جدا من البروتستانت فى العالم ، نحو ١٤٠ مليون محمدى وأقل من ١٠٠ مليون بروتستنتى » ، « حسبت أن كل الناس يؤمنون بالمسيح مثل ماما » ، « فى العالم نحو ١٢٠٠ مليون نسمة على الأرجح ، أى أن بين كل ١٢ شخصا شخص واحد فقط بروتستنتى ، فهل أنت متأكد تماما من أن واحدا هو فى الجانب الصحيح وأحد عشر فى الخطأ ؟ » .

« وهكذا تزعزعت عقيدتى ولم أجد ردا حاضرا وبقيت صامتا طوال النزهة تتملكنى أفكار جديدة ، ولا أرد على أبى الا بأصوات لا معنى لها ، وهكذا انتهت خطتى التى رسمتها لهداية أبى ، لقد طلبت أمى شيئا كثيرا » (٢) .

---

(١) Mahometans' Book called The Koran ; and Mahometans believe it to be the word of God. That Book tells them that. God sent Mahomet to preach the gospel to them and to save their souls'.

ملحوظة : يطلق الكثير من كتاب الغرب على الذين يدينون بالاسلام لفظ المحمديين .

(٢) وانا انسج طريقى ، ص ٦٥ ، وقد أوردنا هذا الحوار بأمانة علمية لايضاح ابعاد شخصيته .

والواقع أن المسألة الدينية كانت العقبة الوحيدة أمام السعادة الأسرية التامة فى براكسفيلد فقد كان أوين وزوجته مغرمان ببعضهما والأطفال يحبونهما معا ، لكن هذا الحب الزوجى لم يستطع أن يلغى ما استقر فى ذهن الزوجة من أن زوجها ملعون ٠

ولا تتناول مذكرات أوين الصغير فترات مثل هذه فقط بل تتضمن أيضا ذكريات عن غابات براكسفيلد والرياضات الريفية والرقص ومرح الطفولة ، فقد اهتم أوين حين وضع نظام تعليم أبناء العمال فى نيولانارك باللعب والرياضة والوجود فى الهواء الطلق ولم ينسيه كل ذلك من تربيته لأولاده ٠

ومضت السنون فى براكسفيلد وأصبح أوين وعمله فى نيولانارك معروفين للجمهور تدريجيا ، ونراه فى عام ١٨٠٣ يكتسب مكانة بارزة ويؤدى دورا هاما بين غزالى القطن باسكتلندا بوصفه عضوا فى لجنة الادارة بمجلس صناعة القطن ، الذى قدم اليه تقريرا يحتج على فرض رسوم استيراد على القطن الخام ويطالب بالغائها ، وقال أن صناعة القطن تستخدم اكثر من ٨٠٠ر٠٠٠ شخص وتدفع أجورا ١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه سنويا (١) ، وهذه الرسوم تشجع المنافسة الخارجية ، ويزيد ضررها الى حد خطير أن فرنسا منعت المنسوجات القطنية البريطانية من الأسواق التى تسيطر عليها (٢) ، وسنرى أوين يعود الى مهاجمة الرسوم المفروضة على صناعة القطن فى نهاية حروب نابليون عندما أصبحت احتجاجات الصناعة اكثر فعالية ٠

ونشط أوين فى هذه السنوات أيضا فى نشر آرائه عن التربية والتعليم ، ويبدو أن نشاطه هذا هو الذى دفع جوزيف لانكستر Joseph Lancaster منشىء جمعية المدارس البريطانية والاجنبية (التى عرفت أول الأمر بأسم جمعية اللانكستريين) الى الذهاب لجلاسجو وزيارة نيولانارك عام ١٨١٢ ، ورأس أوين حفل عشاء عام أقيم تكريما للانكستر فى جلاسجو وألقى خطابا رسم فيه لأول مرة خطوط آرائه عن مسألة التعليم ، وكانت تلك الآراء لم تنضج بعد ، وقال عن التعليم أنه « المصدر الأول لكل الخير والشر ، والبؤس والسعادة فى العالم » ، « تتأثر أخلاق الأطفال وشخصياتهم فى كل أسرة تقريبا تأثرا جوهريا فى حياتهم كلها بمن صاحبوهم

---

(١) يرجع انخفاض معدل الاجر للفرد الى كثرة استخدام الاطفال ، وهذه الأرقام مجرد تقديرات ، ويقرر بينز Baines فى كتابه تاريخ صناعة القطن عدد العاملين فيها عام ١٨٣٢ بنحو ٨٠٠ر٠٠٠ شخص ، والذين يعتمدون فى حياتهم عليها بنحو ١ر٥٠٠ر٠٠٠ شخص ، كذلك يقدر ماكيلوك McCulloch العدد بنحو ٨٠٠ر٠٠٠ شخص (دائرة المعارف البريطانية) ٠

(٢) « ملاحظات عن صناعة القطن » ١٨٠٣ ، طبعت فى كتاب « حياة » مجلد ١ ، ملحق هـ (طبعة ١٨٥٨) ٠

فى المراحل المبكرة وخاصة الخدم » ، ويحتاج الفقير كالغنى الى التعليم » ، يجب أن يتعلموا عادات الطاعة ، والنظام ، والمواظبة والنشاط ، والانتباه الدائم وهى عادات اكثر اهمية بالنسبة لهم من مجرد تعلم القراءة والكتابة والحساب « ويجب أن توجد مدارس مسائية ومدارس ايام الآحاد الى جانب المدارس النهارية تتعاون كلها فى انشاء « نظام من التنظيم والتعليم لافقر الطبقات » ، ولدينا الوسيلة لبلوغ ذلك » ، وصديقنا هنا جوزيف لانكستر قد اعدها لنا جاهزة فى ايدينا » (١) ٠

ولا شىء مميز فى معظم هذه الأقوال التى تبدو كأقوال رجل اعمال يتحدث الى زملائه من رجال الأعمال حول قيمة التعليم كأحد مقومات الأعمال وعنصر من عناصر الأصول فيها ويقترح طرائق تختلف كثيرا عما نفذه أوين فعلا فى نيولانارك ولا تتقيد بطرائق لانكستر ، ولو كانت هذه الطرائق فى ذهنه فعلا فمن المؤكد انها لم تستمر بعد مقابلته لرسول « نظام العرفاء Monitorial System » لكن وردت فى الخطاب فقرة تعتبر من آراء أوين الحقيقية وجريئة بل من أجرأ اقواله : « **ترجع الاختلافات الجسدية والعقلية العامة فيما بين سكان مختلف الاقاليم الى أثر التعليم وحده » (٢)** ، وسنرى فى الفصل التالى ما يعنيه أوين من ذلك ، وسنلقى فى هذا الفصل الضوء على مدى افتراقه عن خطة لانكستر واختلافه التام عن موقف الذين يطالبون بالتعليم كوسيلة للانضباط الصناعى وزيادة الانتاج فحسب ، ويكتب روبرت ديل أوين حول موقف أبيه من خطة لانكستر : « تحمس ابى أولا لصالحها لكنه استبدلها تدريجيا وتحول الى شىء اكثر شمولا ونفاذا وفاعلية (٣) ٠

استفاد أوين من مقابلته للانكستر فى جلاسجو والمناقشات التالية فى تطوير تفكيره التربوى ودفعته الى كتابة آرائه وعرضها على الجمهور ، ورأينا أن زيارته للندن عام ١٨٠٣ كان لها غرض مزدوج : العمل على نشر مقالاته وتكوين شركة جديدة لشراء نيولانارك بحيث يمكنه تنفيذ تجربته العملية الطموحة ، وقبل أن نورد الأحداث التى تلت بروزه كمؤلف وادخال أفكاره فى مرحلة جديدة بنيولانارك سوف نتوقف لنلقى نظرة على آرائه التربوية ٠

---

(١) حياة أوين مجلد ١ (طبعة ١٥٨٧ ، ص ٢٤٩ وما بعدها ٠

(٢) نفس المرجع السابق والصفحات ٠

(٣) وأنا انشد طريقى ، ص ٧٧ ٠

الفصـــل الثامن

آراء فى التربيـــة

IDEAS ON EDUCATION



كتب أوين يقول « أحسن الدول حكما هى التى تمتلك أحسن النظـم القومية التعليمية » ، كتب هذه الكلمات عام ١٨١٤ عنـدما كان فى أوج تجربته الناجحة فى نيولانارك وهى الموضوع الرئيسى لمقالاته فى النظـرة الجديدة للمجتمع ، وقد وردت فى المقالة الرابعة (١) ، ويتابع أوين كلماته : « لكن ما تزال الحكومة البريطانية حتى الآن بلا نظام تدريب وتعليم قـومى حتى بالنسبة لملايين الفقراء وغير المتعلمين فيهـا ، ويسـير تكوين عقـول وعادات رعاياها سيرا عشـوائيا وهو بين يـدى أقل الناس كفـاءة فى الامبراطورية ، والنتيجة الحتمية حالة الجهل المطبق والفرقة التى نراهـا الآن فى كل مكان » ·

ويتفق محبو أوين وناقدوه على السواء فى أنهم يميلون الى اغفـال لب جميع مشروعاته وأحلامه واشتراكيته وتجاربه التعاونية وحجر الركن فى عمله بنيولانارك فأساس الأوينية هى نظريته فى التعليم كوسـيلة لتكوين الخلق والوصول للسعادة ويؤمن أوين أولا وقبل كل شىء بقوة التعـليم وأثره وأن هذه القوة لو وجهت الوجهة الصحيحة فأخلق بها أن تحول شئون العالم كله الى مسيرة رخاء ونجاح ، ويجعل أوين التعليم منـاط كل شىء وأساس العيش الطيب والزمالة الطيبة والعمل الطيب ، ويؤمن بأن للتعليم القدرة على حل جميع الخلافات وايقاف التطاحن الطبقى والعقائدى ، وتحويل العالم الى مجتمع تعاونى واحد متحد بروابط العقل والرشد والمودة وبدونه يكثر الخطأ والفرقة ويدومان ، وبه يفك عقال القوى الانتاجيـة العظيمـة المعروفة للعلم من أجل خير الجميع ·

وطبيعى أن أوين لا يرى أن هذه النتائج الرائعة يمكن أن يحققها أى نوع من التعليم ، ولا يؤمن بمجرد التعليم العام من أجل التعليم فحسب ، بل هو يعرف نوع التعليم الذى يريده والهدف الذى يحققه هذا التعليم ، وتوجد مواضع أخطأ فيها لكن طريقته تقوم على آراء سيكلوجية سليمـة فى حقيقتها وظلت تنتظر طويلا الاعتراف العملى من جانب التربويين المسئولين ·

ولا شك أن عمل أوين فى مدارس نيولانارك هو الذى كسب له فى المقام الأول مركزه كشخصية عظيمة فى العالم ، فمنذ اللحظة التى تولى فيهـا سلطته فى المصانع بدأ يخطط لطريقة تنفيذ آرائه التربوية عمليا ، وظـل زمنا لا يستطيع أن يعمل الشىء الكثير لعدم توافر المال اللازم لهذا الغرض ، ورغم أنه حقق الكثير فيما بعد فقد حرص دائما على أن يؤكد على أن مدارس

---

(١) نظـرة جديدة صفحة ٨٨ ·

نيولانارك لا تمثل حتى فى أعظم تطوراتها ونموها الكامل تجسيدا كاملا لأفكاره ، ولم يكن أوين رأسماليا كبيرا برغم أنه رجل أعمال عظيم ولم تطلق له أبدا الحرية ليحقق فى نيولانارك ما اعتقد أنه أفضل شىء ، صحيح أنه شارك فى شركته الأخيرة رجالا لا ينظرون للربح كهدف وحيد ورئيسى ، لكنه ما يكاد يزيل العقبات المالية أمام خططه الا وينفتح الطريق أمام ظهور عقبات أخرى ، بخل شركاؤه الأوائل بالمال على التعليم ، وكان الشركاء الكويكر الذين أتوا بعدهم على استعداد للانفاق لكنهم أرادوا صبغ مدارس نيولانارك بصبغة دينية وهذا ما عارضه أوين بشدة ، بينما عارضوا هم بشدة أيضا « التدريبات والتسلية الرشيدة Rational exercises and amusements مثل الرقص والغناء والتمرينات الرياضية التى أراد أوين أن يجعلها جزءا من العملية التعليمية ، وكان عليه أيضا أن يسير وئيدا وأن يراعى بعناية الشكوك الدينية والميول الطائفية والارتياب من جانب القرويين الاسكتلنديين.

ورأينا أن ديفيد ديل الذى سبق أوين فى نيولانارك كان يؤمن أيضا بالتعليم وأنه صنع شيئا قبل أن يأتى أوين ليرعى حاجات « تلاميذ الأبرشية » الذين يمثلون معظم الأطفال العاملين فى المصانع ، لكن ديل نظر الى التعليم من ناحية التثقيف الدينى شأنه فى ذلك شأن شركاء أوين من الكويكر ، ورغم أن مدارس ديل كانت حسنة الادارة الا أنها لم تتفق أبدا مع أفكار أوين وأهدافه ، ولم يرد أوين أن يوفر التعليم لتلاميذ الأبرشية فحسب الذين أخذ يتخلص منهم بمجرد أن استطاع ذلك ، لكنه أراد أن يوفر لكل طفل فى نيولانارك أفضل تعليم ممكن فى ظل الظروف القائمة . ولذا فلما أنهى نظام التلمذة فى مصانعه لم ينه معه مسئوليته التربوية ، بل أن انتهاء التلمذة وفر له حرية بدء تربية أطفال العاملين لديه .

ونجح أوين نجاحا مدهشا وأصبحت مدارس نيولانارك لا سيما بعد انشاء « المعهد الجديد » عام ١٨١٦ مزارا للتربويين من كافة أرجاء بريطانيا العظمى وللزوار المرموقين من جميع أنحاء العالم ، وقل أن غادرها زائر دون انطباع عميق عنها ، وفى كتاباتهم شهادات كثيرة تدل على نجاح أوين فى فعله العملى .

وقد يقال أن ذلك لا يزيد عما يمكن أن يحققه أى انسان ينظر الى التعليم نظرة جدية حقيقية وله مثل المقومات والفرص التى لأوين ، لكن السجلات تشهد بأن الأمر أكثر من ذلك بكثير وأن أوين سبق معاصريه لا فى ايمانه بالتعليم فحسب بل فى الطرائق التى اتبعها ، فكان على استعداد دائم ليعاون أى جهد تربوى جدى حتى ولو كان لا يعتبر طرائقه كافية أو مقبولة ، وقد رأينا كيف ترأس الحفل الذى أقيم لجوزيف لانكستر فى جلاسجو والقى خطابا كله ثناءا حارا عليه وتبرع بألف جنيه لجمعية المدارس البريطانية والأجنبية التى أنشأها لانكستر وهو تبرع كبير من رجل لا يملك رأسمال كبير ، كما أنه تبرع بمبلغ للدكتور بل Dr. Bell رئيس « الجمعية

القومية » التى انشئت للنهوض بتعليم الأطفال الفقراء على مبادىء الكنيسة على الرغم من كراهية اوين للنزعة الطائفية ، وقد اشترط على زعماء الجمعية القومية أن يفتحوا مدارسهم لجميع الأطفال دون فرض أى اختبارات مذهبية ، ورغم أن الجمعية رفضت قبول الهبة بهذا الشرط فان أوين أعطى دكتور بل ٥٠٠ جنيه مساعدة للجمعية ٠

وبينما منح أوين هبات كريمة للجمعيات المنافسة القائمة بتشجيع التعليم الشعبى فانه لم يخامره أى وهم من أن طرائق بل أو لانكستر كانت كافية ، بل نظر اليها على أنها خير من لا شىء لكنه لم يسمح بتطبيقها فى مدارسه ، ورأى أن طريقة العريف Monitor system تبشر بنتائج طيبة مقابل نفقات قليلة لكنها بالضرورة تستخدم طرائق قائمة على مقومات سيكلوجية غير سليمة وربما تؤدى الى آثار غير طيبة ، لأن طريقة التعليم والتعليم بالحفظ عن ظهر قلب لا تربى الشخصية والخلق المتين ، ويرى أوين أن تكوين الشخصية والخلق هو الهدف الأول من التعليم ٠

وكتب اوين يقول « يجب ان يكون واضحا للمراقبين انه يمكن تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب والحياكة بطريقة دكتور بل أو طريقة مستر لانكستر ومع ذلك يكتسب الأطفال عادات سيئة بل اسوأ العادات وتصبح عقولهم غير صالحة لممارسة الحياة فى تعقل ورشد ويؤكد اوين أن بعض الطرائق التى يحبذها المصلحين التربوين التقليديين قد تؤدى الى « اضرار عقلية » Mental injury واثباتا لهذا القول اذهب الى أى مدرسة من المسماه بالقومية واطلب الى ناظرها ان يطلعك على تحصيل الأطفال فسوف يناديهم ويسالهم اسئلة لاهوتية قد لا يستطيع الاجابة عليها اكثر الرجال اطلاعا ، لكن الاطفال سرعان ما يجيبون عليها لأنها حشرت فى ذاكرتهم ، فالذاكرة فى هذا النوع أضحك من التعليم عليها كل المعول ، وهكذا يصبح الطفل الذى تتحطم بهذه الطريقة قدرته على مقارنة الافكار وملكاته العقلية اقدر المتعلمين فى المدرسة لمجرد أن ذاكرته قادرة على استيعاب مقتطفات متباينة لا رابطة بينها ، أى أن ثلاثة ارباع الوقت الذى كان يجب أن يخصص لتحصيل المعلومات النافعة ينفق فى الواقع على تحطيم قوى الأطفال العقلية » (١) ٠

وينتقد اوين كلا من بل ولانكستر لانهما بينما يقترحان تحسينات على « طرائق » التعليم يبدو انهما – من وجهة نظره – لا فكرة لديهما عن هدف التربية الحى وفكرتها الأساسية ، لكنه يراهما من الرواد المهمين ويمكن استخدام التحسينات التى اقترحاها كاساس لطريقة افضل ٠

---

(١) نظرة جديدة ، المقالة الرابعة ٠

وتتبع نظرة أوين المختلفة عنهما من رأيه في الطبيعة البشرية وأثـــر التدريب والبيئة على الشخصية والخلق ، وكثيرا ما عرض رأى أوين هذا وواجه النقد العنيف ، وأعتقد أن مغزى هذا الرأى الحقيقى أسيء فهمه ، ربما لأن أوين لم يكن متمكنا من التعبير الأدبى اللغوى ، وقد لخصه فى بدايـة مقاله الأول عن تكوين الشخصية بهذه الكلمات « كل شخصية من أحسنها الى أسوأها ومن أجهلها الى أعظمها استنارة يمكن أن تتواجد فى أى مجتمع بل فى الدنيا كلها وذلك بتطبيق وسائل تعليمية معينة هى الى حد كبير فى مقدور أولئك الذين فى يدهم حكم الأمم أو تحت سلطانهم ويسهل عليهم تقــرير استخدامها » ويشرح أوين فى المقال الثانى أسباب اعتقـاده هذا فيقول : « الأطفال جميعا وبلا استثناء عجينة طيعة وقابلة للتلقى بشكل مدهش ، ولذا يمكن تشكيلها جماعيا فى أى شخصية انسانية بالاعداد المناسب والعنـاية الدقيقة القائمة على العلم الصحيح بهذه الشئون » ، وبعبـــارة أخرى كان أوين يعتقد اعتقادا بلا حدود فى أثر البيئة والتدريب على شخصية الطفل ، فلم يقل كما يظن بعض ناقديه أن الأمر لا يستدعى سوى تغيير بيئة الكبـار كى تصب شخصيتهم فى أى قالب يراه المجتمع ، وأصر أوين أيضـــا على التدريب اصراره على البيئة ورأى أن فاعلية التـدريب والبيئة مرتهنة بأن يبدأ تعليم الطفل طرق الحياة الصحيحة منذ نعومة أظافره « على السلطات الحاكمة فى جميع الأقطار أن ترسم خططا رشيدة لتعليم رعاياها وتكـــوين شخصيتهم ، وتوضع هذه الخطط بحيث توفر التدريب للأطفال منذ طفولتهـم المبكرة على كيفية التفكير السليم والفعل المستقيم ، ويجب منعهم من اكتساب عادات الكذب والغش » (١) ٠

وتتكرر هذه النقطة مرارا لأن أوين يؤكد باستمرار على أن الشخصية تتكون فى الطفولة وأن الانطباع الذهنى أقوى ما يمكن وأسهل ما يمكن فى السنوات الأولى « فمعظم الطباع والميول انما تتكون تكوينا سليما أو غير سليم قبل أن يبلغ الطفل سنته الثانية بل تثبت كثيرا من الانطبــاعات فى نفسه فى نهاية الشهور الاثنـــا عشر أو حتى الشهور الســـت الأولى من حياته » (٢) ٠ فلا فائدة من انتظار اصلاح عام فى أخلاق الناس ما لم يوضع **أساس سليم لنظام التثقيف الخلقى للطفل** ٠

ولم يرد أوين ــ مع ذلك ــ أن يبدأ التعليم الرسمى للطفل مبكرا جدا فهو يعلم ضرر الضغط على الملكات الآخذة « فى النمو » ، وسوء الاعتماد على أسلوب الذاكرة مكان الملاحظة والادراك ، نعم يجب أن يبدأ التعليم الأخلاقى منذ الطفولة الباكرة ، لكن ينبغى الا يأخـــذ شكل التعــــليم فى المدارس الرسمية ، ويجب فى جميع مراحله أن يكون شيقا يتوجه الى ملكات الطفل وحواسه وليس الى قوة حافظته فقط ، ولذا كان التعليم فى نيولانارك يشمل

(١) المرجع السابق ، المقالة الأولى ٠

(٢) نظرة جديدة ، المقالة الثالثة ٠

عنصرا هاما من الترويح والرياضة للأطفال جميعا من مختلف الأعمار ، أما فى مرحلة الأطفال الصغار فقد اقتصر على الترويح والرياضة ، ولم يدخل أطفال نيولانارك المدرسة الا عند بلوغهم الخامسة على الأقل لكن « من وقت استطاعتهم المشى بمفردهم الى وقت دخولهم المدرسة « تفتح لهم الملاعب بمساحاتها المكشوفة والمغطاة ليمرحوا فيها » وعندما يدخل الطفل الى الملعب يقال له بلغة يستطيع فهمها انه يجب عليه الا يؤذى زملائه فى اللعب أبدا ، بل على العكس يجب أن يبذل وسعه لاسعادهم » (١) • ويجب الا يتلقى الطفل الصغير دروسا مباشرة بل يحاط بجو من الاحترام والتفاهم المتبادل يصبح أساسا للتعليم الذى سيأتى فيما بعد ، أى أن نظام التعليم الذى يراه أوين مناسبا للصغار هو النظام الذى يقوم على المثل الاجتماعية وتقليد العادات الحسنة •

ويرى أوين أن تغيير الأخلاق لا يأتى من مجرد تبديل الأوضاع الاجتماعية الا اذا تضمن هذا التبديل تغييرا شاملا وحاسما فى تثقيف الطفل ، كما يرى أن التدريب السليم للأجيال القادمة أهم كثيرا من العلاج الفورى للشئون الاقتصادية أو المظالم الاجتماعية لأن بناء الشخصية هو اساس مبادئه الاجتماعية •

ورغم أن أوين كان ينطق بتصريحات حادة تحت ضغط الاثارة ، فلا أعتقد أنه كان يرى كما يقال عنه أن الانسان ما هو الا نتاج البيئة فحسب ، أو أن اعداد شخصية الفرد خاضع كله وبلا تحفظ للسلطان الاجتماعى ، صحيح أنه لم يكن دائما واضحا فى هذه المسألة لكن يجب ملاحظة أن فى العبارات التى أوردناها انفا حيث يحاول التعبير بوضوح عن حقيقة مبادئه يصر على تطبيق نظريته هذه تطبيقا جماعيا ، فيقول أن أى شخصية يمكن اسباغها لا على كل فرد بل « على أى مجتمع » **ويقول : يمكن تشكيل الأطفال جماعيا** collectively **فى أى شخصية انسانية » (٢) ، وبعبارة أخرى فان لب رأيه هو انه ليس كل فرد ومن كل وجهة نتاج التدريب والبيئة وحدها ، بل أن المجتمعات جماعيا هى نتاج اشكال التدريب والبيئة الاجتماعية التى يعيش فيها اعضاء المجتمع ويتربون حتى يبلغوا مرحلة الرجولة ، وهو مبدأ قد يكون سليما كتعميم اجتماعى اذا سلمنا بأن الشخصية الفردية لا يمكن تفسيرها بالكامل فى هذا الاطار •**

ويصر أوين فضلا عن ذلك على أهمية « الطبيعة » الى جانب أهمية « التنشئة » ولم يقصد ــ كما يظن البعض ــ الى اعلاء أيهما على حساب الأخرى ، فكتب عام ١٨١٧ يقول « يولد الانسان بميول وصفات متراكبة تختلف فى درجة قوتها وتركيبها بحيث تؤدى خلال الحياة الى تفرد شخصية الانسان وتمايزها ، ولكن مهما كان الاختلاف فى قوة ونظام تركيب هذه

(١) نظرة جديدة ، نفس المقالة •

(٢) نظرة جديدة ، المقالة الثانية •

الميول والصفات فى الانسان وقت ميلاده ، فانه يمكن توجيهها بموجب الظروف التالية بحيث تشكل شخصيات عامة قد تكون على طرفى نقيض أى رشيدة تماما أو غير رشيدة البتة » (١) ٠

فهو لا يرى أن جميع الأفراد يمكن تشكيلهم بالتدريب فى نمط عقلى موحد ، لكنه يعتقد ان المجتمع ككل يمكنه بالعمل الجماعى أن يبث فى افراده أساسا اخلاقيا مشتركا يحكم افعالهم من أجل الصالح العام ، ويشبه هذا ما تقوم به بعض الطوائف والأحزاب حين تطبع اعضائها بمعتقدات مشتركة مع اختلاف هؤلاء الأفراد اختلافا كبيرا فى تركيبهم الذهنى ، قد يتفاوت الناس كثيرا فى وجهة نظرهم ومصالحهم وسجاياهم الذهنية ويتمسكون مع ذلك بمعتقدات مشتركة وقانون مشترك ٠

ويهدف أوين الى بث قانون سليم للسلوك الاجتماعى فى نفوس الناس جماعيا ويرمى من وراء ذلك لا الى محو الاختلافات بينهم أو قمعها بل الى تمكينهم من العيش معا فى زمالة طيبة وبر شامل ، ولا تؤتى هذه العملية ثمارها وفاعليتها الا اذا بدأت بالطفل ، ويرى أوين أن هذه العملية أعداد أولى ضرورى للاشتراكية أو لأى نظام اجتماعى جديد آخر يقوم على مبادىء رشيدة ٠

ومن المهم أن نضع هذه المسائل وضعا صحيحا لأن اغفالها أو سوء فهمها أدى بكثير من النقاد الى أن يخطئوا فى تفسيرهم لآراء أوين التربوية ، فهو لا يرمى الى أعادة صنع الناس على صورة واحدة ، بل يريد ان يفسح مجالا كافيا تنمو فيه الخصائص والصفات الفردية والاجتماعية ، ويؤمن ايمانا عميقا بقدرة الطفل على التعلم والتفكير لنفسه « ما تزال قوة وقدرة اذهان الطفل غير معروفتان » (٢) ، وحين نقول عن الأطفال أنهم « عجينة طيعة » لا يعنى ذلك أنهم يتلقون ما يبث فيهم فحسب دون أى رد فعل أو تأثر بحسب قدراتهم والاختلافات بينهم ، وينفى هذه الفكرة نفيا تاما النظام كله الذى طبقه فى نيولانارك ، وطالما اكد على الحاجة الى المعلم لكى يدرس ذهن كل طفل وليعامل كل طفل كمخلوق عاقل ويساعده على الفهم اكثر من حمله على مجرد التعلم ويزداد ما يتعلمه عن ظهر قلب ، فعقول الأطفال « مرنة » « لكنها كسائر خلق القوة الموجهة العظمى ، أودع الله فى عقول الأطفال مكونات لا نهاية لها » (٣) ٠ ويجب التوصل الى كل واحد منها بالطريق الذى يوفر أسهل سبيل لولوجه ٠

---

(١) بيان لبعض الاخطار والشرور التى تنشا عن حالة المجتمع فى الماضى والحاضر ، ص ٢٢ ٠

(٢) نظرة جديدة ، المقالة الثانية ٠

(٣) المرجع السابق ، المقالة الثالثة ٠

ويؤكد اوين بوجه خاص على اهمية استثارة اكثر من حاسة واحدة ، واشراك البصر مع السمع فى العملية التربوية ، ويفضل أن يجرى معظـــم التعليم فى الصيف بالسير فى الريف ودراسة الطبيعة بمشاهدتها مباشرة بل بمجرد اللعب فى ارجائها ، ويجرى التعليم فى داخل المدرسة بالخرائط والمصورات والمكعبات والمربعات الملونة وهكذا تستدعى قوى البصر لدعـم العملية التعليمية ، ويختلف أوين عن معظم معاصريه فى أنه يحذر المعلم من الضغط على ذهن الطفل فلا يرهق عقله بان يطلب منه الانتباه دائما وباستمرار ولا يشوهه بان يفرض عليه تعلم الدروس ميكانيكيا دون فهم « يجب تعليم الصبيان والبنات فى المدرسة أن يقرأوا جيدا ويفهموا ما يقـرأون » (١) ، ويجب الاستعانة بالغناء والرقص الى جانب تعليم أوليات القراءة والكتابة والحساب ٠

ويجب أن نتذكر قبل كل شىء ان اوين كان يطالب بالتعليم على هــذه الأسس لا لقلة محظوظة بل كحق عام لكل الأطفال مهما كان فقر آبائهم ، وطبق هذه المبادىء عمليا فى نيولانارك حيث فتح مدارسه لكل داخل اليها ، وبعـد ان تغلب على الشكوك الأولى التى كانت تحيط به كانجليزى وسط اسكتلنديين ورأسمالى يطور نظام المصانع المكروه اصبح من احب الشخصيات شـعبيا واشهرها وموضع احترام عميق من جانب عمال المصنع برغم التحـــامل عليه لأسباب دينية ٠

وبدأت مناصرته للمبادىء التربوية القومية بالتماس من اجل اطفـال افقر طبقات المجتمع ، ولم يعتقد أبدا أن كل الناس متساوون ، لكنه آمن بأن كل طفل يمكن تدريبه ليصبح مواطنا سيئا أو صالحا أو ليؤدى للمجتمع خدمة سيئة أو طيبة ويقول : « الى متى سوف نترك جيلا وراء جيل يتعلم الجريمة منذ الطفولة ، وعندما يتعلمها نطارده مطاردة الوحوش فى الغـــابة حتى يقعوا بلا مهرب ولا فكاك فى حبائل وشباك القانون ؟ » (٢) وعندما اجتاحت البـــلاد ازمـــة البطـــالة عام ١٨١٥ قـــال أوين أن العــلاج الوحيد السليم هو اقتران مشروعات التوظيف القومية بمشروع تدريب الأطفال على النطاق القومى ، وعندما قررت الحكومة عام ١٨١٥ تخصيص الأموال للمســاعدة فى بناء الكنائس تشجيعا للتثقيف الخلقى كتب اوين خطـــابا مفتوحا الى رئيس اساقفة كانتربرى اقترح فيه استخدام هذه الأموال لا فى بناء الكنائس ولكن فى اقامة المبانى التى تخدم الغرضين أى تستعمل ككنائس وكمدارس تفتح للجميع دون تمييز بين الطوائف ، وكان على استعداد لمساعدة الكنيسة القومية اذا عزمت باخلاص على تعليم الناس كما ساعد دكتور بل من قبل والجمعية القومية برغم آرائه اللاهوتية الخاصة ، ففى هذه المرحلة من حياته كان يهدف الى اصلاح الكنيسة وجعلها قومية حقيقية اكثر من سعيه الى معارضتها ، وكان راغبا فى التصالح اذا وجد من لديهـم القوة والنفـــوذ لمساندة قضية التعليم ٠

---

(١) نظرة جديدة ، المقالة الثالثة ٠

(٢) نظرة جديدة المقالة الثانية ٠

وعزف أوين على نفس الوتر فى أحاديثه الى زملائه رجال الصناعة ، ولم يكن أبدا من ناحيته يلقى بالا للمال ولم يهتم بأن يكون غنيا ولم يخف من الفقر ، وأنفق بكرم على القضايا التى يؤمن بها الثروة التى جمعها من مشروعاته بدون قصد منه أن يجمعها ، لكنه حرص أن يشرح لزملائه من رجال الصناعة أنهم سوف يكسبون وكذلك المجتمع اذا اتبعوا مثاله وكتب فى رسالته الى رؤساء الصناعة يقول « **انا مثلكم رجل صناعة أنشد الربح المالى ، واستطرد يقول ان كل رجل صناعة ادرك الحاجة الى الحصول على افضل الآلات والعناية بها أقصى عناية** » « **فاذا كانت العنـــاية بحالة آلاتكم التى لا تحس تؤدى الى مثل هذه النتائج الطيبة ، فماذا ينتظر لو وجهتم عنـــاية مساوية الى آلاتكم الحية التى تفوق فى بنـائها العجيب تلك الآلات ؟** » (١) وقال أنه فى نيولانارك بذل أقصى جهده للعناية بعقول وأجسام العمال « وأنتج الوقت والمال المنفقين فى هذا المجـــال عائدا يزيد على ٥٠٪ مع أن هـــذه التحسينات ما تزال لم تبلغ نهايتها بعد ولم تدر جميع نتائجها الطيبة ، لكنها ستنتج قريبا نتائج وأرباحا تعادل ١٠٠٪ من رأس المال الأصلى المنفق على التحسينات العقلية » .

وحجة أوين أن التعليم مشروع مربح لرجل الصناعة كما انه حاجـــة قومية ودولية .. قال ذلك فى وقت كان هذا الرأى جديدا ومذهلا ولم تعرف فيه النظرية الاقتصادية التى تؤيد ارتفاع الأجور وتحسين احوال العمـل والعمال كما عرفت اليوم ، وقدم أوين حجته على ذلك الرخاء الكبيـــر فى نيولانارك بل أنه ذهب الى ابعد من ذلك واعتقد أن ما حققه للأطفال والعمال الكبار ليس الا شيئا قليلا بالمقارنة بما يجب عمله فى ظروف اكثر مناسـبة وآمن بأن الصناعة يمكن أن تغل ارباحا وتضمن فى نفس الوقت مســـتويات معيشة جيدة لكل من هو متصل بها الى جانب التعليم الجيد لاطفالهم بدرجة تفوق ما أمكن تحقيقه بالفعل .

وعندما كان من المعتاد الحاق الأطفال بالعمل فى سن السادسة أو اقل وتشغيلهم ١٤ ساعة يوميا بغير توقف الا مرة واحدة ، لم يقبـــل اوين فى مصنعه طفلا يقل عمره عن عشر سنوات بل كان يؤيد حظر تشغيل كل من يقل سنه عن ١٢ عاما ، وأعلن انه يرى الا يقوم اى شخص بعمل جـــدى فى المصانع قبل بلوغه الرابعة عشرة وكثيرا ما هاجم المذهب السائد عندئذ من أن تشغيل الأطفال هى الأساس الضرورى لرخاء الصناعة البريطـــانية ، وأراد بكل قوة تحديد عام للعمل بعشر ساعات بالنسبة للعمال الكبار وتعميم هذا التحديد فى جميع المصانع ، وقام بحملة عنيفة من اجل جعل يوم العمل عشر ساعات ثم ٨ ساعات فى أواخر أيامه ، ولما كان من أنصار استمرار تعليم الأطفال العاملين فى المصانع فقد رأى عبث الفصول المسائية التى يتعلم فيها الأطفال بعد يوم عمل طويل شاق مما يطيل من ساعات العمل بالنسبة اليهم ،

---

(١) نظرة جديد ، المقالة الثالثة .

وتبدو هذه الأفكار اليوم عادية حتى لم يعد يفكر فيها المصلحون التربويون ، لكنها كانت أفكارا جريئة أيام أوين وكان هو رائدا عظيما حين أيدها قبل أن يقوم شافتسبرى Shaftsbury وسادلر Sadler بعمل جدى فى الحملة من أجل تحقيقها ، وسنرى أن أوين كان يعتبر نفسه المسئول الرئيسى عن مشـــروع قانون المصانع الذى قدمه سير روبرت بيل Sur Robert Peel عام ١٨١٥ وصدر أخيرا عام ١٨١٩ فى شكل مشوه استنكره أوين ووجه لوما شـــديدا الى بيل من أجل ضعفه وسوء فهمه ٠

ورأينا أن أوين لم يستطع أن يذهب فى نيولانارك الى الحد الـــذى أراده ، لكنه منع تشغيل الأطفال فى المصانع وأرسلهم الى المدارس حــتى سن العاشرة ، وخفض ساعات العمل للأطفال الأكبر سنا بغية أن يستفيدوا بعض الفائدة من المدارس المسائية التى أقامها غير أنه لم يســـتطع خفض ســاعات العمــل لأقل من ١٠¾ ســاعة وقد أعرب عن أسفه لذلك فى شهادته أمام لجنة قانون المصانع بمجلس العموم عام ١٨١٦ ، فلم يتمكن من التقــدم على أقرانه المعاصرين سوى خطوات قليلة ، ولذا كان لابد له أن يعقد كل أمله على تعليم الأطفال دون العاشرة قبل التحاقهم بالمصانع ٠

ورغم أن ذلك يعتبر عقبة جدية الا أنه يتفق الى حد ما مع تأكيــداته على أثر التكوين فى السنوات المبكرة من العمر ، وأضاف أوين عام ١٨١٦ الى الملاعب المخصصة لصغار الأطفال دار حضانة « حيث لا يلقى الأطفال مضايقة بالكتب بل يتعلمون استخدامات وطبيعة وصفات الأشياء المعتادة التى تحيط بهم بطريق المحادثة العادية المألوفة التى تثير فضول الأطفال وتدعوهم الى القاء الاسئلة عن تلك الأشياء » (١) ، **وملأ أوين المدرسة لا بمجرد صـــور ونماذج بل وأيضا بالهور والأشياء الطبيعية المجلوبة من الريف ، وعندما يكبر الأطفال قليلا تعرض عليهم الخرائط والمصورات ، وكتب أوين : « عندما تعرف أحسن وسائل التعليم وتكوين الشخصية فانى أشك فيما اذا كانت الكتب سوف تستخدم بالنسبة للأطفال قبل بلوغهم العاشرة » (٢) ، وقــد نرتاب فى صدق هذه العبارة ومع ذلك نسلم بالقيمة العظيمة للوســـائل البديلة التى طالما أكد أوين عليها ٠**

ولا أظن أنه يجدر بنا مناقشة أى هذه الأفكار نشأت « أصيلة » من ذهن اوين ، وأيها استقاه من الكتب او من دراسته لتجارب الرواد التربويين ، فهذا أمر لا يستحق العناء ، **ورايى الشــخصى انه لم ياخـــذ من غيره الا القليل ، وانه وصل الى نتائج كثيرة الشبه بما وصل اليه الرواد الآخرون ، لكنه سلك اليها سبيلا مختلفا على ضوء تجربته الشخصية وفلسفته الخاصة عن الشخصية والأخلاق ، لكن ما اهمية الأمر ؟ كان اوين رائدا غير مسبوق ورائدا ناجحا جدا ، ولا ينقص من قدره أن يشاركه الغير فى المجد ٠**

---

(١) حياة اوين ، ص ١٩٣ ٠

(٢) حياة اوين ، ص ١٩٤ ٠

رأينا أن أوين تابع عمله التربوى من ١٨٠٠ الى ١٨١٣ دون اية محاولة من جانبه لشن حملة دعائية عن عمله او لجذب انتباه وتاييد الراى العام لما يجول فى خاطره ، وانشا شركته الجديدة عام ١٨١٣ مع الن Allen وبنتام Bentham وغيرهما من التقدميين الذين اقنعهم بمشاركته ، ورأى ان موقفه الجديد فى المشاركة يوفر له امانا وحــرية تمكنه من الكشــف عن آرائه للجماهير ، **ويسهل علينا أن نرى فى مقالاته عن تكوين الشخصية ونظــرة جديدة الى المجتمع المنشورين عامى ١٨١٣ ، ١٨١٤ تعريفا بفلســفة اوين الاجتماعية كلها بما فيها « اشتراكيته » وآرائه الدينيــــة المخالفة للآراء المتعارف عليها والمستقرة ، لكن كل ذلك لم يكن واضحا تماما للنــاس فى زمانه رغم أنه لقى الانصات والاحترام بل والتعاطف من دوائر الحكومة والطبقة العليا** ، وسنرى فى الفصول التالية كيف فقد هذه المكانة تدريجيـا فلم يعد معتبرا كرجل ذو احترام ومؤيد للاصلاحات يحظى بالتوقير ، واصبح ينظر اليه كرجل خطر لا ينبغى لأحد من أعضاء الطبقة الحاكمة التعــامل معه ، وسنرى ايضا كيف أن هذه النقلة الجاته الى سلوك سبيل آخر هــو أن يذيع رسالته بين الناس العاديين ٠

وصار من الممكن دائما فى سنوات أوين الأخيرة ان يتصدى اى احمق او مضلل او اى سياسى من انصار الحكومة او المعارضة للرد على اقــواله وتسفيه افكاره مستندا فى معارضته الى « كفره » المزعوم ، لكن تاثيره على الطبقات العاملة أخذ يزداد من اللحظة التى طرحته فيها الطبقات الحاكمة جانبا ، وفى المقابل فقد منزلته نهائيا لدى الطبقات المحترمة ، ولم يعد قادرا على السير فى خططه الرامية الى تحقيق الاصلاح الخلقى من خلال اجهــزة الحكومة وسلطانها ، وانطمست شهرة اوين كتربوى مع تناقص نفــوذه السياسى ، نعم صار القوة الأولى الخلاقة حقيقة بين العمال فيما يتعــلق بتعليم الكبار ، لكن التربويين ذوى الاحترام اداروا له ظهورهم رغــم ان القليل منهم مثل لورد بروهام Lord Brougham ظلوا يعترفون بخــدماته الباهرة فى هذا الميدان ، اما المدرسون والمسئولون عن ادارة الطــريق التعليمية فقد نسوه تماما ، وسقط هذا الجانب من انجازاته فى نيــولانارك فى زوايا النسيان ليعيد اكتشافه فيما بعد رواد فى اقطار اخرى ، وهنــا كما فى ميادين اخرى تفردت بريطانيا العظمى بانها تنسى ابطالها القوميين ، وهكذا لم تؤثر تجارب اوين التربوية سوى تاثيرا قليلا على علم التربيــــة Pedagogy البريطانى ٠

ولم تلق نظريات أوين التعليمية مصيرا افضل فقد ارتبطت فى اذهان الناس بمحاولاته ومحاولات انصاره وتلاميذه لانشاء المجتمعات التعاونية ولذا اسىء فهمها وشوهت معانيها ومراميها ، فقيل عنه انه يعتقد فى امكانية اعادة صياغة شخصية الانسان فجاة بسحر تغيير البيئة **بينما الحقيقة انه حرص فى جميع كتاباته على التاكيد على أن الشخصية انمــا تتكون فى**

الطفولة والى درجة يصعب تغييرها ، وكتب عن صعوبة اقناع الكبار تغيير المعلومات المكتسبة والعادات التى استمرت وقتا طويلا ، وعن انها عملية تتعارض تماما مع المشاعر المحافظة المنبعثة فى الطبيعة البشرية » (١) ٠

ومن المؤسف ان يصرف العالم النظر عن اوين على اعتبار انه متقلب او متحمس لا ضرر منه ، ففى كتاباته التربوية قبل عـــام ١٨١٦ ثروة من الفكر السليم يتخللها قليل جدا من الهنات التى يمكن عزلها ، وتمتـــاز نظريته فى تكوين الشخصية والأخلاق بأنها أكثر صحة وسلامة مما يعتقـــد عموما ، فتأكيده على الأساس الاخلاقى والمعنوى للتعليم كطريق للتلاؤم مع الطبيعة البشرية سليم وجدير بالملاحظة والعناية من جـــانب التربويين فى الوقت الحاضر ، واصراره على اهمية الصحة الجيدة والرياضة والترفيـه كاساس للعملية التعليمية والتربوية مازال موضوعا حيا نحتاج اليه فى عصر يبدو انه قانع بمدارس تشبه الثكنات العسكرية وملاعب مغطاة بالأسفلت فى بيئة حضرية كئيبة ، قد لا نرغب فى الذهب بعيدا حيث يريد اوين بحيث نعلن معه أن « شخصية الانسان تصنع له ولا يصنعها » ، لكننـــا نعترف بأن العادات العقلية تعتمد كثيرا على العادات الصحية والجسدية المكتســبة فى الصغر والشباب وتتاثر بعمق بالغذاء والتربية ، ونوافق ونسلم أكثر من آبائنا بالرأى القائل أن تسعة أعشار الآراء الرائجة فى المجتمع هى نتـاج البيئة الاجتماعية والثقافية وافكار اولئك الذين ينادون بها أكثر من أن تكون نتاج اى تفكير فردى ، وكتب اوين عام ١٨١٧ يقول : « فى كل اقليـم مـن اقاليم الأرض وحتى هذه الساعة يتلقى الانسان قسرا منذ طفولتـه افكار طائفة ما أو طبقة ما أو حزب ما أو قطر ما ، وعليه أحاط بكل فرد أربعة اجواء كثيفة من الخطأ والشك والأحكام المسبقة ، عليه أن ينظر من خلالهـا الى كل شىء حوله » (٢) ٠

ويسهل جدا القول بأن أوين لا يريد سوى أن تحل أخطاؤه وشـكوكه وأحكامه المسبقة محل أخطار وشكوك وأحكام الآخرين ، وأنه يسلك نظـاما لا يفضل نظام الآخرين ، لكنى لا أعتقد أن هذه التهمة تقوم لو نظرنا لعمـله فى نيولانارك أو فى المدارس الأوينية Owenite Schools التى أنشأها فيما بعد كثير من تلاميذه ، ويقص روبـرت ديل أوين قصة مدارس نيـــولانارك مبينا ما قاله عنها زوارها ، فقد أحب أوين الأطفال كثيرا واهتم بهم وكان عطوفا على وجهة نظرهم وحالتهم الذهنية ، وصانه هذا الاحساس عـن الانزلاق الى بعض أنواع التزمت والتصلب التى افسدت آرائه الاشـــتراكية وسلبتها المضمون الانسانى وارتكب أخطـاء كثيرة وبدا أحيانا على شىء من السخف ، لكنى أعتقد انه كتربوى نفذ الى جذور القضية سواء فى النظـرية أو فى التطبيق ٠

---

(١) نظرة جديدة ، المقالة الثالثة ٠

(٢) بيان الاخطاء والشرور ، ص ٢٤ ٠

ولعل الطائفة الوحيدة المقدر لها أن تنال وقتا طيبا فى مجتمعـــات أوين المثالية التى حاول انشاءها فيما بعد هم الأطفال ، ولكن هل اذا نظرنا الى مقاييس عصره فى معاملة الطفولة نستطيع أن نجد له تبريرا أكثر اقناعا ؟ فبينما كان قاده التربويين يستنبطون الخطط للتعليم العام متوخين الاقتصاد فى الانفاق عن طريق « نظام العرفاء monitorial system » رأى أوين أن هذا النظام فى أحسن حالاته ليس سوى بديلا رثا للتعليم الحقيقى المفروض فيه أن يكون شيقا وجذابا الى جانب الامداد بالمعلومات ، ويثير فى عقل الطفل الخيال أكثر مما يثير الذاكرة وفى العصر الذى أهمل « الصحة والعـــلم الحقيقى » من أجل تحصيل الثراء أراد أوين أن يضع الأولويات فى ترتيبها الحقيقى « ففى مقابل كل بنس يجنيه الآباء من تشغيل أبنائهم مبكرا قبل أن يحين أوان عملهم يضحون لا بجنيهات فى المستقبل بل بصحة أطفالهم وحسن سلوكهم مستقبلا » (١) ، وأخيرا ففى عصر لا يستسيغ أن ينعم الفقـــراء بالرياضة والترفيه أخذ أوين يشجع الرقص والموسيقى والتمرينات الرياضية للأطفال والكبار على السواء ويقدمها لمن هم فى متناول نفوذه لأنه « اتضح وسيتضح أن من الأسهل جدا قيادة الجنس البشرى الى الفضـيلة أو الى السلوك الحسن بتقديم الرياضة والترفيه المنظمين البريئين عن أن نفـرض عليهم الاستسلام لقيود لا فائدة منها الا اثارة الاشـــمئزاز حتى بالنسـبة للأشياء والمشاعر الطيبة فى حد ذاتهـــا لمجرد أنها ذات صـــلة بهـــذه القيود » (٢) ، ورسم أوين لنفسه هدفا فى نيولانارك وغيرها هو أن يجمع المفيد مع البهيج وأن « يقود الجنس البشرى الى الفضيلة » بان يهيىء فى المدرسة والقرية جوا وبيئة صالحين لنمو المشاعر الطيبة والآراء الطيبة ٠

---

(١) ملاحظات عن آثار النظام الصناعى ، ص ١٣ ٠

(٢) نظرة جديدة ، المقالة الثالثة ٠

الفصل التاسع

أول قــانون للمصانع

THE FIRST FACTORY ACT

اجتذب كتاب اوين « نظرة جديدة على المجتمع » أو « مقالات فى تكوين الشخصية » اهتماما كبيرا من جانب الجمهور ، وعنى اوين عناية كبـــرى بالصياغة وراجعها اكثر من مرة وعرضها قبل النشر على عدد من أصدقائه منهم جيمس ميل James Mill وفرانسيس بلاس Francis Place اللذين كانا من خاصة أصدقاء شريكه الجديد جرمى بنتام Germy Bentham ومن القادة المرموقين لفلسفة المنفعة Utilitarians ويلاحظ ان كتاب « نظرة جديدة » وغيره من كتابات اوين فى هذه الفترة المبكرة افضل كتابة واجدر بالقــراءة من اعماله المتأخرة التى لم يبذل جهدا لمراجعتها لأنه كان يتعجل انتهـــاز الفرص لنشر مبادئه ، وظهر كتاب « نظرة جديدة » أول الأمر فى أجـــزاء منفصلة فظهرت المقالتان الأوليان عام ١٨١٣ والمقالتان الثالثة والرابعـــة فى السنة التالية ، ثم ظهرت المقالات فى شكل كتاب عام ١٨١٤ وطبعـــت مرات عديدة أثناء الثلاثين سنة التالية ، طبعها اوين نفسه احيانا وطبعهـــا آخرون ، وتتضمن هذه المقالات احسن تلخيص لمبادئه الأساسية ٠

ورأينا كيف شغل اوين بطبع هذه المقالات أثناء قيامه بتكوين شركته الجديدة عام ١٨١٣ ، وخلال زيارته الطويلة للندن فى تلك السنة تعـــرف الى عدد كبير من رجال ذلك الوقت وربطته صلات وثيقة مع عدد كبير منهم ، من بينهم وليم جودوين William Godwin والد زوجته شيلى Shelley ومؤلف كتاب العدالة السياسية وله آراء تتفق مع آراء اوين وكان لكتـــابه هذا اثر كبير فى تكوين فكـــر اوين ، وعرف اوين ايضـــا فرانسيس بلاس Francis Place ومالتوس Malthos ومعظم الاقتصاديين البـــارزين مـــن المدرسة المحافظة ، وجيرمى بنثام Jermy Pentham الذى صـــار أحـــد شركائه فى نيولانارك وولبر فـــورس Wilberforce وسير جيمس ماكنتـــوش Sir James Mackintosh ، وتعتبر الظروف التى تعرف فيهـــا الى بنتام جديرة بهذا الزعيم من زعماء مدرسة المنفعة ٠

« شاقنى جدا ما لاقاه من صعوبة فى ترتيب مقابلتنا الأولى نظرا لمزاجـــه العصبى ٠٠ وبعد اتصال مبدئى مع أصدقائنا المشـــتركين جيمس ميـــــل وفرانسيس بلاس وكانا مستشاريه الرئيسيين عندئذ ، وبعد مراســــلات بينى وبينه اتفق أخيرا أن اذهب الى مقره الشبيه بالصومعة فى ســـــاعة محددة وبمجرد دخولى على أن اصعد السلم وسنتقابل فى منتصف الطريق على السلم ، واتبعت تلك التعليمات وقابلنى فى ارتباك شديد وأخذ يدى بينما يضطرب كيانه كله من التحفز وقال بسرعة : « حسنا ، حسنا ! انتهى كل شيء ، تعرفنا الى بعض ، تعالى الى مكتبى ! وعندما دخلت وطلب الى أن أجلس بدا وكأنه تخلص من عمل شاق ومفزع » (١) ٠

(١) حياة أوين ، ١٣٢ ٠

ولم يتعـــرف أوين على كبـــار الراديكاليين Radicals والمثقفـين Intellectuals مثـــل بـلاس وينثام بـل عـرف كثيـرا من الســـاسة وكبار رجال الكنيسة ، والحقيقة أنه أراد أن يتصل بمثل هذه الطبقة ، « كانت اتصالاتى الرئيسية الأولى مع قادة الكنيسة والدولة لأننى أردت أن يـروا ويعرفوا كل ما كنت أصنع وأنوى صنعه عارفا بأن جميع الأطراف من الأعلى الى الأدنى سوف يستفيدون من آرائى عن المجتمع » (١) ، وكان دهف أوينفى هذه الرحلة أن تتبنى الطبقات الحاكمة خططه السريعة التطور وتساند تنفيذها .

وعلى ضوء حياة أوين فيما بعد يصعب فى البداية فهم ما لقى من حفاوة الاستقبال من جانب رجال مثل لورد سيدماوث Sidmouth ولورد ليفربول Lord Liverpool وكان عندئذ رئيسا للوزارة ، ورئيس أساقفة كانتربرى archbishop of canterbury وعدد كبير من السياسيين ورجال الدين الكبار **لكن الأمر ليس مستغربا فى الحقيقة كمـــا يبدو ، لأن المقترحات العمليـــة المبسوطة فى كتاب نظرة جديدة على المجتمع كانت تربوية خالصة تقريبا ولم تظهر فيها أية نوايا لقلب العلاقات الطبقية القائمة ، ورغم أن آراء أوين الدينية كانت معروضة ضمنيا الا أنها لم تبد مرتبطة ارتباطا حيويا بمشروعاته ، ولقى قبولا بوصفه مصلحا تربويا وصناعيا له سجل حافل بالانجازات العمليـــة وهو يقدم الآن آراء تستحق الدراسة هدفها تحسين الأوضاع التى يعتـرف الجميع بسوئها ، اذ أن الاقتصاديين المحافظين قد يمكنهم الدفاع عن الآثـار المحتومة لنظام المصانع على العمال ، لكنهم لا يمكنهم انكار البؤس أو الشرور التى تحتاج الى علاج .**

وفضلا عن ذلك فبرغم أن الطبقات الحاكمة كانت تسرع الى اخمـــاد « السخط » وقمع كل حركة تمرد من جانب الطبقة العاملة أو سعى لها من أجل تنظيم النقابات الا أنها كانت أيضا بين النقد والارتياب الى « لوردات القطن » الكبار الذين أصبحت ثرواتهم مصدر التحدى تلك الطبقات الحاكمة ، ولـذا كانت مستعدة للنظر فى الاصلاحات التى تحد من حـريات لوردات القطـــن بشرط الا تكون مصطبغة بالراديكالية أو بالخضوع للاثارة والضجة الشعبية ، ورأت أيضا فى بعض نواحى مقترحات أوين وسيلة لدعم سلطاتها فى الحقيقة بجعل العمال أكثر ارتياحـا وتحـويل اذهانهم عن مطـالبهم الراميـة الى الاصلاح السياسى فكانت على استعداد لتستمع الى أحد غزالى القطن ينظر اليه زملاؤه بعين غير راضية ، وكان حزب التورى يسـاند الاصـــلاحات الصناعية لينافس الليبراليين ، ولعلرؤساء الأساقفة والوزراء الذيناستمعوا لأوين جال بخاطرهم هذا الرأى ضمن دوافع أخرى .

---

(١) حياة أوين ، ص ١٤٩ .

هذا وينبغى القول بأن أوين كان بكل المقاييس رجلا جذابا وحسن الأخلاق ومتحمسا ، ولم يكتسب بعد فى هذه المرحلة السمعة التى شاعت عنــــه فى أيامه الأخيرة كانسان يثير التبرم به ، « واحد من أولئك المضجرين bores الذين لا يمكن تحملهم وهم ملح الأرض » كما وصفه ليسلى ستيفن Leslie Stephen فى دراسته الشهيرة عن حياته (١) ، لكن أوين لم يكن مضجرا أبدا فى تلك المرحلة ، ولم يكتسب بعد العادة التى لازمته أخـــيرا من تكرار نفس الحجج مرارا وبلا توقف ، والاصرار المتصلب ، والاشفاق والرثاء الواضح الذى يبديه على حال من يتشكك فى نتائجـــه ، وكان خجولا بعض الشىء فى صحبة هؤلاء العظام الذين وجد نفسه بينهم واختلف عن كثير من زملائه رجال الصناعة فى أنه جمع الى الصراحة أخلاق رجال البلاط Courtian وشــعور من الصداقة البسيطة غير المتكلفة يجتذب اليه كل من يقابله ٠

والدلائل على ذلك كثيرة جدا ، فبعد عشرين سنة عندما تملكته عادات كبر السن وبدأ الناس ذوى الاحترام يطاردونه من مجتمعاتهم قابله هــاريت مارتينو Harriet Martineau لأول مرة فتأثر بشخصيته كثيرا : « للاخلاص وروح الابتهاج والطيبة والأخلاق الجذابة مما يجعله أهلا لأن يكون أكبـــر الرجال شعبية فى انجلترا فقط لو استطاع أن يفرق بين التأكيد والمحاجـــة ويمتنع عن اضجار أصدقائه بارائه الرتيبة المتكررة » (٢) ، واذا كان النقد ينصب على مرحلة متأخرة فان المدح فيها يمكن أن ينصب أيضا على المرحــلة التى نحن بصددها ٠

ولا شك أن فرانسيس بلاس كان أشد الناس فتورا فى الحماس لكنــــه يتحدث عن مقابلته الأولى لأوين عام ١٨١٣ فيقول : « قدم لى نفسه فرأيته رجلا جميل الخلق طيب النوايا ذا مزاج صاف لا يتكرر ورغبة متحمسة فى تحقيق السعادة للبشر وبعد مقابلات قليلة أصبحنا أصدقاء » (٣) ٠

فلا عجب اذن أن نرى أوين من عام ١٨١٣ فصاعدا على صلة حســـنة مع لورد سيدماوث ولورد وليدى ليفـــربول أو نـــراه يقراء لدكتور ساتون Dr. Sutton رئيس أساقفة كانتربرى مقالاته غير المنشورة بناء على طلب هذا الأخير ، وواضح أيضا أن هؤلاء المشاهير لم يستمعوا اليه من باب الأدب فحسب ، بل نظروا الى مقترحاته نظرة جادة ، ففى عــــام ١٨١٤ عقب نفى نابليون الى جزيرة البا أرسل سيدماوث ــ بناء على طلب أوين ــ نسخا من كتاب نظرة جديدة على المجتمع الى الحكومات الكبرى فى أوروبا وأمريكا طالبا منها أعادتها مشفوعة بملاحظاتها،وأعادتحكومات كثيرة نسخ الكتابوعليها

---

(١) القاموس القومى للسير ٠

(٢) هـ ٠ مارتينو ، السيرة الذاتية ، مجلد ١ ، ص ٢٣١ ٠

(٣) والاس ، حياة بلاس ، ص ٦٣ ٠

ملاحظلاتها وقراها سيدماوث واوين معا ويبدو انهما وجداها تتسم بالموافقة فى جملتها ، وأرسلت نسخ من الكتاب بناء على اقتراح سيدماوث الى جميع الأساقفة الانجليز ، ثم الى مطارنة ايرلندا بناء على طلب رئيس اسـاقفة ارماه Archbishop of armagh ثم طلب جون كوينسى آدمز John quincy adams سفير أمريكا نسخا من الكتاب لتوزيعها على جميع حكـام الولايات ، بل ان نابليون تلقى نسخة فى منفاه بجزيرة البا واعجب من ذلك انه قراها واستفسر عن مؤلفها (١) ٠

وابتداء من عام ١٨١٣ وما تلاه قضى أوين شطرا كبيرا من وقته فى لندن يكتسب الأصدقاء وينشر أفكاره ، واقام عادة مع صديقه وشريكه جون ووكر الذى كان له بيت فى بدفورد سكوير Bedford Square وضيعة state تسمى أرنوز جروفز Arno's Groves فى ساوثجيت Southgate ، وكان ووكر ثريا من طائفة الكويكر ورجل أعمال وكما يصفه أوين « لم يتأثر الآثار الضارة لدنيا الأعمال » وتحمس للمشاركة فى خطط أوين وقام بدور كبير فى تكوين الشركة الجديدة عام ١٨١٣ وصار صديق عمره ووضع منزله باستمرار تحت تصرفه وساعده بنشاط فى أعماله العامة ، لكنه مثل بنثام لم يزر نيولانارك ابدا ولم يشترك فى العمل بشىء سوى اقراض نقوده ٠

وهذه السرعة فى اكتساب الأصدقاء جعلت أوين شـخصية معروفـة وشهيرة لكنه لم يكن يهدف للتسلية بل لدعم خططه الاصلاحية ، واتخذ هـذا الدعم أول شكل عملى بحركة قام بها بمفرده للمطالبة باصلاح المصانع ، ورأينا أنه عام ١٨١٥ قاد لوردات القطن فى جلاسجو للمطالبة بالغاء الرسـوم على استيراد القطن الخام ولقى من زملائه أصحاب الأعمال تأييدا حماسـيا لكنه أراد أن يقرن هذه المطالبة التى كانت فى صالح أصحاب الأعمال بمطالبة أخرى فى صالح العمال ، وعقد اجتماعا فى جلاسجو برئاسة رئيس أصحاب الأعمال Lord Provost « واعلنت فى الاجتماع عن الدعوة اليه واقترحت تقديم طلب للحكومة لالغاء الضريبة على المادة الخام لصناعة القطن فوافق الحاضرون بالاجماع مع التصفيق والهتاف ثم اقترحت سلسلة من القرارات لاغاثة الأطفال وغيرهم من العاملين فى مصانع القطن والصوف والكتـان والحرير ٠٠٠ لكن بالرغم من أن الجميع تحمسوا للمطالبة بالغاء الضريبـة لم يقدم واحد منهم على تأييد اقتراحى باغاثة الذين يعملون لديهم ، فرفضت الاستمرار معهم فى أعمال الاجتماع الذى لم يسفر عن شىء لهذا السـبب ، لكننى قلت لهـم أننى سأسـتمر فى طريقى من اجل كلا الاجراءين مستقلا عنهم » (٢) ٠

---

(١) حياة اوين ، ص ١٥٠ ٠

(٢) حياة اوين ، ص ١٥٧ ٠

فشل أوين فى ضم زملائه أصحاب المصانع معه وعاد الى لندن ليطالب الحكومة والبرلمان ، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت تشريع صناعى يذكر ، بل أن سير روبرت بيل الكبير — وكان من كبار رجال الأعمال — هو الذى أصدر عام ١٨٠٢ القانون المنظم لصحة وأخلاق الصبية فى مصانع القطن الذى يسمى أحيانا أول قانون للمصانع ، لكن هذا القانون يتناول مصانع القطن وحدها وينطبق على الصبية التابعين للابرشيات فقط وهم نوع من العمالة كادت تنتهى مع تطور مصادر العمالة الأخرى ، بل أن القانون كان فى الواقع معطلا بسبب عدم توافر تدابير فعالة للتفتيش واقتصر القانون أيضا على تحديد ساعات العمل بأثنى عشر ساعة والغى العمل ليلا ونظم اقامة الصبية الفقراء وترك التفتيش فى أيدى قضاة الصلح Justices of peace (١) ونظرا لأن معظم الأطفال العاملين لم يكونوا من صبية الأبرشيات فقد خرجوا من نطاق تطبيق القانون الصادر عام ١٨٠٢ الذى لم يكن له من فائدة تذكر سوى اثبات حق الدولة فى تنظيم أحوال المصانع .

وأراد أوين فورا شيئا أكثر شمولا وحسما ، وكانت مقترحاته التى قدمها فى اجتماع جلاسجو ثم ضمنها مشروع قانون يرمى الى تطبيق القواعد على مصانع الصوف والكتان وغيرها من المنسوجات الى جانب القطن التى يشتغل فيها عشرون عاملا أو أكثر تقل أعمارهم عن الثامنة عشرة ، وأراد أن يحظر عمل كل من يقل عمره عن ١٠ سنوات ممع وجوب تقديم شهادة تعميد أو أى مستندات أخرى تثبت السن ، ورغب فى تحديد ساعات العمل بحد أقصى عشر ساعات ونصف فى اليوم بغير احتساب ساعة ونصف للوجبات ونصف ساعة للتعليم على أن يكون عمل كل من هم دون الثامنة عشرة بين الساعة الخامسة صباحا والتاسعة مساء مع حظر العمل ليلا للصغار ، ويستمر تعليم الطفل نصف ساعة يوميا لمدة ٤ سنوات بعد انضمامه للمصنع ويجرى التعليم فى مكان مناسب يعد خصيصا للتعليم ، ويتلقى قضاة الصلح من المصانع الخاضعة للقانون أجرا سنويا على أن يعينوا مفتشين مؤهلين لهم حق دخول المصانع فى كل وقت ، ويحق لهؤلاء المفتشين أو الزائرين أن يلزموا صاحب العمل باستدعاء طبيب فى حالة الأمراض المعدية وأن ينفذوا على نفقته خاصة الاجراءات التى يوصى بها الطبيب ، ويعاقب المخالف للقانون بغرامات من ٥ الى ١٠ جنيهات لكل مخالفة ، يذهب نصفها الى المخبر Informer الذى أبلغ عن المخالفة ونصفها الآخر الى صندوق الفقراء ، وتعلق صور من القانون فى جميع المصانع (٢) .

---

(١) أنظر هتشنز Hutchins وهاريسون Harrison ، تاريخ تشريع المصانع. History of Factory Legislation

(٢) السيرة الذاتية ، مجلد ١ أ ، ملحق ز .

تلك مقترحات أوين وهى أقل شدة بكثير عما هو سار اليوم لكنهـــا متقدمة جدا بالنسبة لزملائه رجال الصناعه فى عام ١٨١٥ ، وقام أوين برحلة فى المناطق الصناعية لجمع الادلة تاييدا لقضيته واصطحب معه ابنه روبرت ديل أوين وقد أصبح شابا صغيرا فى الرابعة عشرة وزارا مصنعا اثر مصنع مستفسرين عن حاله العمال ، واحتفظ روبرت ديل فى السنوات التالية بذكرى واضحه حية لانطباعاته : « كاجراء مبدئى زرنا جميع المصانع فى بريطانيا العظمى وبدت لى الحقائق التى جمعناها مروعة بل بعيدة عن التصديق ، ووجدنا كقاعدة عامة ، لا كحالات استثنائية أطفالا فى العاشرة يجبرون على العمل ١٤ ساعة فى اليوم ولا يستريحون الا نصف ساعة لتناول وجبة الغذاء فى المصنع ، وفى مصانع القطن الرفيع يجبرون على العمل فى درجة حرارة تتجاوز عادة ٧٥ درجة ف، ويتنفسون فى جميع مصانعالقطن ما يؤذى الرئتين بدرجة كبيرة أو قليلة لأنه مملوء بالغبار ، والياف القطن الدقيقة ووجدنا فى بعض الأحوال أن الجشع الى الربح دفع أصـــحاب المصانع الى ابعـــاد متطرفة من اللا انسانية تعتبر وصمة كبرى للأمة المتحضرة ، فمصانعهـــم تشتغل ١٥ ساعة وأحيانا ١٦ ساعة بمجموعة واحدة من العمـــال ، ولا يتورعون عن تشغيل الأطفال من الجنسين فى سن الثامنة بل رأينا اعـدادا كبيرة من الاطفال فى سن تقل عن هذا السن (١) ، ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا النظام لا يمكنأن يستمر دون ارهاب بدنى ، فرأينا معظم المشرفين يحملون بلا خفاء سيورا جلدية غليظة ، يضربون بها حتى صغار الأطفـال ضربا مبرحا ، وطالبنا الأطباء الذين يرعون هؤلاء الأطفال وسجلنا اسماءهم والحقائق التى شهدوا بها وسردوا علينا قصصا اخذت تردد فى أحـلامى كابوسا مخيفا ، ففى بعض المصانع الكبيرة أصيب خمس الى ربع الأطفال العاملين بتشوهات أو عجز أو اصابات تترك اثرا مستديما أما بسبب العمل المجهد أوقاتا طويلة واما بسبب المعاملة الوحشية ، ولا يتحمل صغار الأطفال العمل أكثر من ثلاث أو أربع سنوات دون الاصابة بامراض خطيرة تنتهى غالبا بالموت ، وعندما ابدينا دهشتنا منأن الآباء يقبلوناختيارا بتسليم ابنائهم وبناتهم لعبودية شنيعة كان الرد أن اغلبية الآباء متعطلون وهم يفعلون ذلك اضطرارا وتضحية من أجل قليل من الخبز ، ويدفع الادمان آخـــرين الى التوحش فلا يبالون بما يجرى لأطفالهم وما ينزل بهم من بلاء لو قورن بقتل الأطفال فى الصيد لعد الأخير عملا انسانيا » (٢) ٠

عاد أوين الى لندن ليتابع حملته مسلحا بالأدلة التى جمعها عن سوء المعاملة المتفشية وبمثال من مصانعه الخاصة يثبت أن الصناعة تســتطيع النجاح بدونها ، واتجه أولا الى الحكومة وحصل من وزير المالية فانسيتارت Vansittart على رد ايجابى على التماسه الغاء الضريبة على القطن (٣) ،

---

(١) قال روبرت أوين فى شهادته أمام لجنة القانون ان الاطفال يعمـــلون من ســـن الخامسة الى السادسة وانه سمع عن أطفال يعملون من سن الثالثة او الرابعة ٠

(٢) وأنا انسج طريقى ، ص ١٠١ ٠

(٣) خفضت الضريبة فى الواقع الى النصف بعد الغاء الضريبة الخاصة من أجـــل الحرب عام ١٨٠٧ ٠

وحصل منه ومن وزراء آخرين على تأكيد بأن الحكومة توافق على الاصلاحات اذا أمكنه اقناع مجلس العموم بمناصرة مشروع قانون المصانع الذى قدمه ، وبدأ أوين يتصل باستمرار بأعضاء المجلسين واستطاع تدريجيا أن يجمع معا جماعة من الأعضاء ذوى النفوذ الذين يؤيدون القانون ، وثار سؤال حول كيفية تقديم القانون ومن الذى يتولى أمره فى مجلس العموم ، واقترحت جماعة الاعضاء اختيار سير روبرتبيل لهذه المهمة لأنه كان مسئولا عن قانون ١٨٠٢ ، ولم يشترك بيل فى المناقشات حتى هذه المرحلة لكن اتفق على الاتصال به ووافق على تولى مشروع القانون ٠

وكان من رأى أوين دائما أن بيل لو أسرع بمتابعة القانون لصدر فورا دون معارضة سوى القليل نسبيا لأن أصحاب المصانع لم يكونوا قد تمكنوا بعد من ضم صفوفهم وقواهم ضده ، لكن بيل أصر على استشارة زملائه من رجال الصناعة فبدأت فورا عملية تقليم أظافر المقترحات فحذفت منها الاشارة الى مصانع الصوف والكتان والمصانع الأخرى لشدة معارضة أصحاب هذه المصانع بالرغم من أن مصانع الكتان كانت أسوأ المصانع وأردأها من الناحية الصحية بالمقارنة بمصانع الصوف والقطن والحرير (١) ، وأفسح بيل الفرصة أمام رجال الصناعة لتنظيم جهودهم لأنه أعلن وهو يقدم مشروع القانون أن النية لا تتجه الى اصدار القانون فى الدورة الحالية ٠ والواقع أن مشروع القانون لم يصبح قانونا الا عام ١٨١٩ وتعرض خلال ذلك الوقت الى الحذف والتشويه حتى أن أوين فقد كل اهتمام به مع أنه فى البداية لم يدخر جهدا ولا وقتا ولا طاقة فى الاتصال بأعضاء البرلمان والدعاية للقانون وأقام فى لندن وظل طوال دورتين برلمانيتين يوالى الحضور يوميا من أجل هذا الغرض ، ثم قرر مجلس العموم عام ١٨١٦ تشكيل لجنة لدراسة مشروع القانون ، وقدم أوين أمام تلك اللجنة الأدلة التفصيلية عن أحوال مصنعه فى نيولانارك ومن الحقائق التى جمعها أثناء رحلته التى قام بها لجمع المعلومات ٠

وقبل تشكيل اللجنة نشر أوين الفكرة على جمهور واسع يزيد عما يمكنه الاتصال به شخصيا بأن أصدر كتيبا بعنوان ملاحظات على أثر نظام الصناعة هو فى الواقع عبارة عن بيان يتضمن النتائج التى وصل اليها أثناء رحلته ، وأحسن أوين كتابته فى أسلوب قوى يؤهله بأن يحتل مكانة بين أهم مؤلفاته ، وبدأ ببيان طبيعة وسرعة التحول الذى غمر انجلترا أثناء السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية ٠ « كانت انجلترا قبل هذه الفترة زراعية فى أساسها ، واشتغل بالتجارة أو الصناعة أو المهن عدد قليل نسبيا وأصبح العاملون فى الزراعة الآن (حسب تعداد عام ١٨١١) ربع السكان فقط ، ويرجع التغيير أساسا الى صعود صناعة القطن التى أعقبتها زيادة هائلة فى الثروة والتجارة الخارجية كما أعقبتها أيضا شرورا هائلة معها » ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ١٦١ ٠

ثم استطرد الى التأكيد على أهمية النظر الى نظام المصانع من وجهة نظر أثره لا على الثروة فحسب بل وعلى الصحة والأخلاق « **ويبـــدو أن المشرعين لم ينظروا حتى الآن الى الصناعات سوى من وجهة نظر واحـــدة أى بصفتها مصدرا من مصادر الثروة القومية ٠٠ ويعمل انتشار الصناعات فى أرجاء قطر ما على طبع السكان بأخلاق جديدة وشخصية جديدة ، ونظرا لأن تلك الشخصية تتكون على مبدأ غير ملائم بالمرة لسعادة الفرد والمجموع فلابد أن تنتج شرورا وبيلة ودائمة الا اذا تدخل التشريع والتوجيه ليعـادل هذا الأثر السىء ، ونشر النظام الصناعى فعلا نفـــوذه على الامبراطورية البريطانية بحيث تولد عنه تغييرا لا مناص عنه فى الأخلاق العامة لغالبيـة الناس ، وما يزال هذا التحول يسير فى طريقه مسرعا ، ولن يمضى طويل وقت حتى نفتقد نهائيا من بين ظهرانينا البساطة الجميلة السعيدة التى يتصـــف بها الريفى العامل بالزراعة » (١) ٠**

هذا الى أن نمو الثروة بعث فى الناس حب الترف ورغبة فى المزيـد من الثروة « مما دفع بأصحابها الى التضحية بأفضل مشـــاعر الطبيعة الانسانية فى سبيل حب جمع المال « ويؤدى ذلك الى العسف بالفقـــراء » الذين صاروا الآن فى حالة من البؤس والتردى أشد كثيرا مما كانوا عليـه قبل ادخال هذه الصناعات التى يتوقف عليهـا الآن مجرد وجـــودهم ٠٠ ويحكم الصناعة مبدأ الكسب المالى المبـاشر الذى يتهاوى أمـــامه كل شىء آخر ، ويتدرب الجميع بلا كلل على الشراء بثمن رخيص وبالبيع بثمن غال ، ويتطلب النجاح فى ذلك التدريب على اكتساب قـــدرات فائقة على الغش والخداع ، وهكذا تتولد فى نفس كل طبقة من طبقات التجار والصـــناع روح مدمرة لصفة الأخلاص الشريف المفتوح الذى لا يستطيع بدونه الانسان التمتع بالسعادة أو اسعاد الآخرين » (٢) ٠

« واذا لم تكبح آثار مبدأ الكسب هذا فسوف تصبح أشد سوءا على الطبقة العاملة الذين يعملون فى الصناعة خاصة الأقسام الانتاجيـــة لأن معظمها لا يلائم الصحة ولا معنويات الكبار ومع ذلك لا يتردد الآبـــاء فى التضحية بأطفالهم بتشغيلهم فى أعمال تجعل تكوين عقولهم وأجســـامهم فى حالة أدنى كثيـــرا مما يجب أن تكون عليه فى ظـــل نظـــام انسانى متبصر » (٣) ٠

وقال أوين قبل ثلاثين عاما وفى شىء من المبالغة : « يرى أفقر الفلاحين أن سن الرابعة عشر سن مبكرة جدا ليبدأ فيها أولادهم العمل المنتظم ، وحكمهم فى ذلك صحيح « مع أن يوم العمل لا يجاوز ١٢ ساعة حتى لأقوى الكبـــار

---

(١) ملاحظات عن أثر نظام الصناعة ، ص ٥٠

(٢) ملاحظات ، ص ٦ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٨ ٠

وأيام العطلات كثيرة ، « ففى هذه الظروف تتمتع الطبقات الدنيا بقـــدر كبير من الرفاهة بل وتجد فرصا كثيرة للرياضة والمتع الصحية الرشيدة · ويؤدون أعمالهم عن طيب خاطر » (١) ·

لكن منذ انتشار نظام المصانع طالت ساعات العمل واشتغل الأطفال الصغار فى محيط يزداد سوءا من حيث الأحوال الصحية « وينظر صاحب العمل الى العامل كمجرد أداة للكسب « وساءت الأحوال الى درجة تستدعى تحسين أحوال العمال والا كانت العاقبة ان عاجلا أو آجلا « القاء البـــلاد فى حالة مخيفة من الخطر ربما لا يمكن الخلاص منها » ·

وعلى ذلك يرسم أوين مقترحاته مضيفا بعض النقاط التى لم ترد فى مسودة مشروع القانون المقدم منه ، فهو لا يدافع على تشغيل من يقل عمره عن ١٠ سنوات ويرى أن الطفل دون الثانية عشر لا ينبغى أن يعمل أكثر من ٦ ساعات بما فيها ساعة ونصف للطعام ، بل يذهب الى القول بأنه يجب ألا يسمح لأى طفل ولدا او بنتا بالعمل فى المصانع الا اذا كان يستطيع القراءة والكتابة والحساب ويجب أن تعرف البنت الحياكة أيضا ·

وأخيرا يتجه أوين الى الرد على الاعتراضات ، فلا يتوقع معارضـــة جدية من رجال الصناعة لرفع ســن التشغيل الى ١٠ سنوات بل ينتظـــر منهم الاعتراض على تخفيض ساعات العمل ، لكنه يرى أن تعميم التخفيض يؤدى الى نقل عبء أى زيادة فى تكلفة الانتاج الى المستهلك ، ويعتقد أن المصانع فى ظل يوم عمل ١٢ ساعة ستنتج سلعا « على نفس القدر من الرخص تقريبا ان لم تكن أرخص « وعلى كل حال فان تحسين الصحة يعتبر عوضا قوميا كافيا » ، فهل يتصور أن تضع الحكومة البريطانية الكسب المـــالى الضئيل لقلة من الناس معالا لرفاهة الملايين الكثيرة من البشر ؟ » (٢) ·

ويتضمن هذا الكتيب العجيب لمسة واحدة تعتبر غريبة فى ضـــوء التاريخ اللاحق ، اذ يقول أوين ان مجتمـــع المصانع الجديد يعتمـــد على تجارة الصادرات ويضيف الى ذلك قوله : « يحتمل جدا أن تكون تجـــارة الصادرات لهذه البلاد قد بلغت أوج ارتفاعها وانها ستبدأ فى الانكمـــاش تدريجيا مع المنافسة من جانب الدول الأخرى التى تمتلك مزايا محليـــة تساويها أو تفوقها » ، ويرى أوين أن قانون القمح الجديد لعام ١٨١٥ يزيد الضريبة الحمائية ويزيد بالتالى تكلفة الانتاج ويسرع بانكماش الصـــادرات وتدمير التجارة ، ولذا يطالب بالغائه واتباع سياسة حرية التجارة بالنسبة للقمح والقطن (٣) ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩ ·

(٢) ملاحظات ، ص ١٥ ·

(٣) ملاحظات ، ص ٦ ·

ولم يكن من المنتظر أن يؤدى كتيب أوين الى تأكيد وتأمين مصـــالح الصناعيين فلم يحاول أوين اخفاء رأيه فى وجوب تفضيل السعادة الانسانية على الأرباح أو « الرخاء التجارى » وبينما أخذت اللجنة تنظـــر مشروع القانون اشتغل رجال الصناعة بتنظيم المعارضة للقانون ، وعندما استدعى أوين للشهادة أخذ أحد الصناعيين فى اللجنة (١) يستجوبه بطريقة استفزازية وغير لائقة حتى أن بروجهام Brougham اقترح شطبها من محضر الجلســـة وشطبت فعلا ، ومع ذلك تحتوى السجلات ما يكفى ليدلنا على أن الصناعيين لم يدخروا وسعا فى اثارة الشكوك حول القضية التى يتبناها أوين ، ولـــم يكتفوا ببذل جهودهم لنقض شهادته عن سوء المعاملة فى المصانع ، بل جندوا كل قواهم لهدم أقواله باثارة موضوع آرائه الدينية غير المحبوبة أمـــلا فى اقناع اللجنة بأن ما يقترحه كافر لا يمكن أن يكون حقا ٠

ومن المحاولات الذى بذلت لزعزعة مركز أوين ارسال جمـــاعة من الصناعيين الى نيولانارك ليجمعوا أدلة ضد أوين كما جمع هو ضدهم ، ولم يكن هدفهم طبعا التحرى عن بؤس العمال هناك بل تسقط أنباء عن تصرفاته الكافرة ، وأبدى قسيس أولدلانارك الذى لا يوافق على أعمال أوين استعداده للمساعدة ، ويقول أوين أن مستر منزس Mr. Menzies كثيرا ما تعشى على مائدتده ولقى منه كل معاملة طيبة لكنه يبدو أنه صدم بخطاب أوين فى افتتاح المعهد الجديد فى نيولانارك فى يناير ١٨١٦ (٢) ، وأخذ يصفه بأنه « خيانة للكنيسة والدولة » ، ولم يكن مستر منزس حاضرا شخصيا ، بل حضـــرت زوجته ، لكنه غامر بابداء وجهة نظره هذه بالنسبة للخطاب بناء على قولها ، واتهم أوين بأنه يناصر القساوسة المنحرفين فى نيولانارك ويسمح بفتح قاعات اجتماعات منحرفة هناك مما يضر بالكنيسة ٠

ويبدو أن تلك الصيحة الضئيلة المعبرة عن الفضيحة امتعت الجماعة التى جاءت تبحث عن سوءات أوين فدفعوا لمستر منزيس نفقات رحلة الى لندن كى يدلى بأقواله الى الحكومة ، لكن وزير الداخليـــة سيدماوث كان حينئذ صديقا لأوين الذى أعطاه نسخة من خطابه وعاد مســـتر منزيس من مقابلته لسيدماوث خائبا (٣) بعد أن سمع ما لا يرضيه ٠

وكانت شهادة أوين أمام لجنة عام ١٨١٦ ذات أهمية كبرى ، ولما سئل عن الفوائد التى تنتظر من القانون أجاب : « تحسن كبير جدا فى صـــحة العاملين صغارا وكبارا وتحسن عظيم فى تعليم الجيل الصاعد وانقـاص كبير جدا فى معدلات الفقراء فى البـــلاد » (٤) ، ونوقش فـــورا فى الآثار

---

(١) سير جورج فيليس ، من سالفورد Sir George Philips of Salford

(٢) أنظر الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب ٠

(٣) حياة أوين ، ص ١٦٢ ٠

(٤) أوردها بودمور Podmore فى كتابه عن أوين مجلد ١ ص ١٩٨ ٠

الاقتصادية على صناعة القطن من جراء انقاص ساعات العمل ، فشرح تجربته الشخصية وأوضح أن انقاص ساعات العمل لم يتبعه أى نقص فى الانتاج نظرا لتحسن أحوال العمال جسميا ومعنويا ، ولم يوافق على أن زيادة أوقات الفراغ تجعل العمال كسالى وأشرار ، بل على العكس فان تحسين ظروف العمل دفع العمال الى تحسين الأداء فى العمل ، « هذه المعاملة للعمال جديرة بأن تجعلهم على وعى ويقظة ضمير ويمكن الحصول منهم على أكثر مما يستطاع الحصول عليه وهم مرغمون على أداء واجبهم وسئل عن عدد من يعملون من الاطفال بالمصانع وهم فى سن أقل من العاشرة فقال أنه ليس لديه أرقام « وأرى أن الرقم يتناسب عكسيا مع علم أصحاب المصانع بمصالحهم الشخصية ومصالح الأطفال » (١) .

وأصر على أن القانون المقترح لن يضر بالصناعة ولو أنه فى بعض الأحيان سوف يمس شيئا قليلا من الأرباح الزائدة . « وجدت بالتجربة الواقعية أن الفرق الناشىء لأصحاب المصانع الذين ينتهزون كل فرصة تسنح لهم ويستغلون الظروف بكل ما يستطيعون لن يزيد عن ١/٤ بنس لكل ياردة من القماش ، ولدى من الأسباب ما يقنعنى بأنه ازاء الزيادة التدريجية فى كمية الانتاج التى تحدث كل شهر بانتظام منذ هذا التغيير (أى انقاص ساعات العمل) أنه لن يأتى آخر العام حتى تصبح تكلفة الانتاج على نفس المستوى من الرخص برغم العمل ٣/٤ ١٠ ساعة فى اليوم بدلا من ٣/٤ ١١ ساعة ، فالخسارة المالية لا تتجاوز ١/٤ بنس فى كل ١ شلن و ٨ بنس » (٢) .

وتشبث أوين فى رجولة بواجبه مدة سنتين ، ومع ذلك بدا وكأن القانون لم يقترب أبدا من الصدور ، ثم أخذ يبتر بالتدريج ارضاءا لاعتراضات رجال الصناعة ، وفى أوائل عام ١٨١٨ عاد أوين للهجوم ببيانين موجهين الى رئيس الوزراء والى رجال الصناعة على التوالى ، وكتب الأول بعد أن أدخلت اللجنة تعديلات خطيرة على مشروع القانون وكان عبارة عن التماس للحكومة كى تشدد أحكام القانون وتوسع نطاقه ليشمل جميع مصانع المنسوجات بكافة أنواعها ، وجاء فيه « أشك فيما اذا كانت تسع ساعات من العمل المنتظم النشيط تقرر كمقياس للعمل اليومى المطلوب من الطبقات العاملة أداؤه لا تكون أكثر فائدة اقتصادية للبلاد « من الساعات المقترحة فى مشروع القانون (٣) .

ويستطرد أوين قائلا « أدرك تماما الضجة التى سوف تثيرها هذه المقترحات منذ الوهلة الأولى انبعاثا من الجشع الأعمى التجارى لأن التجارة ، يا سيدى اللورد ، تدرب أبناءها على ألا يروا سوى المصلحة

---

(١) بودمور Podmore ، ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) عن هتشينز وهاريسون Hatchins and Harrison ص ٢٠٢ .

(٣) خطاب الى لورد ليفربول عن تشغيل الأطفال فى المصانع .

المباشرة او الظاهرة ، فتقصر أفكارهم عن ان تتجاوز بهم حدود اسبوع أو شهر أو سنة على اكثر تقدير ، وتعلموا ، يا سيدى اللورد ، أن يروا لب الحكمة أن ينفقوا الملايين من رأس المال وسنوات من التطبيق العلمى غير العادى ويضحوا بصحة ومعنويات وراحة الأغلبية العظمى من رعايا امبراطورية قوية الشأن ، وأن يحاولوا تحسين صناعة الدبابيس والابر والخيوط ويزيدوا الطلب عليها ، وأن يحصلوا على الرضا الوحيد بعد عناية عظمى وتعب كبير وقلق خطير ، الا وهو تدمير الثروة الحقيقية والقوة الفعلية لوطنهم بأن يحطموا تدريجيا القوى المعنوية والجسدية لسكانها مقابل هدف وحيد هو أن يرفعوا عنكاهل الأمم الأخرى عبء المشاركة التى يجب أن تتحملها فى هذا العمل الكريه وهو صنع الدبابيس والابر والخيوط » (١) ٠

ولم يناشد أوين الحكومة فحسب ، بل ناشد زملاءه الصناعيين فكتب يقول « لا دافع لدى يدفعنى الى خداعكم فمصالحى المالية تسير فى خط واحد معكم » (٢) ثم استطرد الى بيان عبث الموقف قائلا « نشكو من ان جميع الأسواق متخمة بمنتجات صناعتنا ومع ذلك نرغم أطفالنا الصغار وملايين من الكبار على العمل الشاق ليل نهار حاثين القوى الآلية المتزايدة لتصبح هذه الأسواق أكثر تخمة وامتلاء » (٢) ، وفى هذا الصدد طور أوين قسما هاما جدا من فكره الاقتصادى ، الذى يعتبر سبقا للنظريات الاقتصادية التالية بعد ذلك « ينبغى الا يخشى رجل الصناعة الكبير شرا أعظم من انخفاض اجور العمال ٠٠٠ فهؤلاء بالنسبة لعددهم هم اكبر المستهلكين لكل البضائع ، وسنجد دائما انه عندما ترتفع الأجور يعم الرخاء البلاد ، وعندما تنخفض تعانى كل الطبقات من أعلاها الى أدناها ، لكن معاناة الصناعة أشد بوجه خاص ٠٠ ويمكن قياس الرخاء الحقيقى لأى أمة فى جميع الأوقات وبكل دقة بمقدار الأجور أو بمدى اسباب الرفاهة التى تستطيع الطبقات المنتجة الحصول عليها مقابل عملها » (٣) وتشغيل الاطفال قبل الأوان ، والاجهاد فى العمل وانخفاض الأجور هى الشرور الحقيقية ، فبهذه الممارسات قصيرة النظر تجتثون رخاءكم من جذوره وتذبحون الأوزة التى تبيض لكم يوميا بيضة ذهبية » (٤) وهذه الشرور « أكثر عداوة لنجاحنا كصناعيين عشر مرات عن كل منافسة ممكنة قد تشنها الأمم الأجنبية ضدنا » ، وأخيرا وحتى لو ارتفعت تكاليف الانتاج فان المستهلك هو الذى يدفع الزيادة ، بل يجب أن يدفعها ، وكل زيادة ممكنة لا وزن لها بالمقارنة « بالتقلبات الدائمة التى تعترى أسعار جميع البضائع بفعل قلة من المضاربين الأثرياء الذين يشترون كميات كبيرة من المواد الخام دفعة واحدة » (٤) ٠

---

(١) خطاب الى لورد ليفربول ، ص ٢٨ ٠

(٢) الى كبار الصناعيين البريطانيين ، ١٨١٨ ٠

(٣) المرجع السابق ٠

(٤) الى كبار الصناعيين البريطانيين ، ١٨١٨ ٠

ولم يقتنع الصناعيين زملاء اوين بهذه الحجج حتى حين قال اوين ان مصالحه المالية هي نفس مصالحهم ، لسبب واحد هو انهم يعلمون ان اوين لا يكاد يهمه قيد انملة سواء كسب المال أم لم يكسبه ، **وان عقد المشاركة الجديد في نيولانارك ينص صراحة على حظر تحصيل ربح يجاوز سعر فائدة عادل على المال المستثمر ، بينما يريد الصناعيين حرية كاملة ليجمعوا المال ويراكموا راس المال بسرعة أخذا من الارباح الفائضة ، ويتهدد تلك الحرية التدخل التشريعي المطلوب ، لذا حاربوا مشروع القانون لما فيه من اقتراحات من ناحية ، ولأنه يهدد بتدخلات أخرى مستقبلا ٠ وهم ليسوا** على قوة كافية تمكنهم من ايقاف القانون نهائيا وصرف النظر عن اصداره لكنهم يستطيعون تعطيل صدوره وادخال تعديلات عليه تجعله غير ذى فاعلية، وجنح بيل دائما الى التوفيق ولذا اخذ يتنازل عن نقطة بعد نقطة استجابة لشكاويهم وتضايق اوين شيئا فشيئا وفقد الأمل نهائيا مع قدوم منتصف عام ١٨١٨ ٠

« تضايقت جدا من التاخير الذى تسبب فيه الأعضاء ذوى المصلحة وللتنازلات التى قدمها سير روبرت بيل لهم اثناء عرض المشروع ومروره خلال مجلس العموم حتى أننى بعد أن كنت احضر اجتماعات اللجنة كل يوم تنعقد فيه طوال دورتين كاملتين ، اخذ اهتمامى يقل بمشروع اصبح الآن مشوها ولا يشبه أبدا مشروع القانون الذى أعددته وصرت نادرا ما احضر اجتماعات اللجنة ولا أعنى عناية نشطة بسير المشروع » (١) وفى المراحل الأخيرة حل محله نثانئيل جولد Nathaniel Gould من مانشستر وريتشارد أوستلر Richard Oustlar من يوركشاير المعروف باسم « ملك المصانع » وصار مشروع القانون بارشادهما قانونا كاملا عام ١٨١٩ ٠

لكنه الآن شيء آخر فهو يطبق فقط على مصانع القطن ، واصبح الحد الأدنى لسن العمل ٩ سنوات بدلا من ١٠ سنوات وساعات العمل ١٢ ساعة لا يدخل فيها وقت تناول الوجبات ، اى أن الوقت كله بما فيه وقت الطعام ١٣½ ساعة ، ولا يتضمن اية أحكام للأشخاص فوق السادسة عشرة ، ولا اية أحكام عن التفتيش ، وزيدت الغرامات الى الضعف لكن بلا نتيجة في الواقع اذ لا أحد يتولى تطبيقها ، وانكر أوين كل مسئولية عن القانون في شكله النهائى الذى صدر عليه ٠

ولكن القانون كان حدثا هاما لا من أجل ذاته بل كسابقة للتشريعات التالية له ، فقد اثبت لأول مرة حق الدولة في تنظيم ظروف العمل في سوق العمل العادية وهو شيء مختلف جد الاختلاف عن تنظيم احوال تلامذة

---

(١) حياة أوين ، ص ١٦٧ ٠

الأبرشيات الذين خضعوا وحدهم لأحكام قانون بيل لعام ١٨٠٢ ، ويرجـع الفضل فى اثبات هذا الحق الى أوين وحده رغم أنه تخلى عن المشروع يأسا بعد أن زج به فى دائرة السياسات العملية ، والواقع أن هذا الحق هـــو أساس كل ما جاء من تشريع فيما بعد ، غير أن نشـــاط أوين فى مســـاندة تشريعات المصانع توقف عام ١٨١٨ فيما عدا نشاطه القصير الآن فيما يتعلق بحركة ساعات العمل فى أوائل الثلاثينات ، ووجد أوين مجالات أوسع لأثارة الرأى العام ، لكن يبقى عمله مع ذلك أساس كل بنيان التشريع الذى يحمى العمال والذى صدر فى الأجيال اللاحقة ٠

الفصل العاشر

« خطة مستر أوين »

"MR. OWEN'S PLAN"



يعتبر ١٨١٥ من أحرج الأوقات فى تاريخ بريطانيا العظمى ، فقد اشتبكت البلاد لفترة تزيد عن عشرين عاما ، سوى فترة قصيرة لم تكن سوى وقفة لالتقاط الأنفاس ، فى حرب كبرى من أجل التفوق والسيادة ، نعم نشبت المعارك على أرض أجنبية وخاضت معظمها جيوش أجنبية ، لكن القوة الأساسية المدعمة للتحالفات الأوروبية ضد فرنسا كانت بريطانيا العظمى ، وعليها وقع عبء تجهيز الجيوش المحاربة فى الميدان ودفع نفقاتها ، وكان الضغط المالى شديدا جدا ، وارتفع الدين القومى أثناء الصراع بخطوات سريعة متعاقبة ، لكن ابتعاد الحرب عن الأرض البريطانية أفسح للقوى الانتاجية الجديدة حرية التطور السريع بعد أن أطلقتها الآلات من عقالها ، وكسبت التجارة البريطانية السيادة والتفوق بلا منازع تقريبا فى أسواق العالم ، وحاربت « أمة أصحاب الحوانيت » (١) نابليون باستخدام الأرباح المتزايدة سريعا من جراء حركة التصنيع الجديدة .

ومع الثورة الصناعية جاءت الثورة فى العلاقات الاجتماعية كأمر لا مفر منه وبزغت طبقة عظيمة من الأثرياء الجدد منها « لوردات القطن » Cotton Lords وغيرهم من كبار أصحاب الأعمال الذين استفادوا من طرائق الانتاج الجديدة ، ومنها الماليون والمقاولون الذين جمعوا ثروة من قروض الحرب والتوريدات العسكرية ، ونمت الى جانبهم طبقة وسطى جديدة من أصحاب المهن ، ومشرفى المصانع والموظفين وتجار التجزئة الذين كثر عددهم بسرعة مع كثرة السلع المنتجة وزيادة هجرة السكان من الريف الى المدن ، أما أعظم التغيرات فكانت فى الطبقة الدنيا ، فتحولت سريعا أمة المزارعين الذين يجمعون بين العمل فى الأرض والعمل بالصناعات الصغيرة على النمط الأسرى الى بروليتاريا صناعية ساقتها الحاجة لتهجر الريف والقرى الى المناطق الصناعية وتكاثرت سريعا بشكل غير عادى لسببين الأول هبوط معدل وفيات لأطفال والثانى تضخم الطلب على عمل الأطفال فى المصانع .

وطوال دوام الحرب لم تظهر بوضوح عواقب هذا التغير الجذرى فى بنيان المجتمع ، وخضع كل شىء لضرورات متابعة الحرب بنجاح وكان من الصعب لفت الانتباه الى أى مشكلة محلية بحتة . وهدأت المطالبة بالاصلاح البرلمانى التى كانت نشطة فى ثمانينات القرن الثامن عشر ، ولم تعد الى نشاطها الا بعد عام ١٨١٥ برغم المساندة التى لقيتها من كوبيت Cobbett والعمل التنظيمى الدائب من جانب ميجور كارترايت Major Cartwright وأصدقائه ، ورغم أن أصحاب المصالح الصناعية أظهروا أعراض عداء ضد

(1) Nation of shop keepers

الحرب خاصة عندما سببت مراسيم برلين أزمة صناعية فلم يقـــدموا على تصعيد مقاومتهم الى درجة محاولة قيادة حركة شعبية للاصلاح ، وأوضحت اضطرابات لوديت Luddite عام ١٨١١ وما تلاه وجود كتلة كبيرة متفجـرة بين الطبقة العاملة الجديدة وبداية تنظيم مكافح ، لكن برغم جهود الرايكاليين لتحويل محطمى الآلات الى حملة للاصلاح السياسى يبدو أن حركة لوديت ظلت اقتصادية بحتة تقريبا فى أهدافها وطرائقها ، ولم تبدأ القوى الساخطة على الأحوال القائمة فى التجمع معا والتحرك للأمام الا بعد انتهاء الحرب الطويلة، وجاءت نهاية الحرب وكأنها بداية عصر جديد ، فطالما استمر الكفاح ضـــد نابليون ظل الناس يعدونها سبب مصائبهم سواء كانوا متعطلين أم لا يربحون فقد أغلقت الحرب أسواق القارة الأوروبية ، وأن طلب منهم أن ينفقوا على الحرب دون أن يمثلوا فى البرلمان ودون أن يكون لهم صوت فى كيفية انفاق الأموال المأخوذة منهم ، فالمعروف أن من الأفضل ادارة الحرب أوتوقراطيا ، حتى أن فرنسا حولت ثورتها الى دكتاتورية عسكرية ولهذا صمدت طـويلا ، واذا كانت الأسعار مرتفعة فسوف تهبط بعد الحرب عندما يأتى السلام ، وان كانت المظالم الحالية تبدو بلا حل فلأن انتباه الوزراء ينبغى الا ينصرف عن واجب السير بالحرب سريعا الى نهايتها الظافرة ، وستأتى الأوقات الطيبـة عندما تنتهى فتفتح الأسواق وتتدفق فى الأرض أنهار اللبن والعسل وتنصلح احوال كلها ٠

لكن الأشياء انتهت الى نهاية أخرى مختلفة عندما أرسل نابليون أخيرا الى جزيرة سانت هيلانه بعد حقبة حكم المائة يوم وجلس رجال السياسة من شتى الأمم لاقتسام الغنائم ورتق ما تمزق من نسيج المجتمع الأوربى ، هبطت الاسعار لكن ما لبث الناس أن وجدوا من الأفضل أن تظل الأسعار مرتفعـــة وفى جيوبهم مال عن أن تنخفض وهم خالوا الوفــاض ، وفتحت الاســـواق وسارع الصناعيون بعرض كميات لا حدود لها من السلع للبيـــع ، ولكن ما الفائدة ولا أحد يستطيع الشراء ، وضجت جميع الطبقات بالمطالبة بتخفيض الضرائب ، لكن قيل لهم أنسيتم دين الحرب الذى ازداد ثقله مع الهبوط فى المستوى العام للأسعار ٠

فظهر أن للسلم أيضا الوانه من الشقاء وأن للحرب الوانها من الرخاء المخفف لآلامها فقد كانت الحرب أكبر مستهلك ، والمستهلك الكبير هو الــذى تنشده الصناعة بلا هوادة ازاء قدراتها الانتاجية العظيمة المتزايدة ، ويكتب اوين : « يوم تم توقيع الصلح مات هذا المستهلك الكبير لانتاج المنتجين » (١) وفجأة وجد كل من يورد معدات الحرب أو مؤنها وكل من يبيع السلع للذين يأخذون أموالا من الدولة لخدمات الحرب من أى نـوع أن ســـوقه قد مضى وذهب ، كانت الدولة فى تصميمها على كسب الحرب تشترى بلا مبالاة للتكلفة

(١) حياة اوين ، ص ١٧٢ ٠

وتصنع المال الذى تشترى به عن طريق التضخم ، أما المستهلكون الآخرون الذين بقوا بعد ذهاب المستهلك الكبير وهو الحرب ، وشعوب أوروبا التى عضها الفقر فلا يستطيعون حتى شراء أرخص البضائع الا ما تلزمهم ضرورات الحياة ، وهكذا انتهى الانفاق السخى الذى ساد زمن الحرب وأعقبه انكماش حاد مساو له فى النسبة ٠

وانهمك أوين فى ذلك الوقت فى حملته من أجل تحسين ظروف المصانع وأحوالها ، وبدا له أن الموقف الذى نشأ عام ١٨١٥ يفتح مجالا أكثر اتساعا وفاعلية وانتاجية فى ميدان النشاط الاجتماعى ، وتتضمن كتاباته دلائل كثيرة على أن استياءه من التأخير والتنازلات التى أحاطت بسير مشروع قانون المصانع كان سببا أسهم فى انسحابه من تأييد قانون بيل ، لكنه لم يكن الدافع الرئيسى ، لقد وجد عملا آخر يتضاءل الى جانبه هذا القدر الضئيل من الاصلاح الممكن تحقيقه فى المصانع فورا ، وألقى أوين بنفسه فى الفترة الأخيرة من عام ١٨١٦ فى حملة جديدة حددت اتجاه مستقبل حياته كله ٠

ويقدم لنا أوين فى سيرته الذاتية وصفا تصويريا للآثار الاقتصادية التى أعقبت السلم وخلقت أزمة عامة بين المنتجين فى الجزر البريطانية ، فامتلأت أجران المزارع بالمحاصيل وغصت المخازن بكل أنواع المنتجات ، وسقطت الأسعار الى ما دون تكلفة انتاجها ، وتعرض عمال المزارع للفصل ولم يجدوا عملا آخر ، وعانى أصحاب المصانع ما يعانيه الزراع واضطروا الى تسريح عمالهم بالمئات بل وأغلقوا مصانعهم كلية فى حالات كثيرة ، وأصبح الضيق بين الطبقة العاملة شديدا بدرجة نبهت الطبقات العليا والثرية التى توقعت أنها ستلتزم فى النهاية باعاشة مئات الألوف من المتعطلين اذا استمرت هذه الأوضاع » ٠ (١) ٠

وصار الفزع عاما فى أواسط سنة ١٨١٦ ، وظلت البلاد هادئة أول أمر برغم الضائقة واتجهت أفكار الطبقات العليا الى تحسين التجارة وتخفيف الضائقة أكثر من اتجاهها الى القمع وكبت روح الثورة بين العمال ، وعقد اجتماع كبير دعى اليه جميع الوجهاء ورأسه دوق يورك Duke of York ونشط الى تنظيمه دوق كنت Duke of Kent لبحث وسائل تفريج الضائقة والى جانب دوقات الأسرة المالكة حضر الاجتماع كبار رجال الكنيسة ، والسياسيون من كلا الحزبين وعلماء الاقتصاد السياسى ورجال الأعمال البارزون ، كذلك حضره الاصلاحيون الراديكاليون برئاسة لورد كوشران Lord Cochrane وحاولوا تحويل الاجتماع الى مظاهرة للمطالبة بأصلاح البرلمان وضد الضرائب المبالغ فيها (٢) ، ولكن التصويت خذل هذين

---

(١) حياة أوين ، ص ١٦٨ ٠

(٢) انظر كتاب حياة كوبيت ، ص ٢٠٢ الذى تضمن وصفا للاجتماع ٠

المطلبين ، وشكل المجتمعون لجنة لجمع الأموال من اجل تفريج الضائقة وانتخب روبرت أوين ـ الذى حضر الاجتماع ـ عضوا فى هذه اللجنـــة التى انتخب لرئاستها رئيس اساقفة كانتربرى صديق أوين حينئذ ٠

وفى أول اجتماع طلبت اللجنة من أوين كرجل صناعة عملى أن يـدلى برأيه فى أسباب الضائقة « فقلت أن سبب هذه الضائقة فيما أرى هى التغيرات الجديدة غير العادية التى حدثت أثناء تلك الحرب الطويلة التى كثر أثناءها الطلب على العمال والمواد طوال ربع قرن دعما لجيوشنا وبحريتنا على نطاق واسع ولفترة جد طويلة وانطبع كل شىء بأسعار الحرب التى استمرت طـويلا حتى بدت للجيل الحالى كأنها الحالة الطبيعية للأعمال والشئون العـــامة ، وأدت الحاجة الى الأيدى العاملة والمواد مع هذا الانفاق السخى جـدا الى الاحتياج للمخترعات الميكانيكية والمكتشـــفات الكيميائية وتشجيعها لتخلف العمل اليدوى فى انتاج البضائع اللازمة لأغراض الحرب والأغراض شـــبه الحربية مباشرة وغير مباشرة وهى كثيرة جدا ومتنوعة أشد التنوع ، فكانت الحرب مستهلكا كبيرا وسخيا بالنسبة للفلاحين والصناعيين وغيرهم من منتجى الثروة وأصبح كثيرون أثناء تلك الفترة من كبار الأثرياء » (١) ٠

ثم جاء السلم « وأرغم غياب الطلب بأسعار مجزية المنتجين على دراسة ما يمكنهم عمله لانقاص كمية انتاجهم وتكلفته الى أن يتمكنـــوا من تصريف مخزونهم الزائد فى الأسواق ، وللوصول الى هذه النتائج لابد من الالتجـاء الى كل وفر ممكن فى الانتاج ، ونظرا لأن العمال أكثـر تكلفـــة من الآلات والوسائل الكيماوية التى انتشرت أثناء الحرب فقد اســـتغنى المنتجـون عن العمال وأحلوا الآلات مكانهم ، وازداد عدد المتعطلين بتسريح الجنـــود من الجيش والبحرية ، ومن هنا جاءت الضائقة ٠٠ ، لأن القوى التى اطلقتهـــا المخترعات والمكتشفات الجـــديدة كانت عظيمة جدا وحـلت محل القـــوى العاملة (٢) ٠

أى أن أوين أرجع البطالة القائمة الى سببين متصلين انتهاء الحـــرب وانتشار الانتاج الآلى الذى شجعته الحرب وعجلت به ، وسئل أوين أن يوضح فكرته التى كانت مضادة تماما للرأى التقـليدى القـــائل بأن الآلات زادت العمالة ، وطلبت منه اللجنة تقديم تقرير كامل يتضمن تشخيصه للحالة والعلاج الذى يقترحه ، فبدأ فورا فى اعداد التقرير بنشاط عظيم حتى أكمله سريعا ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ١٧١ ، أنظر قصة كوبيت عن نفس الظاهرة فى كتاب حياة كوبيت ، ص ١٩٥ وما بعدها ٠

(٢) حياة أوين ، ص ١٧٢ ٠

ويمثل هذا التقرير نقطة تحول فى حياة اوين العملية ، ويحتوى أول تعبير عن اقتراحاته الايجابية الأوسع نطـاقا ، وانتقـــالا من أوين المصلح الصناعى والرائد التربوى الى اوين أبى الاشتراكية والتعاون ، وكان التحول تدريجيا وظهرت اشتراكية اوين أولا كخطة معتدلة للاصلاح والتى تنفــذها الهيئات الحاكمة ، لكنها تحتوى فى مجموعها بذرة وروح مبداه الاشتراكى ٠

وبدأ التقرير بعرض رأيه فى أسباب البطالة الزائدة التى أعقبت السلم « السبب المباشر فى الضائقة المالية هو انحطاط قدر العمالة الانسانية وسببه ادخال الآلات عامة فى صناعات أوروبا وأمريكا وبوجــه خاص صـــناعات بريطانيا حيث أسرع التغيير كثيرا من جراء مخترعات آركريت واط ٠٠ وأدى ادخال الآلات فى صناعة السلع المرغوبة الى انخفاض أسعارها وأدى هــذا الانخفاض الى زيادة الطلب عليها الى درجة تطلبت تشغيل أيدى عاملة بعد ادخال الآلات أكثر مما كانت تستخدم قبل الآلات ٠ وأول آثار الآلات الجديدة زيادة الثروة الفردية وايجاد حافز ودافع الى المزيد من المخترعات ٠٠ ويبدو الا حدود هناك لتحصيل الثروات ولا وصف القوة التى تخلقها الثروة ، ويبدو أن الحرب ذاتها كانت حافزا جديدا لتطوير مواردنا التى لا تنفذ ٠

« لكن جاء السلم أخيرا فوجد بريطانيا العظمى تمتلك قوة جديدة تعمل بلا توقف ونستطيع القول بأنها قوة عمل مائة مليون من البشر الأعظم نشاطا والذين فى ذروة رجولتهم ، وكمثال على ذلك نقول أن هناك منشأة واحـــدة فى هذه البلاد يعمل فيها مالا يزيد عن ٢٥٠٠ شخصا وتستخدم الآلات وتنتج مالا يمكن أن ينتجه سكان اسكتلندا جميعا منذ خمسين عاما بالطرق التى كانت متبعة عندئذ ، وفى بريطانيا العظمى عدة منشآت من هذا النوع ٠٠ أى أن بلادنا تمتلك فى نهاية الحرب قوة انتاجية تؤدى عملا كان سكانها قد تضاعفوا خمسة عشر أو عشرين مرة ، وحــدث كل ذلك خــــلال الخمس وعشرين عــــاما الماضية » (١) ٠

ويسهل علينا أن نلاحظ أن أوين كان يقدر الزيادة فى القدرة الانتاجية بمقدار الزيادة فى صناعة القطن وهى التى وقعت تحت ملاحظته والتى حدث فيها أعظم تقدم فنى ، لكن التغيير كان أقـــل من ذلك فى صناعة الصـــوف والصناعات المعدنية التى كان التغيير فيها على مستوى أدنى كثيرا ، وهنـاك بعض صناعات لم يكد يعتريها تغيير ، وطرأ على الزراعة تقدم ملموس لكنــه يقصر كثيرا عما طرأ على صناعات النسيج ، وهذا يقلل من بعض حســـابات أوين لكنه لا يبطل رأيه من أن المخترعات الجديدة أدت الى تخفيض ســـعر قوة العمل البشرى خاصة والأسواق كاسدة ٠

---

(١) تقرير الى جمعية اغاثة فقراء الصناع والعمال ، ص ٣ وما بعدها ٠

ويستطرد أوين ليصف الموقف التالى لنهاية الحرب فيقول : « لكـــن ظهرت الآن ظروف أخرى ، فقد توقف الطلب على الأيدى العاملة الناشىء عن الحرب وانتهت السوق التى كانت تستوعبها ، ولم يعد دخل العالم كافيـــا لشراء انتاج مثل هذه القوى الضخمة فى آثارها وتناقص الطـلب وانكمش تبعا لذلك ، ولما أصبح من الضرورى تخفيض العرض اتضـــح أن القـــوى الميكانيكية أرخص كثيرا من العمل البشرى وبالتالى تركت الأولى تستمر فى العمل وتحل محل الأيدى العاملة حتى أصبح يمكن الحصول على العمـــل البشرى بسعر يقـــل كثيـرا عمـــا هو ضرورى لبقاء الانسان على قيـــد الحياة » (١) ·

ويضيف أوين أن الاستغناء عن العمل البشرى وتخفيض الأجور معناهمـا انكماش حجم السوق الداخلى وهكذا تتسع دائـرة الضائقة أكثر فأكثـــر باستمرار « ولا تمتلك الطبقة العـاملة الآن وســـيلة كافية لمنافسة القـــوة الميكانيكية « وهنا لابد من سلوك أحد السبل الآتية : أما وقف استخدام الالات (وهذا غير ممكن التحقيق فى قطر واحد بمفرده بسبب المنافسة الدوليـــة) وأما أن يواجه ملايين البشر الموت جوعا وأما » أن تجد عملا مفيدا للفقـراء والطبقات العاملة التى تعانى البطالة بحيث تخضع لهم الآلات لا أن تحل محلهم كان هو الحال الآن (١) ·

هذا هو أساس « خطة » أوين الشهيرة ونواة اشتراكيته فهو يرى أن من واجب المجتمع توفير العمل النافع لأعضائه وأن يبدأ فى اعداد خطة تنظيـم اجتماعى يحقق هذا الهدف ·

ولم يكن أوين وحيدا فى الحث على ضرورة اتخاذ اجراءات لزيـادة العمالة ، فقد أصدرت الحكومة ربما بتأثيره أعلانا تطلب من كل من يمكنـه توفير عمل أن يفعل ذلك ، لكن لم تكن هناك وسيلة ولا طريقة لتنظيم وأعمـال هذا الطلب فظل حبرا على ورق ولم يفعل أحد شيئا بصدده ، وحاول أوين أن يجد شكلا ما لتنفيذ ما اعترف به الجميع من أن ذلك شىء يمكن عمله اذا أمكن العثور على طريقة لعمله ·

ولا شك أن نيولانارك كانت أساس الفكرة التى أقام عليها أوين خطته ، لكن هناك فرق كبير حيوى ، لأن نيولانارك فى جوهرها مصنع ينتج ســـلعا للسوق وهو بهذه المثابة عرضة لما يفرضه الطلب التجارى من آثار سـيئة ، وفى وقت عمد فيه المنتجون الى تقليص انتاجهم لأنهم لا يجدون سوقا لبضائعهم يصبح من غير المعقول اقتراح توفير العمل للمتعطلين باقامة منشآت جـديدة تصنع بضائع مطلوب بيعها من خلال القنوات التجارية المعتادة ، وتلك هى الصعوبة التى تجعل كل الخطط الرامية التى توفر العمل غير قابلة للتنفيـــذ

---

(١) التقـــرير ، ص ٦ ·

ورأى أوين أن قلة الأعمال المتوافرة مرجعها الى قلة الطلب الاقتصادى لا البشرى وانهمك فى توفير أعمال لا تخضع لقيود السوق التجارية ، وخطته فى صورتها الأصلية عبارة عن طريقة لتوفير عمل للمتعطلين ، وأقامة أساس لنظام اجتماعى أفضل فى نفس الوقت ٠

واقترح أوين أنه بدلا من اغاثة المتعطلين من أموال ضرائب الفقراء Poor Rates يجب على المسئولين فى السلطة أن يخصصوا مبلغ كرأسمال **يغل فائدة ، ويستخدم هذا المبلغ لانشاء « قرى تعاونية "Village of Cooperation ، على نمط لانارك على أن تكون وحدات اقتصادية تقوم على مبدأ تعاونى ، وتشترى لكل قرية قطعة أرض كبيرة أو تستأجر لمدة طويلة ، وتبنى القرية فى مكان مناسب من الأرض والأفضل فى وسطها وتتخذ القرية شكل منشأة تعاونية كبيرة ويعيش فى القرية نحو ١٢٠٠ نسمة رجالا ونساء وأطفالا على اعتبار أن هذا العدد يمثل كتلة سكانية مناسبة للقرية ، ويشتغل السكان بزراعة الأرض كمهنة أساسية ، لكن يمكنهم اقامة ورش ومصانع بدرجات متفاوتة ، وتنتج القرية بوجه خاص احتياجات معيشة أهلها من السلع بحيث لا يضطرون الى شراء شىء من الخارج الا أقل القليل اذا دعت الضرورة ، ويبيع أهل القرية ما فاض عن حاجتهم فى السوق العامة، وكلما زاد عدد القرى أمكنها أن تنظم التبادل بينها فتأخذ كل من الأخرى ما فاض من انتاجها عن حاجة أهلها ، ورأى أوين أن لا صعوبة فى تنظيم المشروع بحيث تنتج كل قرية فائضا مناسبا يكفى سداد فائدة رأس المال على الأقل بعد توفير مستوى معيشة جيد لأهلها ، وتختلف مساحة الأرض اللازمة لكل قرية باختلاف طبيعة الأرض وخواصها كما تختلف منتجاتها الزراعية والصناعية ، لكن القرى التعاونية المقترحة هى دائما وفى كل الأحوال مجتمعات « قائمة على مبدأ العمل الجماعى والانفاق الجماعى وأساسها الزراعة » (١) ، وأقل عدد سكان مناسب للتجربة ٥٠٠ نسمة وأقصى عدد ١٥٠٠ نسمة ٠**

وآمن أوين بالوفورات الضخمة « للعمل الجماعى » Avited Labour مما جعله يعتقد أن تطبيقه فى الزراعة يؤتى آثارا تشبه الآثار التى خبرها فى الصناعة ، فقد اكتسب من اتصاله السابق بدالتون Dalton وغيره من الأصدقاء العلميين اعتقادا راسخا فى امكانيات استخدام المكتشفات الكيماوية فى الزراعة ، **وقال بعد عدة سنوات « يمكن تحويل زراعة الأرض الى عملية كيماوية وميكانيكية جميلة يقوم بها رجال ذوو علم عظيم وأذهان عالية التعليم » (٢) وأراد أن يقيم قرى تعاونية لها كفاءة فى زراعة الأرض تماثل كفاءة مصنعة بنيولانارك فى انتاج الغزل ٠**

---

(١) حوار حول النظرة الجديدة الى المجتمع ، ص ٦ ، ١٨١٧ ٠

(٢) ست محاضرات ألقيت فى مانشستر ١٨٣٧ ، ص ٥٤ ٠

أى أن الأساس الاقتصادى المقترح للقرى هو الزراعة العـــالية التى تهدف الى انتاج ما يحتاجه القرويون أنفسهم ليعيشوا حياة طيبة ، ويحكم عمل هؤلاء مبدأ « التعاون » ومبدأ « العمل الجماعى » وتقام القرية كمجمــــوعة من المبانى يعيش فيها السكان كمجتمع متد ، لكل أسرة جناحها الخـاص بالطبع ، لكن غرف الجلوس والقراءة والترويح مشتركة للجميع ، ويتناول السكان وجباتهم معا ويطهى الطعام فى مطبخ مشترك ، ويخصص بيت منفصل لاقامة جميع الأطفال فوق سن الثالثة ولا ينام مع والديهم الا الأطفال الصغار ، وتبنى مبانى القرية على هيئة مربع كبير مفرغ مع مبانى عامة تحيطها ملاعب للأطفال فى الوسط ٠

واهتم أوين بالطبع اهتماما كبيرا بالمدارس ، فالقرية كلها عبارة عـن وحدة تعليمية بقدر ما هى وحدة اقتصادية ، ويخصص مبنى كمدرسة للأطفال الصغار يعلوها قاعة محاضرات ومكان عبادة للكبار ، ويخصص مبنى آخـر كمدرسة كاملة المعدات للأطفال الأكبر سنا تحتوى على مكتبة وافية وقاعـــة قراءة لأهل القرية الكبار ، وقصد أوين من الاهتمام بالتعليم الى عـــلاج الضرر الذى أحدثه النظام السائد على أخلاق وشخصية الكبار وتربيـــة اطفال بطريقة أفضل منهم ٠

ورأى أوين أن يحيط « بمربع "Parallelogram" المبـانى من جميـــع جهاتها حدائق يشتغل فيها الأطفال الأكبر سنا جزءا من اليوم بأعمال خفيفة ، وبعد الحدائق طرقات ، وتبنى المصانع والورش والمنشآت الصناعية الأخرى للمجتمع فى مكان بعيد عن القرية ومعزول عنها بحزام الحدائق ، ولقى أوين سخرية شديدة من « مربعات الفقراء Parallelogram of the paupers لكن لا شك أن هذا الجزء من خطته يرشحه لأن يكون رائدا فى تخطيط المدن ، وهذه الفكرة التى خطرت له وتطورت فى أعماله المتأخرة كانت أساس مدينة الحدائق Garden City التى تخطط بعناية ويقام بينها وبين منطقة المصـــانع فاصل يعزل المنطقة السكنية ٠

وجدير بالذكر أن أول تصميم لقرى أوين التعاونية لا يشكل المثل الأعلى الذى تخيله ، بل هو الخطة التى رسمها للتخفيف عن الفقـــراء المتعطلين ، وتوجه الى الطبقات الحاكمة والى الحكومة لا بدال نظام قـــانون الفقـــراء المتـــداعى واحـــلال اجراءات أخـرى أسلم وأصـــح ، ونظر أوين دائمـــا الى مستمعيه مقدرا ظروفهم ولذا رأى أن من العبث أن يقترح عليهم خطـــة مثالية أو قائمة على مبادىء المساواة ، فكانت قرى أوين فى أول تصـــميم لمقترحاته تقارن لا بنظام اجتماعى مثالى بل بالنظم الواقعية لاعانات الفقراء وبيوت العمل Work houses والمؤسسات ، أو على أية حال بخطط المصلحين الآخرين لتحسين نظام قانون الفقراء ، فاذا نظرنا اليها فى هذا الضوء لا تضح لنا أن معظم النقد الموجه لها لا موضع له ٠

وعالج أوين فى تقريره ـ بعد وصف الشكل العام للخطة ـ مسألة التكلفة وطرق تحقيق الخطة ، ورأى أن التكلفة الرأسمالية اللازمة لانشاء واحدة من القرى تبلغ ٩٦٫٠٠٠ جنيه اذا اشتريت الأرض أو ٦٠٫٠٠٠ جنيه اذا استؤجرت ، ويشمل ذلك جميع المبانى والطرق والتأثيث والتجهيزات وأدوات الزراعة ، واذا وزعت التكلفة على ١٢٠٠ شخص كان نصيب كل شخص ٨٠ جنيها أو ٤ جنيهات سنويا بفائدة ٥٪ ، وكان من رأى أوين أن القرية اذا انشئت صارت معتمدة على نفسها وقادرة على سداد الفائدة وسداد الأصل على فترة من الزمن ٠

وفضل أوين أن تقوم الحكومة ببدء المشروع « فالحقيقة أن كثيرا من المنافع التى تعود على المجتمع ككل لا يمكن تحقيقها الا اذا صار المشروع قوميا (١) أما اذا لم تنفذ الحكومة المشروع « فهناك عدة طرق ينفذ بها المشروع ، فقد ينفذه الأفراد أو الأبرشيات أو المقاطعات أو الجهات ٠٠ الخ وتشترك فيه عدة مقاطعات معا لا واحدة » (٢) وقد يبدو كثير التكاليف لكنها نفقات منتجة واقتصادية جدا فى الواقع « فسوف يحل محل ضرائب الفقراء فى جيل واحد » (٣) وقد أصبحت هذه الضرائب عبئا ساحقا من جراء التأثير المزدوج لنظام سبينهاملاند للاغاثة Speenhamland Relief Siptem والضائقة التى أعقبت الحرب ، ويواصل أوين شرح رأيه فيقول « **تؤدى القوانين القائمة الى أن يقوم الأغنياء والعاملون المجدون باعالة العمال المتعطلين الذين يستهلكون جزءا من ممتلكات وانتاج هؤلاء الأغنياء بينما تظل قواهم الجسدية والعقلية غير منتجة » (٤) ، ويريد أوين أن يجعل هذه الطبقات غير المنتجة تساهم فى الانتاج وتنتج لنفسها وغيرها ويضعها ايضا فى بيئة تزيد كفاءتها وفاعليتها وسعادتها بدلا من أن تنقص من كل ذلك ٠ ويقول اوين « أن المبدأ الوقائى يجب ان يتخذ اساسا للتشريع » (٥) ، ويحث أخيرا على تعديل قانون الفقراء لأنه أساسا غير سليم لكن يجب الا يترك الفقراء وشأنهم يلاقون مصيرهم بانفسهم ، ويرى أن من المحتم اتباع خطته والا انهار النظام الاجتماعى كله قبل وقت طويل على يد اناس سلبهم البؤس كل خلق ومبدأ معنوى ولن يستطيعوا اعادة بنائه على نمط سليم (٦) ، هكذا كان تقرير أوين الذى قدمه الى اللجنة برئاسة رئيس أساقفة كانتربرى طلبت اللجنة فأرا فتلقت جبلا » ويبدو أن رئيس الاساقفة واللجنة اخذوا**

---

(١) التقرير ، ص ٢٠ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣ ٠

(٤) التقرير ، ص ٨ ٠

(٥) المرجع السابق ، ص ١٩ ٠

(٦) حوار حول النظرة الجديدة على المجتمع ، ص ١٣ ٠

بغتة وتحيروا ماذا يقولون او يفعلون » (١) ، وبينما كان التقرير فى مرحلة الاعداد شكلت الحكومة لجنة برلمانية برئاسة ستيرجس بورن Sturges Bourne لدراسة تعديل قانون الفقراء وأخيرا تقرر أنه مادام تقرير أوين يتناول أساسا مسألة التوصية بعمل تشريعى هام فمن الأفضل أن يقدم الى لجنة ستيرجس بورن بدلا من لجنة رئيس الأساقفة المهتمة فقط بجمع الأموال لصندوق قومى للتخفيف عن المأزومين ، وتعهد لورد بروهام Lord Brougham (وكان لم يحصل حينئذ على لقب اللورد) وهو عضو فى اللجنتين بأن يوجه عناية اللجنة البرلمانية الى التقرير ويقترح أن يحضر أوين أمام اللجنة ليقدم تقريره وتناقشه اللجنة فى خطته ٠

وانتقل مركز الاهتمام الى لجنة ستيرجس بورن التى دعت أوين أوائل عام ١٨١٧ ليدلى بأقواله ، وفى الوقت المحدد ذهب أوين الى قاعة اجتماع اللجنة وأخذ يرتب أوراقه ومن بينها رسوم وتصميمات للقرى المقترحة ، واجتمعت اللجنة بكامل أعضائها لكن بعد محادثات هامسة طلب رئيس اللجنة الى أوين أن ينسحب لأن اللجنة تريد أن تتداول سرا قبل أن تسمعه ، وظل ينتظر يومين كاملين بينما تتناقش اللجنة مناقشات حادة حول ما اذا كانت تسمعه أم لا وأخيرا قررت الأغلبية الا يدلى ببيانه أمام اللجنة وأرسلت بروهام الذى كان يؤيده لاخطاره بالقرار ولم تعلن اللجنة عن أسباب قرارها ٠

وبعد أن صدته اللجنة البرلمانية كان عليه التفكير فى كيفية التصرف ، وقرر فورا أن يعرض قضيته على الرأى العام موضحا خططه بالكامل ، وبدأ بأن نشر فى الصحف مناقشة خيالية له حسب تصوره لما كان يجب أن تفعله اللجنة (٢) ، واتبع ذلك ببيان عن مقترحاته بعنوان « بيان بعض الأخطار والشرور الناشئة عن حالة المجتمع فى الماضى والحاضر » (٣) وكان هدفه منها تمهيد الطريق لسلسلة من الاجتماعات العامة يخطب فيها وتعقد فى تافرنا مدينة لندن City of London Tavern حيث عقد المؤتمر الأول لتشكيل جمعية لاغاثة الفقراء فى العام السابق ، وعقدت تلك الاجتماعات « للنظر فى خطة لانقاذ البلاد من ضائقتها الحالية وبعث معنويات الطبقات الدنيا وتخفيض ضرائب الفقراء والغاء حالة البؤس Pauperism نهائيا بالتدريج وكل عواقبها السيئة » (٤) ٠

---

(١) حياة أوين ، ص ١٨٢ ٠

(٢) هذا هو الحوار الذى اقتبست منه وقد ظهر فى الصحف يوم ٣٠ يوليو ١٨١٧ ٠

(٣) ٩ أغسطس ١٨١٧ ٠

(٤) حياة أوين ، ص ١٨٤ ٠

ورأى أوين أن لجنة ستيرجس بورن ليست محكمة محايدة ، وأنها « انعقدت عاقدة العزم مقدما على حرمان الفقراء من حقوقهم العــادلة والقانونية حتى الآن ، أى حقهم فى الحصول على غوث فعال عنـــدما لا يستطيعون العمل أو لا يجدونه وأن يقدم هذا الغوث بالطريقة التى تمليهـا الانسانية بالنسبة للفقراء الذين تطحنهم المعاناة وليس بالطريقة القاســية المتبعة الآن (١٨٥٧) من تقديمها فى بيوت العمل » (١) و « قررت أغلبيــة اللجنة متأثرة بمبادىء مالتوس غير الرشيدة عن زيادة السكان أن تضغط على الفقراء لتخرجهم من الوجود نهائيا بدلا من أن تجد لهم عملا بأجر معقول يضمن لهم الحياة الكريمة » (٢) ، وهكذا وصف صادق مع الأسف لسياسة قانون الفقراء الجديدة التى أخذت تروج حينئذ ، فلم تكن اللجنة مستعدة للنظـر فى أى خطة تقوم كخطة أوين على انكار نظريات مالتوس ·

ولم يصدق أوين أبدا ما يسمى « قانون السكان » ووجه فى الأوراق التى نشرها على الرأى العام عناية خاصة الى نقض نظرية مالتوس فيقـول أن « الخشية من الشر الناشىء عن الزيادة السكانية الى أن تصبح الأرض كلها حديقة مزروعة يبدو بالتحليل والبحث الدقيق مجرد شبح من أشـباح الخيال مقصود به فقط ابقاء العالم فى حالة لا ضرورة لهـا من الجهـل والرذيلة والجريمة ·· ان قانون العرض والطلب المصطنع الناشىء عن مبدأ الغنم الفردى المخالف لرخاء المجتمع هو الذى ساق السكان حتى الآن الى الضغط على الموارد » (٣) ، والمشكلة ليست أننا لا نستطيع انتاج ما يكفى ، بل اننا لا نستطيع أن نحصل على المشترين القادرين على الدفع ·

ولم يشأ أوين بعد قراره الالتجاء للرأى العام أن يدع آراءه تفشـل لقلة الدعاية عنها ، فاشترى ٣٠٠٠٠ نسخة من الصحف فى كل يوم تخرج وفيها بيان عن هذه الآراء ، وأرسل نسخة منها بمعونة عضو برلمان صديق له الى كل أبرشية وكل عضو من مجلسى البرلمان والى القضاة والمصرفيين فى كل مدينة ولكل رجل بارز فى البلاد ، وتأخرت عربات البريد يوما مـا عشرين دقيقة من جراء المطر المنهمر من الصحف التى أرسلها ·

وطبع أوين المقالات فى شكل كتيب ووزع منه ٤٠٠٠٠ نسخة مجانا فى ثلاثة أيام ، ثم أضطر الى التوقف « لأنه أنفق فى شهرين ٤٠٠٠ جنيه على الدعاية وحدها وعلى الصحف وعلى طوابع البـريد التى تســتحق على الخطابات ومقدارها عندئذ ٧ أو ٨ بنسات (٤) ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٤ ·

(٢) المرجع السابق ، ن ٢١٤ أيضا ·

(٣) حوار ، ص ١٢ ·

(٤) حياة أوين ، ص ٢١٥ ·

وعقد أول اجتماع له يوم ١٤ اغسطس ١٨١٧ ولم يحضره الوجهاء الذين عرفهم فى لجنة رئيس الأساقفة لكن جاء الاقتصاديون البارزون وعلى راسهم كولونيل تورينز Col. Torens وريكاردو Ricardo وجمع كبير من الراديكاليين منهم هنرى هنت Henry Hunt و ت٠و٠وولر T.W. Wooller الملقب بالقزم الأسود The Black Dwarf والدرمـــان ويثمـــان Alderman Waithman من سيتى كوربوريش City Corporation ، وازدحمـــت القاعة الكبيرة ولم يجد كثيرون مكانا لهم وانصرفوا ٠

ولم يقدم اوين فى الاجتماع عرضا تفصيليا لخطته واهتم بدلا عن ذلك بالرد على النقد الموجه لها من جانب الاقتصاديين التقليديين فبدأ بقـــوله « لا يمكن لقطر ان يكون غنيا وهو يعول جزء كبيرا من الطبقة العاملة التى تعانى الفقر والبطالة أو التى تعمل فى مهن لا نفع فيها » « ثم استطرد الى الرد على الاتهام بان خطته سوف توجد بؤساء Paupers متسائلا « هـــل تدريب الطفل جيدا وبعناية من طفولته الباكرة وسيلة محتملة لزيادة البؤس Pauperism وتخليده » وقال » هل من حسن ادراك الأمور الحديث عـــن الدين والأخلاق والفقراء والطبقات العاملة بينما تحيط بهم كل المغـــريات بالرذيلة ولا يقدم لهم فى بؤسهم اى تشجيع على الفضيلة ؟

« يخطىء المتعلمون غير ذوى الخبرة فى وقتنا الحالى » فى تمســكهم بمبادىء مالتوس ولا يمكنهم تقديم اى علاج لانهم ليس فى مقدورهم تجـــاوز حدود النظام التجارى ، والنظام الفردى قاصر عن تقديم الحلول » ولا تعلمون أيها الأصدقاء مقدار سرورى عندما اوجه الفرد لكى يتوحد باخلاص مـــع زملائه » ٠

واقترح اوين فى نهاية خطابه عدة قرارات عرضها على المجتمعين ، تعلن الثلاثة الأول تعاسة الشعب والعبء المدمر لقوانين الفقراء ، ويعـــزو الرابع البؤس الى انحدار قيمة العمل اليدوى ، ويعلن الخـــامس انه « لا يحتمل أن يستعيد العمل اليدوى قيمته اللائقة والضرورية ٠٠ الا اذا وضع المجتمع ترتيبات اخرى هدفها المحدد توفير العمل لكل من يريده ويقـــدر عليه » وتقترح القرارات الباقية انشاء » لجنة تحقيق عامة » Committee of General Investigation تقدم تقريرا عن خطة اوين ، وتحث على فتـــح باب الاكتتاب لانشاء القرى التعاونية ، وقرأ اوين خطابا يؤيد الاقتـــراح من مستر جيمس جونسون من تشلسى Mr. James Johnson of Chelsea وقال ان لديه عرض لتقديم ارض من اجل اقامة قرية تجريبية ٠

وفتحت المناقشة (١) بخطاب القـــاه كولونيل تورينز اوضح فيـــه الاعتراضات الاقتصادية التقليدية على الخطة ، لكن المعارضة الحقيقية كانت من جانب الراديكاليين الذين كانوا حينئذ يهاجمون ارتفاع الضرائب ، وتقدم

(١) انظر تقرير هون فى كتابه سجل المصلحين Reformists' Register

هانت (الخطيب المفوه) بتعديل لقرارات أوين مرجعا الضائقة الى هذا السبب وأيده توماس وولر ، واتهم الدرمان ويثمان أوين بأنه يريد « حبس النـاس فى ثكنات » وتحطيم استقلالهم الرجولى ، والقى وليم هون خطابا مؤيـدا رأى مالتوس ومرجعا الضائقة الى الانفجار السكانى وقال أن خطة أوين ستزيد هذا الانفجار وأن « المبدأ الرئيسى فيها ــ وهو أن كل شيء على المشاع ــ سيجعل من البلاد كلها بيت عمل » ، ووافق المجتمعون على المقترحات الثلاثة الأولى ، وفشلت تعديلات هنت بأغلبية ضئيلة فتأجل الاجتماع أسـبوعا فى شيء من الاضطراب ، وقال هون فى مقال له يعلق على المناقشات « دعنـــا وشأننا يا مستر أوين » ٠

وأرسل أوين بعد يومين خطابا للصحف يبين انطباعاته عن الاجتماع فوصف مشروعه بأنه « خطة للتحسين والاصلاح بلا ثورة » وهاجم المصلحين السياسيين قائلا أن « اصلاح أى من مؤسساتنا القومية الكبرى دون اعداد وتنفيذ وسيلة لتدريب وتعليم وتشغيل الأغلبية الكبرى من الشعب فى أعمال نافعة لا يؤدى سوى الى خلق ثورة فورا وايجاد دافع قوى لذوى النـــوايا السيئة ، وقال أن للراديكاليين « نوايا طيبة سليمة » لكنه قال أن مقترحاتهم سابقة لأوانها ، وأن « الذين عارضوا الخطة والمبادىء التى تضمنتها هـــم بعض من شبا بمن أتباع الآراء المخيفة التى تقول بشرور الزيادة السريعة فى السكان ، وأنصار الاصلاح غير القائم على التدريب السابق والتعـــليم وتشغيل الناس فى أعمال منتجة ، وبعض معارضى كل اجراءات تتخـــذها الحكومة » (١) وقال ان الوزراء يؤيدون خطته ٠

ويبدو أن هذا هو الموقف فى الحقيقة فقبل موعد الاجتماع التالى ذهب أوين لمقابلة لورد ليفربول ، رئيس الوزراء وحصل على موافقته على ادراج أسماء الوزراء ضمن لجنة التحقيق ، وأعطى حرية فعل ذلك « دون توريطنا كحكومة » (٢) ، وعاد وهو مسلح بذلك الى مواجهة جمهوره ثانية ٠

وعقد الاجتماع الثانى فى نفس المكان يوم ٢١ أغسطس ١٨١٧ ويعتبره أوين نقطة تحول فى حياته العملية فقد قرر لأسباب مازالت غامضة أن يتخذ سبيلا من المؤكد أن يدمر نفوذه وشعبيته لدى الطبقات الحاكمة الذى توجه اليها حتى الآن بالتماسه واتخذ هذا القرار عن عمد وتدبير وكتب بعناية وقبل الاجتماع بعدة أيام الجزء من خطابه الذى أراد أن يعلن فيه عن فكرته ولم يستشر أحدا ولم يقل لأحد عما ينوى عمله ٠

وبدأ خطابه باستعراض جديد لأسباب الضائقة فقال أن « الآلات التى يمكن أن تكون أعظم نعمة على البشرية أصبحت فى الأحوال القائمة أكبـر اللعنات » ويجب عمل شيء لزيادة قيمة العمل والبحث عن عمل للمتعطلين »

---

(١) الصحف فى ١٦ اغسطس ١٨١٧ ٠

(٢) حياة اوين ، ص ٢٢٠ ٠

وهذا الشيء يجب أن يكون العمل فى الأرض » وإذا أعطى كل عامل كوخا وأرضا خاصين به فستصبح الأحوال خيرا مما هى ، لكن المشروع سيتكلف كثيرا ويتضمن كثيرا من ضياع الموارد ، « وليس بعزل الانسان فى كوخ أو فى قصر ليكون فردا قائما بذاته » نلتمس الحل ٠

وأتى أوين الى الجزء الذى دبره بعناية شديدة وتساءل « اذا كانت الترتيبات المقترحة لها حقيقة كل المميزات التى سردت فلماذا لم يؤخذ بها فى التطبيق العام أثناء كل العصور التى مضت ؟ ٠٠ أقول لكم يا أصدقائى انكم حتى الآن منعتم من ادراك معنى السعادة الحقيقية وما ذلك الا بسبب الأخطاء ـ الأخطاء الجسيمة ـ التى تتضمنها الأفكار الأساسية لكل دين تعلمه الناس ٠٠ وبسبب الأخطاء فى هذه النظم أصبح الانسان حيوانا ضعيفا أبله ، متدينا متعصبا أو منافقا بائسا ، ولو أن هذه الصفات دخلت القرى المقترحة بل لو أنها تسربت الى الجنة ذاتها لما أصبحت هناك جنة على الاطلاق ، لست من دينكم ولا من أى دين يعلمونه فى هذا العالم » ٠

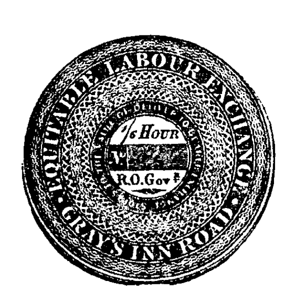
قال ذلك وسط تصفيق مختلط بأصوات وصفير ثم غلب التصفيق ، **وعاد أوين الى الموضوع الهام فقال ان القرى المقترحة يجب أن تسودها الحرية الدينية المطلقة « ولا تدخلها ذرة من عدم التسامح الدينى » ويجب أن يستمر الحال سنوات عديدة بلا تغيير فى المؤسسات القومية ولا أصلاح للبرلمان كما يريد الراديكاليون ويجب أن يكون للقرى الجديدة حكم ذاتى محلى كامل كوسيلة اعداد للحكم الذاتى القومى ، وفى فقرة من الخطاب ذات مغزى هاجم فكرة أن خطته تستهدف المتعطلين وحدهم « لأنها تقدم احسن الترتيبات المرغوبة لجميع العاملين الفائضين « ووضعها فى الأصل كبديل لاغاثة الفقراء وتوسع فيها لتكون خطة عامة لاعادة التنظيم الاجتماعى ، وسحب أوين جميع قراراته ما عدا اقتراح تشكيل لجنة تحقيق وقدم هذا الاقتراح للاجتماع ٠**

وملأ الراديكاليون قاعة الاجتماعات هذه المرة وحصلوا على قرار برفض خطة أوين وأعلان أن سبب الضائقة كثرة الضرائب (١) ، وأعلن أوين أن قراره قد سقط وأنهى الاجتماع ، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من تاريخ الأوينية ٠

وفى اليوم التالى قابل أوين بروهام فى الطريق فقال له « بحق الشيطان كيف أستطعت يا أوين أن تقول ما قلت بالأمس فى اجتماعك العام ، لو قال

---

(١) سجل المصلحين ، ٣٠ أغسطس ١٨١٧ يختلف وصفه قليلا عن ما ورد فى (حياة أوين ، ص ٢٢١ وما بعدها) لكن يبدو أن وصف هون هو الأقرب للحقيقة ٠





توضح هذه الصورة العمـلة الرمزية الصادرة عن بورصتى لنـدن وبرمنجهام لتبادل قيمة العمل · ويلاحظ أن هذه العملة الرمزية كانت تصك أساسا على ورق مقوى وعلى وجه واحد ·



أحد منا (يقصد ما يسمى عندئذ بحزب الأحرار فى مجلس العموم) نصف ما قلت لأحرقونا أحياء ، وها انت تمشى هادئا كأن لم يحدث شيء » (١) ٠

ويصعب جدا قياس آثار « انكار أوين لكل الأديان » كما كان يقال او معرفة ما كان يجول بذهنه بالضبط حين فصل ذلك ، وكتب بعض مؤرخى حياته مستندين الى سيرته الذاتية يقول عن هذا الحادث انهى فجأة وبطريقة مسرحية نفوذه لدى الفئة « المحترمة » من المجتمع ، غير أن هـذه الفكرة لا يمكن الدفاع عنها كما سنرى فيما بعد على ضوء أحداث السنوات القليلة القادمة ، فليس صحيحا أن جميع « المحترمين » فارقوا أوين فى تلك المرحلة ، لكن من الصحيح أن أقواله كلفته خسران قدر كبير من التأييد فنجد جريدة التايمز مثلا التى ساندت خططه حتى ذلك الوقت صارت معادية فورا ، ولم يعد الأساقفة يمدحونه ، بل انه فى الحقيقة أعطى خصومه سلاحا لجأوا اليه دائما فيما بعد لمهاجمته وأصابته بآثار مميتة ، وتتابع الهجوم عليه منذ تلك اللحظة بتهمة الكفر التى استخدمت دائما لهدم مشروعاته ، لكن قسما كبيرا من الطبقة العليا لم يزعجه رأى أوين ولو أنه لم يكن مستعدا ليحذوا حذوه ، ولم يغادره مؤيدوه فورا ولكن توالت الهجمات عليه تدريجيا وتخلى عنه المؤيدون ذو النفوذ ، ولم يظهر الأثر الكامل لأقواله التى أعلنها عام ١٨١٧ الا حين هوجم بها فى السنوات التالية ، فهو محق من بعض الوجـوه فى اعتبار هذه الفقرة نقطة حرجة فى تاريخه العملى ، لكن كاتبو سيرته أخطأوا حين عجلوا تاريخ ظهور آثارها ، ولم تولد الأوينية فى مظهرها العلمـانى كحركة منظمة الا بعد عدة سنوات ٠

ومن الصعب ادراك دوافع أوين ، فقد واصل حملته حتى ذلك الحين بحرص واضح متجنبا مثل هذا التصريح بآرائه حيثما تبعده عن التأييد الرسمى ذى التأثير ، وقد اتجه الى الحكومة والى الطبقات العليا وحصل على تعاطف كبير ، ولم تأت المعارضة من الكنيسة بل من رجال الاقتصاد السياسى الذين لم يكونوا أبدا ذوى فكر ديني ، ومن الراديكاليين وبينهم كثير من الكفار » ، فلماذا خرج عن سبيله لينكر الأديان الزائفـة فى محاضرته الثانية ويجعل هذا الأنكار الموضوع الرئيسى ؟

اعتقد أن الجواب أنه ببساطة قال ما يعتقد ، لقد كان يكره التوفيق والتسويات وربما أتعبه أن يقذف من لجنة لتتلقفه لجنة أخرى دون نتيجة عملية ، فاذا كان هذا كل نصيبه وهو متحفظ حذر فلماذا لا يدنس عما فى

---

(١) حياة أوين ، ص ٢٢٦ ٠٠ ويهمنا أن نوضح أن هناك من يقرر أن الجهد الكبير الذى بذله أوين لصالح الطبقات العاملة بصفة عامة ، وعدم الاستجابة لهـذه الجهود بل وضع كثير من العراقيل واجراء المناورات ضده أدت الى ثـورة الغضب فى نفسه جعلته يتصرف مثل هذا التصرف الغريب الذى أفقد أوين الكثير من الاحترام وحسن السمعة التى كان يتمتع بها ٠

صدره ؟ وليست هذه الفكرة تعقيدة جديدة اكتسبها بل فكرة راسخة منذ كان غلاما كما رأينا فيما سبق ، ورأى أن العقبة الأساسية فى طريق التقـــدم هو ميل الناس الى لوم بعضهم بعضا ، لكن الانسان مخلوق الظروف ولذا فكل لوم لا مكان له ، وسمع من يشكو الفقراء لرذائلهم ، وهو يعتقد أن هذه الرذائل نتاج الظروف الشريرة ، وعارض الناس مشروعاته لأنهم لم يدركوا أن بيدهم صنع الفضيلة أو صنع الرذيلة ، والأديان هى التى تسوقهم الى هذا الرأى الزائف ، ولذا يجب شجب الأديان مرة واحدة والى الابد ، وكان ذلك بعيدا عن اللباقة ، وبالغ الأذى وان لم يكن مدمرا لفرصة تبنى خطته مـــن جانب الذين فى السلطة والنفوذ وأظن أنه فقد الأمل والصبر فقرر أن يقول ما يشعر به تاركا النتيجة للمصادفات فقال فى الاجتماع « أن الحقيقة المعلنة، هى السبيل القوى من أجل احراز النصر » وكان يعتقد ذلك اعتقادا جازما ٠

لكن ليس هذا كل ما يقال عن هذه الحقبة ، فهى تمثل أيضا أول ظهور لدى أوين لنزعة أخذت من ذلك الوقت تزداد فيه باستمرار ، وتكلم لأول مرة فى هذا الاجتماع بنبرة ايحائية وكأنه رأى نفسه نبيا ، ووصف بعضـــهم هذه النزعة بأنها مس من الجنـــون ، وبلغت فى شيخوخته مبلغ الفكـرة المسيطرة التى لا يستطيع منها فكاكا ، بل أعتقد أنها أدت حتى فى منتصف عمره الى تدمير جزء كبير من أعماله ، كان أوين حتى ذلك الوقت رجـــل الأعمال المصلح الكبير ، وبدأ من هذا المنعطف يتحول الى تصـــور أنه نبى ويبدو للرجل العادى وكأنه رؤيا وحلم ، وكانت أحلامه أحلاما راقية ألهمت الكثيرين لكنها كانت تحمل فى طياتها عيوب الأحلام ، فمنذ أن تملكته هـــذه الايحاءات لم يستطع أن يناقش قضية بالحجة والاقناع ولم يعد يرى الا رؤى ويحلم أحلاما ، وأعتقد أنه فقد قبضته الثابتة على عالم الحقائق التى جعلته أعظم مصلح اجتماعى عملى فى عصره ، واكتسب بدلا عن ذلك قوة ما أطلق عليه سنة النبوة التى جعلته أبا للاشتراكية ، وصار أوين مجنونا قليلا عام ١٨١٧ واستمر يزداد جنونا حتى آخر أيامه ٠

الفصل الحادى عشر

أيام بيترلو

THE DAYS OF PETERLOO



رأينا أن أوين كان يرى فى السنوات الأخيرة أن « انكاره جميع الأديان » كان نقطة التحول فى حياته العملية ، لكن توجد أسباب اكثر واقعية لتغير موقف الطبقات العاملة ازاء مشروعاته الخيرية ، وكانت الحكومة فى عامى ١٨١٥ و ١٨١٦ تبحث علاج للضائقة التى دهمت البلاد ، لكنها أصبحت عام ١٨١٧ أكثر أهتماما بقمع الحركات الساخطة المنظمة ، ومع استمرار الضائقة والبطالة كان لابد أن يزداد القلق ، وحدثت حوادث شغب فى مناطق المصانع ، وتجددت اضطرابات لوديت Luddite disturbance التى حدثت قبل ذلك بسنوات قلائل ، واعتبرت الآلات اكثر من أى وقت مضى انها تنزع الخبز من أفواه الفقراء ، وجاء انتهاء الحرب ليطلق القوى السياسية النازعة الى الاضطراب ، وأخذ الناس يقبلون على سماع أقوال الراديكاليين ودخل اسم كوبيت الى جميع البيوت ، وقد رأينا كيف غزا المصلحون الراديكاليون الاجتماع الذى دعى لمناقشة الضائقة وفرضوا رأيهم القائل بأن سبب المشكلة لا يرجع الى ركود طبيعى فى التجارة بل الى سوء الحكم وتراكم الديون والضرائب المرتفعة والنقود الورقية والفساد الناشىء عن كثرة الموظفين بلا عمل وعن المحسوبية ، وذاعت هذه الأقوال فى أنحاء البلاد أثناء عام ١٨١٦ ، وخفض كوبيت ثمن جريدة السجل السياسى التى يصدرها الى بنس واحد فأصبحت لسان الحركة الشعبية ، وصارت خطاباته الى الأجراء الموسمين والعمال تقرأ فى كل مكان وتوزع توزيعا كبيرا ، وبدلا من حوادث الشغب التلقائية والاضرابات غير المنظمة التى لا تحرز أية فائدة أخذ عمال المصانع يتحولون بسرعة الى شن حملة منظمة أهدافها المباشرة الاصلاح البرلمانى الجذرى وانتهاء المزايا غير المنتجة ·

وتملك الفزع الطبقات الحاكمة ودعت جمعية السبنسيين الخيريين Society of Spencean Philanthsopists اتباع توماس سبنس Thomas Spence رائد الاصلاح الزراعى ، الى اجتماع عام فى سبافيلدز Spa Fields بلندن فى ديسمبر ١٨١٦ ، وكان السبنسيون جماعة صغيرة لكن الاجتماع كان حاشدا ، وبعد انتهائه سارت جماعة فى موكب خلال حى سيتى The City وانفجر الشغب ووقع بعض التلف لكن المسألة انتهت سريعا ولم ينتج عنها شىء ، وكان كوبيت وهانت وغيرهم من زعماء الراديكاليين المعترف بهم يعارضون الشغب بقوة وكان لهم نفوذهم ، لكن حادث سبافيلدز رغم ضآلته فى ذاته كان شرارة اشعلت سلسلة من ردود الفعل ، واعتبر ظاهرة لانتشار القلق بل وعلامة على المؤامرات المنظمة ، وأصبحت « مؤامرة » السبنسيين التى لا وجود لها على الأرجح الا فى خيال

الطبقات الحاكمة مبررا لاتخاذ اجـراءات وقائية شـــديدة ، والقى كاننج Canning خطابا تحذيريا فى مجلس العموم وعلى الفور شكلت لجـــان سرية Committees of Secrecy مـن مجلسى البـــرلمان للتحقيـــق فى « المؤامرة » ، وانتشر الجواسيس والمخبرون مثل اوليفر Oliver السىء السمعة بين الراديكاليين والمنظمات العمالية ولم يكتفوا باختلاق الأنبـــاء الكاذبة بكثرة ليرضوا لورد سيدماوث بل قاموا بـــدور باختلاق الأنبـاء وحرضوا العمال على الثـــورة كى يتمكنوا من كتـــابة التقارير وفضــــح « المؤامرات » المخيفة وابلاغ الحكومة عنها ٠

ويؤخذ من تقارير لجنتى السر بما لا يقبل الشك أن الطبقات الحاكمـة كانت فى حالة فزع من بداية عام ١٨١٧ فقالت لجنة مجلس اللوردات أنهـا « وجدت دليلا لا يترك مجالا للشك فى أذهان أعضائها فى وجود مؤامرة خيانة بالعاصمة من أجل قلب القوانين القائمة ودستور المملكة بتمرد عام ٠٠ وأن هذا القصد لم يقتصر على العاصمة بل ما زال ينتشر على نطاق واســـع ويمتد الى أجزاء أخرى من بريطانيا العظمى لا سيما فى بعض المناطق كثيفة السكان والمناطق الصناعية » وأعلنت لجنة مجلس العموم فيما وصفته بأنه « بيان عادل وغير مبالغ فيه » عن اعتقادها بوجود حركة منظمة على المســتوى القومى كله تحت قيادة جمعيات السبنسيين « هدفها لا يقل عن احـــداث ثورة » ، « وثبت للجنة عن اقتناع تام أن بعض أعضاء هذه الجمعيـــات يعملون بناء على سلطة موكله لهم أو يزعمونها كلجنة تنفيذية تمثل الجميع تتولى دراسة الموضوع وتحاول اعداد وسائل اثارة تمرد مخيف كفيل بمـا يشترك فيه من اعداد ضخمة وما يتضمنه من قـــوة مادية بالتغلب على كل مقـاومة » ٠

وجاء فى التقارير تفاصيل كثيرة عن « المؤامرة » وتناولت تلك التقرير مرارا وتكرارا أغراض مزعومة مثل قلب الدستور ومصادرة كل الأراضى والممتلكات الأخرى ، ومحاصرة الثكنات العسكرية واحراقها بيد رجـــال مسلحين والاستيلاء على المبانى الحكومية والبنوك ، وأنه تم اعداد جهـاز جهنمى عرض على اللجنة لأجل اخلاء الشوارع من الفرسان ، وأخيرا أعلنت اللجنتان عن رأيهما وهو أن القوانين القائمة غير كافية لمعالجة الموقف ويجب سن قوانين طوارىء لقمع التمرد ٠

ولم تلبث القوانين القمعية أن صدرت عقب التقارير مباشرة ، وبعد صدورها أعلن فى ٤ مارس عن وقف قانون الحرية الشخصية (احضـــار المتهمHabeas Corpus Act) كما مررت سريعا قوانين أخرى خاصة فى المجلسين ، وقيد حق عقد الاجتماعات العامة بقيود شديدة وأصـــــبح حق التصريح بها فى أيدى القضاة ، وأخضعت قاعات القراءة للحصـــول على تراخيص بها مع امكانية سحب هذه التراخيص أو وقف اصدارها اذا رأى

القضاه انها تروج لكتب غير مرغوب فيها ، واصبحت محاولات اغــراء الجنود أو البحارة على الخروج عن ولائهم معاقبا عليها بالاعدام ، لكـن ايقاف قانون الحرية الشخصية كان أهم الاجراءات بلا ريب وأكثرها شـدة عن باقى القوانين وبذلك صار من الممكن اعتقال أى زعيم من زعماء الرأى الراديكالى ، وادرك كوبيت أن اقامته فى انجلترا ستعرضه للقبض عليـــه فهرب الى الولايات المتحدة وأخذ يرسل كتابته بانتظام لتنشر فى انجلتـرا واستمر فى ذلك حتى ١٨١٩ ٠

ونتج عن هذه الأحداث أو بالأحرى حالة الفزع التى وراءها أن تغير موقف الطبقات العليا من مشروعات الاصلاح الاجتماعى تغيرا أســـاسيا ، واتجهت أذهانهم الى القمع بدلا من تفريج الضائقة واعتبر القمع اجـراء ضروريا وجوهريا وأصبح كل من لديه اقتراح بمشروعات لتحسين أحوال العمال مشكوكا فيه لحد ما ومرتاب فى اشتراكه فى أهداف المؤامرة والخيـانة ولم يكن لدى أوين نفسه حتى ذلك الوقت أى نوايا واضحة فى مساعدة تمـرد الطبقة العاملة ولا أقل نيه من ناحية المقاصد الثورية بل كان يعارض الاصلاح البرلمانى لأنه لم يؤمن بالديمقراطية السياسية الا حين تأتى نتيجة للتعـليم العام ، ولم يعتقد أن فى التغيـرات السياسية علاجـــا مناسبا للمظـــالم الاقتصادية ، لكنه يشعر بتعاطف شديد مع الفقراء ومعاناتهم لأنه يستطيع فهم وتقدير موقفهم ، وكان بعيدا عن الانزلاق فى حالة الفزع العام ودفعتـه خطورة أحوال الفقراء الى بذل مزيد من الجهود الكبرى للموافقة على العلاج الذى يقترحه ٠

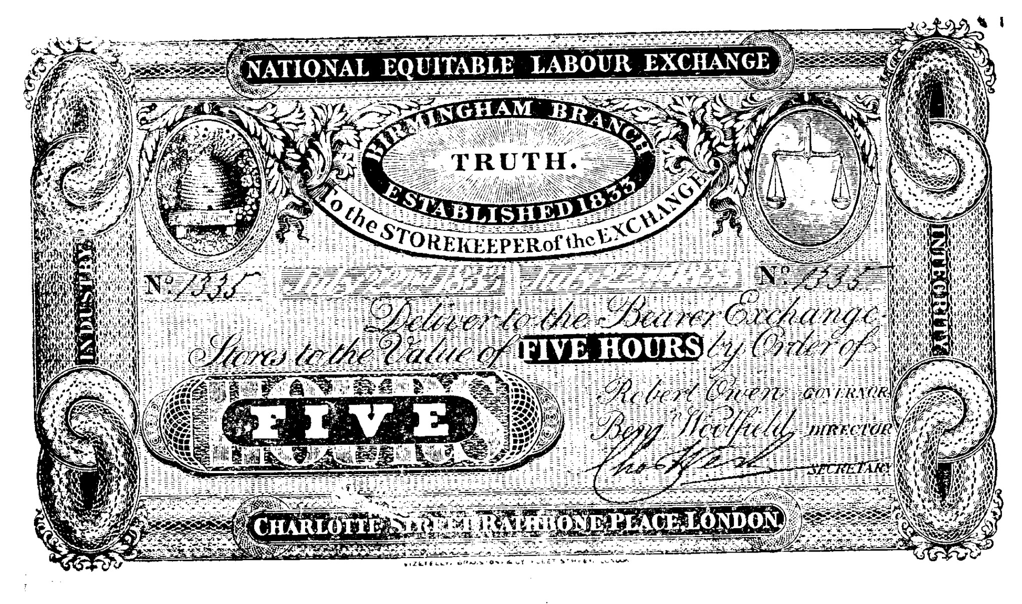
ورغم أن بعض مؤيديه من الطبقة العليا يوافقونه على أن العـــلاج لا يجدى بقمع أعراض الشر بل بالعمل على الشفاء من الشر ، الا أن هــذا الاتجاه لم يكن رائد أغلبية هذه الطبقة ، وبدلا من تنفيذ اقتراح اصلاح قوانين الفقراء ظهرت خطط لتشديد الاجـــراءات الادارية بغية انقـــاص المعونات وتأخيرها ، وأصبحت مشروعات القرى التعاونية كريهة وشريرة بعد أن كان ينظر اليها كمشروعات خيرية لا ضرر منها ، فالفزع لا عقل له ولا منطق بـل يضرب خبط عشواء ، وهكذا ضربت الطبقة الحاكمـــة الانجليزية هـــذه المشروعات ضربة عمياء فى عام ١٨١٧ ٠

وواضح أن أوين لم يـدرك ادراكا كاملا هـــذا التغيير فى الموقف ولا أسباب التغيير وتخلو سيرته الذاتية من كل ذكر لاجـــراءات القمــع التى صدرت ونفذت فعلا بينما يلقى خطبه فى تافرنا مدينة لندن ، فقد انشغل فى خططه التى بدت له أكثر أهمية من كل شئ آخر حتى أن أحداث هذا العـام الخطيرة مرت دون أن تترك أى طابع على ذهنه ، ولابد طبعا أن تأخذ فى الحسبان أن رواية أوين عن هذه الأحداث كتبت بعد عدة ســـنوات أى فى شيخوخته ، وقوة الذاكرة لم تكن صافية ، وعفى الزمن على آثارها المباشرة ، لكن لا شك أنه لم يكن ليكتبها كما فعل لو أنه أدرك وقت حدوثها تغير الجو السياسى وأثره الحاسم على سياسة الطبقات الحاكمة ٠

وهكذا بينما كانت البلاد تمر بثلاث سنوات من القمع الارهابى الذى كان ذروته « مذبحة بيترلو Peterloo Massacre » عام ١٨١٩ وصدور « القوانين الستة Six Acts التى دعمت قوانين جاجينج Gagging Bills » لعام ١٨١٧ استمر أوين يلح على خطته لاغاثة الفقراء دون أى تغيير فى جوهرها ، نعم تغيرت فى شكلها اذ لم يعد هناك فرصة لتتبناها الحكومة على المستوى القومى ، واتجه أوين الى السلطات المحلية أو جماعات الأفراد العاطفين على الخطة راجيا أن تمنح خطته فرصة تجربتها عمليا ، لكنه لم يكد يجد استجابة رغم رضاه بتصغير نطاق تطبيقها ، ذلك أن الخطة ما تزال نداء موجها للاغنياء والأقوياء وليس الى الفقراء أنفسهم ، أى أنها خطة تنفيذ للفقراء لا بالفقراء أنفسهم ٠

ومضى زمن طويل قبل أن يستوعب أوين ما يجب أن يكون عليه موقف من يريد تزعم الطبقة العاملة ، وحتى نمو حركة التهيج Agitation الواضحة بين العمال كما تدل عليه اضرابات ١٨١٨ ، ١٨١٩ لم يأخذه الا على أنه عرض من أعراض المرض الأساسى الذى يعالجه مشروعه لاعادة التنظيم الاجتماعى ، فمازال موقفه موقف السيد ذى الميول الخيرة ازاء رجاله لا موقف الزعيم لحركة شعبية ، وبدت له حملة الاثارة التى يقودها زعماء الراديكاليين مثل هنت وكوبيت على غير الخط الصحيح ، فهم لا يبالون « بمربعات الفقراء » التى يقترحها وهو لا رغبة له فى أن يضع القوة السياسية فى أيدى قوم لا معرفة لهم ولا علم يمكنهم من استخدامها استخداما سليما ، ويرى أوين أن الحلول التى يقترحها الراديكاليون ليست علاجا للأزمة على الأطلاق ويعتقد أنه يعلم الأسباب الاقتصادية للضائقة أكثر مما يعلمها هؤلاء الذين لم يزالوا يجعلون المعنى الحقيقى للثورة التى أوجبتها الآلات ويميلون الى أعتبار الرأسمالية الجديدة وكل صنيعها قوة ضارة غير مفهومة ، بينما يؤمن أوين بالآلات ويفهم مغزى أثرها ، لكنه يختلف عن الاقتصاديين التقليديين فى أنه يراها مسببا قويا من مسببات الضائقة وأن العلاج يكمن فى ايجاد الوسيلة لاخضاعها لسلطان المجتمع ورقابته ، ويمكن القول بأن موقفه حينئذ هو ما نسميه فى وقتنا هذا اشتراكية الدولة أو نوع منها أساسه الخير والبر تنفذه سلطة تعمل من أعلا ويختلف كثيرا عن اشتراكية الدولة التى عرفت فيما بعد فى اصرارها على ضرورة التوسع ما أمكن فى الاستقلال المحلى ، ويكمن فى هذا الفرق بذرة تطورها الى ما يسمى الاشتراكية النقابية ٠

لكن ليس من القول السليم أن نسمى أوين فى هذه المرحلة من حياته اشتراكيا من أى نوع بل هو فى أقصى ما يمكن ناقد محايد لنظام صعد به شخصيا الى العظمة ، ومع ذلك لم يغمض العين عن عواقب تجربته الشخصية هذه ، فقد تحرك حتى الآن فى دوائر لا تعارض الاستقلال الذاتى ، فكان فى نيولانارك المستبد العادل الذى يرعى مصالح أبنائه وهم عمال المصانع ، وكأن فى لندن « مستر أوين رجل البر » واختلط فى المقام الأول برجال من الطبقة



صورة من اذونات العمل القابلة للتداول عن البورصة القومية لعدالة تبادل قيمة العمل . ويتضح منها أن الذى يوقع على هذه الأذونات الرئيس والمدير والسكرتير وتوضح الصورة توقيع روبرت أوين كرئيس .



الحاكمة مشبعين بالآراء الاوتوقراطية ، وعرف فرانسيس بلاس وبنثام وكان له أصدقاء من الراديكاليين ، لكنها راديكالية الطبقة الوسطى الفلسفية وليست الراديكالية المكافحة التى يعتنقها العمال والمصلحون المكافحون ٠

وكان أوين أيضا ما يزال منغمسا فى تلك السنوات فى تطوير خططه لادارة نيولانارك وساعد ذلك على تشكيل عقليته ، فمن الصعب على الانسان أن يكون أوتوقراطيا فى مصانعه وأن يكون فى نفس الوقت قائدا للاثارة الديمقراطية خارجها ، ولم يتحول أوين الى دوره الجديدكقائد شعبى الا بعد أن ترك نيولانارك فى يد آخرين ، وسنرى فيما بعد أن التحول لم يكن كاملا فقد ظل حتى النهاية صاحب العمل ذا الميول الخيرة حتى وهو يقود التمرد العمالى الكبير فى الفترة من ١٨٣٢ الى ١٨٣٤ ٠

ويجب أن نعود ثانية الى قصة نيولانارك ونستأنفها من النقطة التى وصلت اليها بتشكيل الشركة الجديدة عام ١٨١٣ التى يبدو أنها ضمت اليه نفر من المخلصين المستعدين لمساعدته فى أغراضه الخيرة الى أقصى ما يمكن ، **وسنرى أن شعور الخير المشترك ليس ضمانا كافيا للتعاون المنسق ٠**



الفصل الثانى عشر

السنوات المتأخرة فى نيولانارك

LATER YEARS AT NEW LANARK



عندما كان يقضى أوين جل وقته فى لندن أثناء السنوات فيما بين ١٨١٣ و ١٨١٧ لم يستطع ترك شئون نيولانارك ، وقد قطعنا القصة عندما أنشأ أوين شركته الجديدة مع وليم ألن ، فوكس ، فوستر ، جون ووكر ، جيبسى ، جيرمى بنثام ، وأصبح بعد ذلك أكثر حرية فى تطوير مشروعاته لأن الشركة الجديدة لم تشكل بهدف الربح فى المقام الأول ، **ونص عقد الشركة بوضوح على أن « كل الأرباح التى تحققها المنشأة بما يزيد على خمسة فى المائة سنويا على رأس المال المستثمر تجنب من أجل تحسين حالة العمال دينيا وتعليميا ومعنويا وتحسين أحوال المجتمع عموما »** (١) ، فصار لدى أوين مجال كامل للعمل فيما يختص بالأموال لأن المنشأة حققت أرباحا كبيرة جدا ، ورغم اصابتها بالكساد الذى ساد البلاد بعد عام ١٨١٥ فقد خرجت من الأزمة فى حالة أفضل كثيرا من غيرها ، **وسار أوين قدما فى بناء المدارس الجديدة والمشروعات الأخرى لتحسين الأحوال فى المصنع ، فخفض ساعات العمل عام ١٨١٦ الى ١٠½ ساعة أو أحد عشر بما فيها وقت الطعام ، ونفذ نظاما للرعاية الطبية المجانية للجميع وأنشأ ناديا للمرضى وبنك ادخار وفتح الغابات أمام الجميع لتصبح أرضا عامة للرياضة ، وعلى الجملة فقد سار فى طريقه كأكثر أصحاب العمل استنارة فى وقته ٠**

ويلاحظ أن العمال فى نيولانارك كانوا يحبذون خفض ساعات العمل اليومية بالرغم من أن معظمهم يعملون بالقطعة واستطاعوا بعد قليل تعويض نقص الاجور بزيادة الانتاج ، ووجه العمال عام ١٨١٧ خطابا الى أوين بمناسبة انقضاء عام على تخفيض ساعات العمل يشكرونه فيه على ذلك ، وأبدوا رغبتهم فى تقديم هدية له لكنه رفض فخصصوا المبلغ الذى جمعوه لأعمال الاغاثة وتخفيف وقع الضائقة عن العمال ، وقدموا التماسا للبرلمان بتأييد قانون المصانع الذى عرضه أوين ٠

غير أن أكبر اهتمامات أوين كان تحقيق المشروعات التعليمية ، وأتم فى أول يناير ١٨١٦ المبانى الجديدة التى أقامها لهذا الغرض وأصدر بالمناسبة : « خطاب الى سكان نيولانارك فى افتتاح معهد تكوين الشخصية » ، وقد وزع فيما بعد على نطاق واسع جدا بعد طبعه فى شكل كتيب ، وقد أوردنا من قبل ما جاء به من اشارات الى أن عمله فى نيولانارك حتى ذلك الوقت كان تحضيريا لأنه يهدف فقط الى ازالة الشرور المادية وتحسين العادات الخارجية ، وهو يهدف الآن للخوض فيما هو أعمق : « يهدف المعهد بعد الانتهاء من كل أجزائه الى أن ينتج آثارا طيبة دائمة ، وبدلا من اللجوء

---

(١) مذكرات ديفيد ديل بقلم Liddel

الى اجراءات مؤقتة لتصحيح بعض من عاداتكم الخارجية البارزة لابد من تحقيق تحسن شامل وكامل فى صفة القرية كلها داخليا كما حدث خارجيا (١) ويتحقق ذلك بتعليم الأطفال ٠

فلا يعمل أى طفل الا بعد بلوغه العاشرة من عمره ، ويمر الأطفـــال حتى ذلك السن بمرحلة تعليمية مقسمة الى درجتين اعداديتين يتتبعهمـــا « دورة أكثر شمولا "fuller course" وفي الصيف تعقد معظم الدراسات ـ بما فيها دراسة الطبيعة ـ فى الهواء الطلق ، مع الاكثار من الرقص والغناء والعزف على بعض الآلات « ويتدرب الصبيان على » التربية العسكرية » ٠٠ « لأن الغرض اعطاؤهم قدرا متنوعا من اللهو البرىء بقدر ما تســـمح به الظروف المحلية فى المنشأة » ، وتعد للأطفال فوق العاشرة فصول مسائية ، كما تعد للكبار « أمكنة للقراءة والكتابة والتطريز واللعب والحديث والمشى الى جانب المحاضرات المنتظمة والرقص والموسيقى فى قاعة المعهـــد ، ولا تفرض أية قيود على الرأى الشخصى أو الاعتقاد الدينى (٢) ٠

ويستطرد أوين مرة أخرى الى عرض رأيه فى تكوين الشخصية والخلق بتهيئة البيئة المادية والمعنوية ، فالبؤس والشر هما نتاج « جهل أجدادنا » ٠٠ « ولا أعلم الآراء التى يعتقدها الأفراد عن الزمن السعيد Millennium لكننى أعلم أن المجتمع يمكن تشكيله بحيث يقوم ويوجد بلا جريمة ولا فاقـــة وبحيث يغمره العلم والسعادة ويتزايدان مئات المرات ولا عائق فى سبيل ذلك الآن سوى الجهل » (٣) ، وهاجم أوين تعليم « المتعلمين » ووصفه بأن زائف ويقوم على نفس الاعتبارات الخاطئة التى يريد ازالتها كما شـجب الآراء الدينية الجامدة بقوة تعادل القوة التى شجبها بها فى لندن بعد عام من ذلك التاريخ وقال عنها انها سبب الجهل والفرقة ، وأعلن ان غرضه ان يستل من المجتمع « جرثومة » الخلافات والمعارك الحزبية والطائفية » ، « وانا لا اعتد فى التفرقة والتمييز بين الأمم والفصل بينها على أسس متخيلة » (٤) ٠

وأخيرا أعرب عن شعوره بانه لا يستطيع ان يطبق مبادئه فى نيولانارك الا تطبيقا غير كامل وحذر مستمعية من اخطار التحول السريع ونبذ نظـــم الماضى فجاة حتى ولو كانت فاسدة « يجب ان تستمروا فى السير طبقا للنظام القديم الى ان يثبت عمليا أن النظام الجديد المقترح يفضل القديم يقينا » ٠٠

---

(١) الخطاب ، ص ١٣ من الكتيب ، ، ولمزيد من التفصيل نرجو التكرم بالرجوع الى الفصل السادس من مرجعنا هذا بعنوان « نيولانارك » ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٧ وما بعدها ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦ ٠

« فهذا التغيير لا يشبه من أى وجه أى ثورة من الثورات التى حدثت حتى الآن ، لأن هذه الثورات نشبت لتنتج وتستدعى كل شرور الحقد والكراهية والثأر ، أما النظام المطروح الآن فمن شأنه أن يمحو كل شعور من الاثارة وسوء النية الذى قد يوجد بين البشر » (١) ٠

وعندما أنشأ أوين مدارسه الجديدة رأى أنه يضع الأساس الوحيد المكين لتغيير ثورى نحو الأفضل ، واستطاع أن يجعل منها أشهر منشأة تعليمية فى العالم وكعبة يحج اليها المتحمسون من أقطار كثيرة (٢) ، وفيما بين عام ١٨١٥ وعام ١٨٢٥ وقع فى سجل الزيارات بنيولانارك نحو ٢٠ر٠٠٠ شخص تراوحت منازلهم بين القيصر نيقولا قيصر روسيا ومندوبين عن الهيئات الدينية وأفراد عاديون ممن يؤمنون بالأفكار التربوية الجديدة ٠

أوضحت فى فصل سابق نظريات أوين التربوية ، وقد اتبعها فى التطبيق اتباعا تاما ، وكانت مدرسة الطفولة Infant School أول مدرسة من نوعها فى انجلترا وشجع على منوالها بروهام وولدرسبين بعد عدة سنوات لكنهما لم يبلغا مثلها وكانت المدرسة مكانا للعب أكثر منها للتعليم أو العمل أى روضة أطفال حقيقية أنشأها أوين فى وقت معاصر تقريبا لتجارب بستالوزى Pestalozzi وغيره فى أوروبا ، واتبع أوين فى مدارس الاطفال الأكبر سنا الوسائل التى تعتمد على جذب العين والأذن ، فكانت الموسيقى مادة أساسية وغطيت الجدران بالخرائط والمصورات وصور الطيور والحيوانات والمناظر التاريخية وغيرها ، واهتم أوين بالتاريخ والجغرافيا وتدريسهما من وجهة نظر عالمية ، واستخدم الكتب ولو أنه فضل الاستغناء عنها بالنسبة لصغار الأطفال ، ولم يكن من السهل العثور على كتب مناسبة فى ذلك الوقت (٣) ٠

وسارت المدارس سيرا حسنا جدا لكن السحب تجمعت فى الأفق من جديد ، وكان شركاء أوين السابقين قد تدخلوا مطالبين بأرباح أكبر ، واحتاط أوين ضد مثل هذا التدخل فى عقد شركته الجديدة ، لكن ما لبث أن وجد قيودا على حريته ، وكان وليم الن ، الذى يتبع مذهب الكويكر ، من أنشط شركائه الجدد ، « كان نشيطا وطموحا وراغبا أشد الرغبة فى فعل الخير بطريقته الخاصة وكانت له مشاعر نبيلة وطموحات كبرى » (٤) لكن أوين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ ٠

(٢) ر٠د٠ أوين وأنا أنسج طريقى ، ص ١١٥ ٠

(٣) لا يتسع المجال لوصف مدارس نيولانارك وصفا كاملا وأحيل القارىء الى كتاب ر٠د٠ أوين « وصف نظام التعليم فى نيولانارك » (١٨٢٤) والى ما جاء بكتاب برد مود عن أوين مجلد ١ ص ١٢٦ وما بعدها ٠

(٤) حياة أوين ، ص ١٣١ ٠

يقول عنه أيضا أنه يتدخل فيما لا يعنيه وفضولى ويحب التآمــر من وراء ظهره ، وسبب المتاعب أن ألن كان متدينا بل شديد التدين والتقــوى وتدل مذكراته اليومية على أنه كان يفزع أشد الفزع من الالحــاد بكل صــوره وأشكاله ، ولذا رأى أن أفكار أوين الدينية مخيفة ومدمرة ، وانتابه فــزع دائم من أن تصبح نيولانارك « مصنعا للكافرين » حسب قوله ، وكان قــد أصر عند كتابة عقد الشركة على أن يتضمن نصا يقضى بادخال التعليم الدينى القائم على الكتب المقدسة وأخذ يتهم أوين بمخالفة هذا النص ويطالب دائما بمراعاته وتنفيذه ، وعارض بشدة الرقص والغناء والتدريبات العسكرية (١) التى أدخلها أوين فى منهج المدارس محبذا طريقة لانكاستر فى التعليم عـن تلك المتبعة فى نيولانارك ٠

ويكشف ألن عن نفسه بصراحة فى مذكراته اليومية ، ويبدو خليطـا عجيبا من الصفات حيث يجمع بين البيوريتانية (٢) Puritanism والتدين وحب البر والتطفل والتدخل فيما لا يعنيه والمهارة المالية ويسلينا أن نقـرأ مساءلته لنفسه كرجل متدين ورع وتضرعاته من أجل الهداية الآلهيــة التى بها انضم الى الشركة ، ونقرأ الى جانب ذلك كيف أمكن لهذا الرجل المحـب للبر والاحسان أن يستخدم مهارته وحرصه لحماية نفسه ضد احتمــالات الخسارة وهو يقولها بغير خفاء فيقول :

« بذلت جهدا عقليا كبيــرا فى التفكير فيمــا اذا كان من مصلحتى الخضوع للرجاء الملح ٠٠٠ كى أنضم الى مشروع لانارك من أجل الابقاء على هذه المنشأة الهامة رغبة فى الحفاظ على أخلاقيات ومعنويات الطبقــة العاملة بها وزيادة رفاهيتها وسعادتها ، وأعتقد أنى شعرت بما يبرر الذهاب الى المدى الذى ذهبت اليه ، وتعهد الشركاء بأن يضــمنوا لى ألا أتعرض لخسارة مدة عام وأن يشتروا حصتى اذا شعرت بالقلق والرغبة فى تركهم بشرط اخطارهم بذلك فى الشهر التاسع ، فاذا لم يكن هــذا هو الاتجـــاه الصحيح فأرجو بخضوع أن يتلقى ذهنى وحيا فى هذا الصدد وأن يساعدنى الله أن أعمل بمقتضاه » (٣) ٠

وبعد أن بدأت الشركة الجديدة فعلا شعر ألن بالارتياح وأخذ يفــاوض الحكومة للحصول على مرسوم ملكى من أجل نيولانارك لكن لم يصــل الى شىء ، ثم بدأت متاعبه مرة أخرى حين زار نيولانارك عام ١٨١٤ ، وأثناء

---

(١) يبدو أن هذه التدريبات كانت مجرد تدريبات بدنية ولم تكن ذات طبيعة عسكرية ٠

(٢) البيوريتانى عضو فى جماعة بروتستانية فى انجلترا ونيو انجلند (فى القرنين ١٦ ، ١٧) طالبت بتبسيط طقوس العبادة وبالتمسك الشديد بأهداف الفضيلة ٠

(٣) حياة و ٠ آلن ، ص ١٨١ ٠

سيره مع أوين « جرت محادثات أليمة حـــول آرائه العجيبة « وكتب ألن « للأسف فان أوين مع ذكائه وميوله الخيرة ينقصه الشيء الوحيد الذى بدونه لن تكون هناك انجازات ولا بر » (١) ، وزادت متاعبه فى العام التـــالى وتراسل مع أوين طويلا واتهمه بأنه بدل الأساس كله الذى تدار عليه المصانع « كنت آمل باخلاص أن تقدم منشأة تثبت أن من الممكن رعاية رفاهية الفئـة الفقيرة من السكان والعمل على النهوض بمعنوياتهم وسعادتهم دون أن ينال الأذى المصالح المالية لأصحاب العمل » (٢) لكنه لم يساوم فى الموافقة على تعليم مبادىء « الالحاد » فقد أصر مرة أخرى على الالتزام بتنفيذ النصوص الخاصة بالتعليم الدينى ٠

وفى عام ١٨١٨ وبعد مقابلات أوين فى لندن صارت العلاقات أكثـــر توترا ، وقام ثلاثة من الشركاء : « ألن ، وفوستر ، وجيبس ، بزيارة تفتيشية الى نيولانارك ، وتلقوا رسالة شـكر من العمال الى أصــحاب الشركة ، **وخطب ألن فى اجتماع عام موضحا الآراء الدينية للشركاء ومعارضا آراء أوين ، وزار أيضا رجال الدين المحليين الذين قرروا أن ليس هناك لديهـم شيء يأخذونه على سلوك أهل القرية وأن حالات السكر اختفت ، ولا دلائل تدل على أن آراء أوين الدينيـة أثرت على العمـــال ، وطلب ألن الى أحـد القسس أن يزور المدارس بانتظام وأن يكتب لهم « اذا رأى أية محاولة لادخال ما ينافي الدين المنزل » وكتب ألن يقول فى يومياته بعد زيارته للمصانع » بدأت آمل أن تتلقى هذه المنشأة البركات وربما كان دخولنا اليها مانعا من أن تعيد نيولانارك مزرعة للملحدين » (٣) ٠**

وسويت الأمور ظاهريا عام ١٨١٨ لكن المتاعب استمرت وبرزت فى الأعوام من ١٨٢٢ و ١٨٢٤ وأعلن ألن أنه سينسحب ما لم تحدث تغييرات حاسمة ، وذهب ألن وفوستر وجيبس مرة أخرى الى نيولانارك وصــمموا على غرضهم وأرغموا أوين على فصل بعض المدرسين وتعيين جون دانيـــل John Daniel **رئيسا للمدارس وكان من اتباع طريقة لانكاستر وتقرر عدم تعليم الرقص على نفقة الشركة واقتصرت الموسيقى والغناء على « تعليـم الترانيم » وأدخلت قراءة النصوص المقدسة و « التدريبات الدينية » كجزء من منهج التعليم ، وألغيت التنورات** Kilts **التى كان يلبسها معظم الأطفال والأزياء الكلاسيكية التى ادخلهـــا أوين لدروس الرقص « فمـن رأينا أن الحشمة تقضى بأن يلبس جميع الذكور حين يبلغون سن السادسة البنطلونات والجاكيتات » (٤) ٠**

---

(١) حياة وليم الن ، ص ٢٤٥ ٠

(٢) المرجع الساق ، ص ٢٠٩ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥٦ ٠

(٤) من الحياة الجديدة New Existence الفصل الخامس ، ص ٨ ٠

ومنذ ذلك الحين خرجت مدارس نيولانارك بل والمنشأة كلها من يد أوين في الواقع واحتفظ بمصالحه المالية فيها حتى عام ١٨٢٨ وظل مديرا اسميا حتى عام ١٨٢٥ ، لكن الظروف الجديدة انتقصت من حريته ولم يعد المكان مكانه ، لقد أجرى تجربته العظيمة التى كانت لها نتائج باقية لكنه لم ينجح فى العثور على جماعة من الرأسماليين الذين يطلقون يده فى تنفيذ مخططاته ٠

وقبل أن تجتاح الأزمة نيولانارك وجد أوين مجالات جديدة تشغل اهتمامه وطاقاته وعاد الى نيولانارك بعد الاجتماعات الفاشلة فى تافرنا لندن عام ١٨١٧ ، ثم اصطحب شقيقات زوجته وذهب فى رحلة شاملة الى القارة الأوروبية صحبه فى معظمها بروفسور بكتت Pictet المقيم بجنيف ، وسافر الى باريس مع بكتت وكوفييه Cuvier العالم الطبيعى على فرقاطة فرنسية ولقى استقبالا رائعا بفضل توصيات دوق كنت وغيره من الأعيان ، وكانت له مقابلات مع دوق أورليان Duke of Orleans (لويس فيليب Louis Philippe ورئيس الوزراء وعقد أواصر الصداقة مع همبولت Humboldt ولا بلاس Le Place ، والواقع أنه زار المعالم الهامة فى باريس وتعرف الى المشاهير وأقام بعض الوقت قبل أن يسافر الى جنيف مع بكتت ، وفى سويسرا قام بعدة زيارات للمدارس الجديدة التى أقامها الأب أوبرلين Father Oberlin وبستلوزى Pestalozzi وفيلينبرج Fellenberg ويبدو أن مدرسة أوبرلين الكاثوليكية أعجبته أكثر من مدرسة بستلوزى الذى كتب عنه يقول « نظريته جيدة لكن وسائله وخبراته محدودة « وكان » مسرورا جدا من اخلاص وبساطة الرجل الشيخ « لكنه يعتقد أن مدرسته ليست سوى « خطوة واحدة الى الأمام عن المدارس العادية » (١) واجتذبته كلية فيلنبرج فى هوفيل Hofwyl أكثر من سابقتها وأوفد اليها ابنية الأكبرين ليتعلما فيها بعد عودته للوطن ٠ (٢) ٠

وسافر أوين بصحبة شريكه جون ووكر من سويسرا الى المانيا وبقى بعض الوقت فى فرانكفورت حيث كان مجلس الدايات الألمانى Diet يعقد دورته واستقبل استقبالا حسنا جدا بفضل تقديم الزعماء الألمان له ، لكنه لم يستمر طويلا فى المانيا لأنه قرر حضور مؤتمر الدول الكبرى الذى كان على وشك الانعقاد فى مدينة اكس ـ لاشابل Aix — La Chapelle ليقدم له « مذكرتين نيابة عن الطبقات العاملة Two memorials on behalf of the working classes وقدم لورد كاسلريه Lord Castlereagh للمؤتمر هاتين المذكرتين وفيهما أعاد أوين عرض آرائه الأساسية مطالبا بعمل دولى لتستعيد الطبقة العاملة قدراتها الشرائية وبانشاء نظم تعليمية لتنمية الشخصية والخلق ، وأكد على أن المخترعات

---

(١) حياة أوين ، ص ٢٤٤ ٠

(٢) انظر كتاب ر٠د٠ أوين ، فصل ٥ ، وبه وصف جيد عن تعليمه فى هذه المدرسة ٠

الجديدة حطمت قيمة العمل ، وقبل ظهورها « وصل النظام الصناعي مرحلة منح العمل اليدوي أعلى قيمة بالقياس على الاسعار وجعلت المخترعات العظيمة الانتاج شديد السهولة « والمسألة الكبرى التي تتطلب حلا الآن ليست كيف يمكن انتاج ثروة كافية بل كيف يمكن توزيع الثروات الفائضة التي تنتج بسهولة زائدة على المجتمع كله بطريقة مفيدة للجميع وبدون احداث اضطراب سابق لأوانه في المؤسسات أو النظم القائمة في أي قطر » ، « وبعدد سكان يقل عن عشرين مليونا وأيدي عاملة لا تتجاوز ستة ملايين لا توجهها الا المصالح الخاصة العمياء ، تكفي (بريطانيا العظمى) نفسها ومتطلباتها وتتخم بمنتاجاتها كل أسواق العالم التي تسمح بدخول تلك المنتجات اليها ، وتبذل الآن كل جهد ممكن لفتح أسواق جديدة حتى في الأقطار المتناهية البعد لأنها تشعر بقدرتها على أن تلبي بعد قليل متطلبات عالم آخر بأسره يعادل في سكانه سكان الأرض ، فبدلا من أن تتنافس مع الأمم الأخرى لتورد لها احتياجاتها وبالتالي تقلل من قيمة العمل اليدوي في تلك الأمم بحسب مقتضيات أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية القائمة ٠٠ وتضغط على الطبقة العاملة ، فمن الأفضل لها ولهذه الأمم أيضا أن تقدم علمها الذي اكتسبته في انتاج الثروة أو القوة الانتاجية الجديدة الى بقية أوروبا والى آسيا وافريقيا وأمريكا « وقد كانت طريقة تحديد الأجور بحسب تقلبات عرض العمل والطلب عليه « وافية بالغرض بدرجة مقبولة عندما كانت الثورة تنتج بالعمل اليدوي أساسا » لكن الثورة الآلية أسقطت العمل اليدوي وجعلته مصدر الفاقة العامة ، ولذا فالعمل الدولي من أجل تغيير النظام ضروري وحتمي ، ومن ثمة يطلب أوين من المؤتمر تشكيل لجنة لدراسة أعماله ومشروعاته واصدار توصيات تعرض على المؤتمر القادم للدول الكبرى ، ولم تسفر مقترحاته هذه عن شيء بالطبع رغم أن مذكرتي أوين عرضتا للدراسة فعلا في آكس لاشابل فيما يبدو ٠

وبعد محاولة أوين الأخيرة لاقناع حكومات العالم باتخاذ خطوة ما عاد الى الوطن ليرعى مصالحه ، وكان فرانسيس بلاس يبحث في بعض أوراق قديمة فعثر على كتيب نشره جون بيلرز John Bellers عام ١٦٩٦ بعنوان « مقترحات لانشاء كلية صناعية لجميع الحرف والصناعات النافعة ، وتشبه هذه المقترحات في بعض نواحيها مقترحات أوين شبها وثيقا ، فأعاد أوين طباعة هذا الكتيب مع أوراق أخرى ، واستأنفت حملته الدعائية من النقطة التي تركها عندها في العام السابق ، ونشر في أوائل ١٨١٩ « خطاب الى الطبقات العاملة « Address to the working classes فكان ارهاصا بالتغيير القادم في اتجاهاته ، لكنه لم يفقد الأمل بعد تماما في الطبقات العليا كما أن هذه الطبقات لم تكن ابعدته عنها كليا رغم انه اخذ يواجه الاتهام « بالالحاد » في كل خطوة وكان من بين مؤيديه دون كنت والد الملكة فيكتوريا الذي ظل على علاقات وثيقة معه حتى وفاته عام ١٨٢٠ ، ورأينا كيف أمده الدوق بخطابات تقديم عندما أزمع الرحلة في أوروبا ، وقام أوين

بدوره بتقديم خبرته للدوق فأصلح من شـــئونه المالية المرتبكة ، وعنـــدما التمس أوين مرة أخرى عام ١٨١٩ تشكيل لجنة تقصى حقائق لدراســـة خطته للسير بمقتضاها وافق الدوق على أن يأخذ منصب الرئيس فى الجلسة المعقودة لدراسة الاقتراح وفى اللجنة ذاتها ، وظل أوين حتى فى هذه المرحلة بعيداً عن أن يفقد كل أصدقائه ذوى النفوذ ويبدو ذلك واضحا من أســماء من وافقوا على الانضمام لعضوية اللجنة التى أقامها ، فنجد الى جانب دوق كنت دوق سسكس Duke of Sussex ، وبدل الكبـــير Elder Peel ودافيد ريكـــاردو David Ricardo وتوك Tool وتوريـنـز Toriens والدرمـــان ماثيو Alderman Mathew ، وســـيروليم دى كرسبنى Lord William deCrespigny وعدد من الأعيان الآخرين ، لكن تركه الأساقفة ومع ذلك ظل يلقى انتباها ورعـــاية من الاقتصاديين والأحرار فى ذلك الوقت٠

ويعتبر التقرير الذى قدمته اللجنة فى صالح خطته ، فقد اشـــار الى الضائقة السائدة وحتمية علاجها واستطرد الى القول بأن « العلاج يوجد فى أى خطة توفر العمل للفقراء لاسيما فى العمالة الزراعية ، وتتجه الى بث العادات العملية وقد تصبح مقدمة لنظام تدريب للشـــباب على الســـلوك الأخلاقى الطيب ٠٠٠ وترى اللجنة أن الخطة التى يقترحها مستر أوين تجمع نتائج عملية عديدة بالأضافة الى المزايا المشار اليها آنفا ، ولذا فمن رأيهـــا اقامة منشأة بصفة تجريبية وطبقا لحساباتها تحتاج هذه المنشأة أول الأمر الى رأسمال لا يجوز ١٠٠ر٠٠٠ جنيه وأوصت اللجنة بجمع هذا المبلغ بفائدة ٥٪ وقدرت أن فى الامكان سداده كله من الربح مدة من السنوات ، وصدر نداء لجمع المبلغ المطلوب ٠

وأشار دوق كنت كرئيس للجنة كما أشارت اللجنة ذاتها الى مســـألة آراء أوين الدينية فجاء فى التقرير « لم يعرف عن مستر أوين أنه حـــاول فى أى مناسبة تغيير الآراء الدينية للأشخاص الذين يعملون لديه « ولم تطلب منه اللجنة الاعلان عن آرائه الدينية الخاصة حيث أنها متأكدة من هـــذه الحقيقة ومن أن « خلقه يتميز بالبر النشيط والأخلاص التام وهدوء الطبـــع » وناقشت اللجنة الاعتراضات المقدمة على خطته « لكن احداً منها لم يبـــد أن له أساس من العقل أو الواقع » ٠

وأوضحت اللجنة بجلاء فى نفس الوقت انها مستعدة فقط للتوصـــية بشكل معدل جدا من الأوينية Owenism « يجب الا يكون فى المنشأة المقترحة الآن أى شيوع فى السلع أو أى خروج عن قوانين الملكية القائمة ، وقـــد أعرب مستر أوين عن رأى يحبذ نوع من المجتمع فيه شيوع فى ملكية السلع لكنه لم يعتبر ابدا أن هذا الشيوع ضرورى ولازم لنجاح منشأة كالمقترحـــة الآن ولا يعتبره أيضا شرطا لاشرافه عليها » ، وقد أبرز التقرير أن أوين عرض

أن يعمل كمشرف على القرية المقترحة وتعهد بأن يسدد الفائدة المستحقة على رأس المال (١) ٠

وبذلت محاولة تحت رعاية هذه اللجنة ذات النفوذ لجمع قدر من المال يعادل على الأقل المبلغ اللازم للبدء فى قرية واحدة على النمط الذى وضعه أوين ، وظلت دعوة اللجنة لهذا الغرض قائمة طوال الصيف والخريف ، وفى نوفمبر كتب وليم توك الى أوين يعلنه عن الفشل فى جمع أى مبلغ ذى بال ، ثم حلت اللجنة بعد ذلك بقليل دون أن تصل الى شىء عملى ملموس ٠

ويوجد دليل آخر على أنه فى عام ١٨١٩ بعد سنتين من اعلان أوين الحرب على الأديان القائمة مما كان يفترض أن يخرجه من الميدان ، أن خطته كانت ما تزال موضع الدراسة فى أوساط عالية الاحترام وألقى أوين أثناء تلك السنة محاضرة فى ليدز Leeds ، وفى أغسطس تألف وفد من ليدز يرأسه ادوارد بينز Edward Baines أشهر صحفى فى شمال انجلترا والمعبر عن الرأى الراديكالى للطبقة الوسطى فى وست ريدنج West Riding والكاتب فى جريدة ليدز ميركورى Leeds mercory ، وذهب الوفد لزيارة نيولانارك وكان يدرس اقتراحا بتبنى خطة أوين كبديل لنظام اعانة الفقراء ، **وأعد الوفد تقرير يستحق أن يقرأ بالكامل (٢) ، وجاء فيه « منشأة مستر أوين فى نيولانارك هى فى جوهرها منشأة صناعية تدار بطريقة تسمو كثيرا عن أى منشأة شاهدها الوفد ، وتقدم للعاملين فيها قدرا من السعادة أكثر من أى منشأة أخرى فى المملكة تستخدم أشخاصا فقراء ٠٠٠ وفيما يتعلق بتعليم الأطفال يسترعى النظر بشدة روح الود والرقة البادى تجاههم ، والغياب الكلى لجميع الأشياء التى قد تعودهم عادات سيئة ، مع وجود كل شىء يحتمل أن يعودهم العادات الحسنة ، والنتيجة انهم يظهرون كأسرة واحدة عظيمة الانتظام توحدها أوثق روابط المودة ، ورأينا فى الكبار كثيرا من الصفات المحمودة فهم عموما على قدر وافر من النظافة والصحة والوعى ، والادمان غير معروف تقريبا ٠**

وأعلن الوفد أنه يحبذ اجراء تجربة فى ليدز على أساس خطة أوين ، وأوصى بتطبيق نظامه التعليمى فورا على أطفال بيوت العمل Work house ولم يستطع الوفد التوصية فورا بانشاء قرية على أساس خطة أوين لأن ذلك يتطلب تشريعا لكن الوفد كان بلا شك الى جانب المشروع ٠

وبينما تجرى هذه الأحداث حاول أوين عرض خططه على الأمة بطريقة أخرى ، فقد شغر مكان أحد الأعضاء الممثلين لمنطقة لانارك فى البرلمان فرشح أوين نفسه ، حدث ذلك عام ١٨١٩ فى ظل القوانين البرلمانية

---

(١) هذا التقرير مطبوع فى السيرة الذاتية لأوين مجلد ١ A ملحق Q

(٢) السيرة الذاتية مجد ١ A ملحق R.

القديمة قبل تعديلها ، وكان عدد الناخبين قليل ويتوقع كثير منهم أن يدفـــع المرشحون رشوة لهم ، وهذا ما فعله خصم أوين ومع ذلك كان الفرق بينهمـا ٤ أصوات فقط ، ورشح أوين نفسه فى الانتخابات العامة فى السنة الثالثة لكنه هزم مرة أخرى ، ولم يكن أوين مهيأ فى الواقع لعضوية البرلمان ولـو دخله لكان كالسمكة خارج الماء ، فلم يكن ليتلاءم مع الجو البرلمانى أو يهتم بمعظم المداولات ، فهزيمته فى الحقيقة حادث سعيد فى الواقع ويبدو أنـه أدرك ذلك بعض الادراك عندئذ لانه لم يدخل الانتخابات بالجدية اللازمـــة وقبل انتهاء الجولة الثانية كان قد شغل نفسه تماما بأمور أخرى من أهمها اعداد تقريره المشهور المعروف بأسم تقرير الى مقاطعة لانارك Report to the county of Lanark الذى احتوى بيانا اكثر نضجا عن مقترحاته المباشرة .

الفصل الثالث عشر

بدايات الأوينيـــة

THE BEGINNINGS OF OWENISM



يعد التقرير الى مقاطعة لانارك أحسن وأشمل عرض لمبـــادىء أوين الاجتماعية ، وفيه عبر أوين تعبيرا كاملا عما يجول بخاطره وعرض خطته بالتفصيل لا بوصفها مجرد وسيلة لاغاثة العاطلين بل كأساس لنظام اجتماعى آخر بديل ، والتقرير من حيث الشكل تقرير مقدم الى لجنة شكلتها مقاطعـة لانارك ، ولا شك أن المقاطعة لم تكن تفكر عندئذ سوى فى وســيلة لتفريج الضائقة ، لكن أوين ذهب الى أبعد من ذلك وتجاوز حدود مهمته فعـــرض بوضوح انجيله الاجتماعى الجديد ، **ومن المبادىء التى عرضت بوضـوح لأول مرة فى هذا التقرير نمت الحركة الأوينية لتصـبح حركة اشـــتراكية وتعاونية ، وتضمن التقرير بعض النواحى التى تعلن عن صفته الانتقاليـة لكنه فى جوهره علاقة على التحول من أوين المصلح الى أوين الرائد الأشتراكى ·**

ويبدأ التقرير بعبارة صريحة واضحة : « العمل اليدوى ان أحســن توجيهه هو مصدر الثروة كلها والرخاء القومى » ويقول أوين أن هذا العمل ينتج دائما فائضا يزيد على الاستهلاك اللازم لاعالة العمال والحفاظ عليهم فى حالة عظيمة من الراحة ، وستنطبق هذه الحقيقة دائما « فى جميع أنحاء العالم وفى ظل أى زيادة مفترضة فى السكان ولقرون عديدة مســتقبلة » ، **ولا تكمن المشكلة فى انتاج ما يكفى بل فى توزيع ما يمكن انتاجه فعـــلا · ولا يحد من نشاط الطبقات العاملة سوى الحاجة الى السوق المربحة وبها يصبح هذا النشاط نافعا » ، « ولا تتفتح أسواق العالم الا بسبب الأجور التى تحصل عليها الطبقات العاملة مقابل نشاطها وتتسع هذه الأسواق وتـزداد ربحيتها بنسبة ما اذا كانت هذه الطبقات تتقاضى أجورا عادلة أو قليلة مقابل عملها » ، « لكن النظم القائمة لا تسمح بمكافأة العامل على نشاطه وبالتالى تفشل جميع الأسواق » ·**

ويقول أوين بوضوح أن قلة العمالة تنشأ عن عيب ما فى طريقة توزيع « رأس المال الجديد المضاف » الذى انتجته الثورة الصناعية ، ويحـــاول تقريره توضيح أوجه العلاج اللازم ·

ويبدأ بمسألة العملة ، ثم مسألة الخلاف الحاد فيما يختص بقـانون بيل (١) لعام ١٨١٩ الذى بموجبه تعاد تدريجيا الدفعات النقدية التى أوقفت بعد وقت قليل من نشوب الحروب التى أعقبت الثورة الفرنسية ، وكان أوين ـ

---

(١) وبيل المعنى هنا هو سير روبرت بيل رجل الدولة البريطانى الذى أسهم فى وضع أساس حزب المحافظين ، عاش فيما بين (١٧٨٨ ـ ١٨٥٠) وتقلد مناصب وزارية عديدة ، ومنها وزارة الداخلية ورئاسة الوزراء فى أعوام ١٨٣٤/١٨٣٥ ·

مثل كوبيت — يكره النقود الورقية ويتفق معه أيضا فى اعتقاده بأن قانون بيل الذى يتسبب عن طريق ازالة التضخم فى زيادة قيمة جميع الثروات المتراكمة لاسيما عبء الفائدة على دين الحرب ، يؤدى بالضرورة الى خفض أجور العمال الحقيقية اكثر فاكثر (١) ٠

ويقترح اوين علاجا لذلك اساسا جديدا للقيمة والائتمان هو بداية الطريقة التى اتبعت فيما بعد فى مبادىء العمل العادل Equitable Labour Exchanges وكتب اوين يقول ان « المقياس الطبيعى للقيمة هو اساسا العمل البشرى أو مجموع القدرات اليدوية والعقلية معا التى يستخدمها الانسان فى العمل « ودعا اوين الى تطبيق هذا المبدأ عمليا » ، « وقد حسب متوسط القوة الجسمية للرجال كما يمكن حساب متوسط العمل البشرى ، ونظرا لأن هذا العمل يمثل جوهر الثروة فيمكن حساب قيمته فى كل منتج وتحديد قيمته الاستبدالية بالنسبة لكل القيم الأخرى ، على « أن تبقى تلك القيم ثابتة بغير تبديل لمدة معينة ، وبذلك يكون للعمل اليدوى قيمته الطبيعية الذاتية التى تزداد كلما تقدم العلم » ، وبذلك لا يصبح الطلب على العمل البشرى خاضعا للهوى ، ولا تعود الحياة البشرية سلعة تجارية متفاوتة دائما كما هى الآن ، ولا تصبح الطبقة العاملة مستعبدة لنظام أجور مصطنع اشد قسوة فى آثاره من أية عبودية مارسها اى مجتمع متبربر أو متحضر ، وهذا التغيير فى مقياس القيمة يؤدى مباشرة الى فتح اسواق محلية جيدة ومربحة حتى تشبع حاجات الجميع أشباعاً كافيا » (٢) ٠

ولأهمية هذا النص نورده كاملا باللغة الانجليزية :

"The natural standard of value," he wrote, "is in principle human labour, or the combined manual and mental powers of men called into action." He called for the practical application of this principle. "The average physical power of men has been calculated, and the average of human labour can be ascertained ; and, as it forms the essence of all wealth, its value in every article of produce may also be ascertained, and its exchangeable value with all other values fixed accordingly ; the whole to be permanent for a given period. Human labour would thus

---

(١) انظر كتاب حياة كوبيت ، ص ٢٧٨ وما بعدها ٠

(٢) لا حاجة بنا ان نذكر دارسى ماركس الى اى حد يدين ماركس لاوين ، لكن ماركس طبق تشخيص اوين على غرض اخر مختلف ٠

acquire its natural and intrinsic value, which would increase as science advanced. The demand for human labour would be no longer subjuct to caprice, nor would the support of human life be made, as at present, a perpetually varying article of commerce, and the working classes made the slaves of an artificial system of wages, more cruel in its effects than any slavery ever practised by society, either barbarous or civilised. This change in the standard of value would immediately open the most advantageous domestic markets until the wants of all were amply supplied."

ويطالب أوين بمعيار جديد للقيمة قائم على القوة المنتجة كوسيلة لضمان مستوى معيشة طيب للجميع ، « فما يمكنه خلق ثروة جديدة يساوى طبعا الثروة التى يخلقها ، ويجب أن ينال المنتج نسبة عادلة ومحددة من كل الثروة التى يخلقها « ويجب تبادل جميع السلع » « بالتكلفة الأولية » Prime Cost التى يدخل فيها أوين فيما يبدو الفائدة على رأى المال ، من خلال « وسيلة مناسبة تعبر عن قيمة العمل » ولن تقل قيمة عمل يوم محسوبا على هذا الأساس عما يساوى خمس شلنات من السلع ، ويفيد المعيار الجديد صاحب الأرض والرأسمال والعامل « عن طريق ازالة المخاطر الناشئة عن التقلبات التجارية والنظام الفاسد القائم على « الشراء بسعر رخيص والبيع بالسعر المرتفع » ٠

وكل ما تقدم عبارة عن مقدمة للعرض الجديد الذى يقدمه أوين لمشروع القرى التعاونية ، ويصر أوين على « أقامتها على أساس مبدأ العمل الموحد Unite Labor أى تجمع العمل والمصروفات والملكية مع المساواة فى الحقوق » ، ويرى أن الزراعة مضافا اليها الصناعة يمكن أن يوفرا العيش لعدد من السكان أكبر مما يعوله النظام الصناعى ، وفى رفاهية أكبر ، لكن ينبغى تطبيق العلم بالكامل على الزراعة والصناعة كليهما ، ويرى أن زراعة الفأس أى الزراعة الكثيفة مع استخدام العلم يمكن أن تنتج تقدما وتحسينا يفوق ما جلبته الآلة فى ميدان الصناعة ، وأن المحراث مع الزراعة الواسعة Extensive لا تبلغ انتاجية زراعة الفاس مع استخدام العلم ، ويهدف أوين الى تحطيم مساوىء تقسيم العمل وتطبيق ذلك فى القرى الجديدة فقد حلت الآلات محل العمل اليدوى الماهر فزالت الحاجة الى التخصص فى العمل « فالتقسيم الدقيق للعمل وتقسيم المصالح ما هى الا مصطلحات أخرى تدل على الفقر والجهل ، والاسراف فى كل نوع ، والمعارضة المتفشية فى المجتمع ، والجريمة ، والبؤس والسفه الجسدى والعقلى « ولذا يجب أن

يتلقى كل طفل تعليما شاملا وأن يعمل الكبار فى الزراعة والصناعة معا » وبدلا من سنان سن الدبوس وصانع رأس المسمار وغزال الخيط والفــلاح الساذج الذى ينظر الى الأرض حوله بلا فهم ولا تفكير سليم ، سوف تنشأ طبقة عاملة جمة النشاط على علم نافع وعادات سليمة ومعلومات واخــلاق وتصرفات تجعل ممن هو فى أدنى الدرجات فوق مستوى احسن الطبقـــات التى نشأت فى ظروف المجتمع الماضى أو الحاضر » ·

وسيكون التعليم طبعا أساس هذا النظام الجــديد « ويجب تدريب الأطفال فى المدارس الجديدة على تحصيل المعارف النافعة بوسيلة الرســوم والصور المبسطة التى من شأنها تعويد قــدرات تفكيرهم على اســتخلاص النتائج الصحيحة من الحقائق التى تعرض عليهم ، ولهذه الطريقة اســـاس راسخ فى طبيعة الانسان وهى تعتمد على مشاهد الطبيعة أيضا وسوف تحل محل الطريقة المعيبة والمتبعة حاليا وهى طريقة التعليم بالكتب التى لا تسر الأطفال ولا تربى أذهانهم ··· ولا يمكن حكم المجتمعات حكما صالحا الا بالتعليم السليم والمفهوم بطريقة سليمة » ·

ويبين أوين فى تقريره أيضـــا التنظيم الشكلى للمجتمعـــات التى يقترحها ، فيجب أن يجمع المشرفون بين المعلومات العملية عن الزراعة وعن الصناعة معا مع فهم شامل للمبادىء الجديدة واقبال على تنفيذها وتطبيقها ، وتتوقف طرق الحكم أو الادارة على من يقيمـــون الجمعيات المختلفـــة ، فالجمعيات التى يقيمها أصحاب الأراضى أو الرأسماليون تخضع للأشــخاص الذين يعينهم هؤلاء ، أما الجمعيات التى تقام بالعمل التعاونى فيمـــا بين الطبقات العاملة أو الطبقات المتوسطة فيجب أن تكون ذات حكم ذاتى كامل ، ويؤكد أوين مرة أخرى معارضته للحكومة النيابية والانتخابات ويقول أن الحكومة يجب أن يعهد بها لجميع الأفراد من مرحلة عمر معينة ويقوم هؤلاء بتقسيم مختلف المهـام فيما بينهـــم ، ويضمن هذا النظـــام تلافى عواقب الانتخابات وما ينتج عنها من انقسام واحتكاك · وأخيرا يقول أوين أن القرى التى يقترحها ستحل فور انشائها محل طرق المعيشة أو الانتاج الأخـــرى « فلن تكون هناك أية رغبة أو حافز للفرد كى يراكم الثروة » فيأخذ كل ما يكفى وسوف تنتهى الحروب والمحاكم والسجون ولن نحتاج الى عقاب أو عقوبات، وسوف يستقر العالم على طريقة جديدة من الحياة التعاونية الكاملة ·

ويبدو أن هذا التقرير فاجأ اللجنـة التى كتبت فى تقريرها تمـــدح نيولانارك وتعرب عن تحبيذها الشديد « للنواحى العملية » من مقترحـات أوين وتقول أن الحاجة تدعو الى « دراسة متأنية » قبل أن تتمكن من اعلان رأيها فى التقرير ككل ، لكنها كانت فى جانب التقرير الى حد معين وعقـد مجلس المقاطعة جلسة ليتلقى التقريرين وعرض على المجلس اقتراح بانشاء

قرية نموذجية « بـــدلا من برايدويل » Bridewell على أرض قدمها مستر هاملتون Hamilton من بلـدة دالزل Dalzell بايجار يحدده شـــخص محايد ، وكان المقترح أن يرسل المجرمون وغيرهم الى هذه القرية لاصلاحهم وطلب الى أوين أن يعمل مشرفا عليها ، لكنه عارض هذا التشويه العجيب لخطته ، وأهمل المشروع كله فيما يبدو عندئذ ولو أنه عاد الى الحياة على نحو ما فى ظروف مختلفة عام ١٨٢٦ فى منطقة أوربستون Orbiston ، لكن أوين كان حينئذ بعيدا ومشغولا فى تجربة كبرى من صنعه ٠

وانشغل أوين فى السنوات الأربع التالية بمنازعاته مع شركائه فى نيولانارك ، غير أنه اشتغل أيضا بالدعاية النشطة لمشروعاته ، وبذل عــام عام ١٨٢٢ آخر محاولة لتنفيذ خطته عمليا تحت رعاية ثرى ذى ميـــل للبر أنشأ فى لندن الجمعية الخيرية البريطانية والأجنبية التى أصدرت نداء لجمع ١٠٠٫٠٠٠ جنيه من أجل انشاء قرية تعاونية نموذجية وحصلت على وعود فعلية بدفع ٥٠٫٠٠٠ جنيه منها ١٠٫٠٠٠ جنيه من أوين نفسه ، وكان من المتصلين بهذه الجمعية ايرل يلسنجتون Earl of Blessington ، وبروهام Brougham وجوزيف هيوم Joseph Hume ، وســـير ويليام دى كرسبنى Sir William de Crespigny وهـــاملتون أوف دالزيـــل Hamilton of Dalzell ولورد تارنجتون Lord Torrington وغيرهم من الوجهاء ، وكان سكرتير الجمعية الروائى جون جالت John Galt (١) لكن لم يســفر الجهد عن شيء ويبدو أن اهتمام أوين تحول الى اتجاه آخر ، ففى أواخر عام ١٨٢٥ دعى لزيارة أيرلندا التى كانت تجتاحها حالة من البؤس الحـــاد وطلب منه شرح مشروعه فألقى محاضرات فى أنحاء البلاد كان لها وقـــع حسن فعقدت سلسلة اجتماعات كبيرة فى دبلن رأسها عمدة المدينة ، وأبدى رجال الدين الكاثوليك شيئا من الصداقة لكن رجال الدين البروتســـتانت عارضوا أوين بشدة ، وأخيرا ساعد أوين فى مايو ١٨٢٣ فى انشـــاء جمعية هيبرنيان الخيرية Hibernian Philanthropic Society بتأييد من لورد كلونكرى Lord Cloncurry وعدد من الوجهاء ، وفتحت الجمعية اكتتابا لكنها ما لبث أن انحلت بعد عودة أوين الى انجلترا ، لكن زيارته القصيرة آتت ثمرتها فيما بعد فى أقليم رالاهين Ralahine .

قلت عن « تقرير الى مقاطعة لانارك » أنه بداية الأوينية كنظام اجتماعى أو اشتراكى ، فرغم أنه قدمه الى مجموعة من أصحاب الأراضى والوجهاء فقد كان فى الحقيقـة أساس نـــدائه الى العمال ، ورأينا كيف عارضــــه الراديكاليون فى اجتماعات لندن عام ١٨١٧ ، وحضر هنت Hunt وهـــون Hone ، وكتب هون فى سجل المصلحين الذى أصدره **Reformists' Register** فصلا جعل عنوانه « دعنا وشأننا يا مستر أوين **Let us alone, mr. Owen** وجاء فيه « السيد روبرت أوين من غزالى القطـــن

(١) نشرت القصة فى جريدة روبرت اوين ، أعداد متنوعة ١٨٥١/١٨٥٢ ٠

ورجل بر وقاضى صلح بمقاطعة لانارك ، وبعد أن رأى العالم ونظـــر الى مصنعه جيد التنظيم فى المقاطعة المذكورة خيل اليه انه نظر « نظرة جديدة الى المجتمع » وظن أن جميع الكائنات البشرية نباتات أخرجت من الأرض لعدة آلاف من السنين وتحتاج الى أن يعاد زراعتها ثانية ، فقرر أن يغرسها فى مربعات بطريقة جديدة واعداد الترتيبات اللازمة لازالة أعقـابها ··· ولا أعرف سيدا فى انجلترا أكثر رضا عن نفسه من مستر روبرت أويـن ، وأعتقد أن كل انسان مقتنع بنوايا مستر أوين الخيرة وأنه يريد أن يصـنع لنا خيرا كثيرا ، وأرجوه أن يتركنا وشأننا لئلا يصنع لنا شرا كثيرا ··· « ويضيف فيما يتعلق بخطة أوين » مبدأ الخطة الأساسى : كل شىء مشترك وهو مبدأ يحول البلاد كلها الى بيت عمل » (١) Workhouse .

وكتب وليم كوبت – وكان عندئذ فى المنفى بأمريكا – فى جفاء أشـد « يبدو أن رجلا أسمه روبرت أوين من لانارك جاء أمام اللجنة بمشـروعه الذى لا يخرج عن كونه نوعا من الرهبانية Monkery ، ويحبذ هذا السـيد انشاء مجتمعات فقراء عديدة يقيم كل منها فى « سـياج » Enclosure يشبه نوعا من الثكنات لكنه أكثر منها تكلفة ، ولا أعلم بوضوح ما اذا كان الأخوة .Brotherhoods والأخوات Sisterhoods سيعيشون فى مجتمعات مثل الرهبان والراهبات أو سيختلطون بلا تمييز،لكن أظن أنهم جميعا سيكونون تحت نظام صارم ، والنتيجة أن يسود السلام والسعادة والنفع القـومى ! ولا أعلم بالضبط كيف يمكن تسوية المعارك التى تسفر عن هالات سـوداء حول العين أو نزيف فى الأنف ، ولم يتضح بجلاء ما اذا كان هؤلاء الرهبان بعد تثبيتهم سيعتبرون صفتهم كفقراء Paupers غير قابلة للمحو رغم أن هذه المسألة غاية فى الأهمية ، لكن مشروع مستر أوين يتصف على الأقـل بأنه جديد تماما ، لأن مثل هذا الشىء أى مجتمع الفقراء لم يسمع به انسان من قبل فيما أعتقد ··· ودعا يا مستر أوين أوف لانارك » (٢) ، أشـار كوبيت فى موضع آخـر الى « مربعات مسـتر أوين للفقراء » بكثير من السـخرية .

وكان أوين يشعر وقتئذ بألا صلة بينه وبين العمال ، فكتب يقول « فى هذه الفترة لم تكن لى علاقة عامة بالطبقات العاملة ·· وكان هؤلاء وقتئذ غرباء عنى ، لقد كنت طوال كل مراحل تقدمى ومن معرفتى المبكرة بهـم وتوظيفى لهم صديقا مخلصا ، بينما كان قادتهم الديمقراطيون المخطئـون يقولون لهم أنى عدوهم ، وأنى صديق لكل من فى السلطة وأريد أن أجعـل منهم عبيدا فى تلك القرى الراقية للوحدة والتعاون المتبادل » .

---

(١) سجل المصلحين ، ٢٣ أغسطس ١٨١[illegible]

(٢) حياة أوين ، ص ٢٢١ .

وتدل لهجة هذه الخواطر بجلاء على انفصال بين أوين والعمال الذين يشير اليهم بكلمة « هم » متميزة عن كلمة « أنا » التى يتكلم بها عن نفسه ، كما تدل على علاقته بالحركة العمالية فى وقت كان منغمسا فيها بالكامل ، ومع ذلك أخذ أوين منذ عام ١٨٢٠ وما بعده يجمع حــوله سريعا فئة من العمال التفوا حوله وأصبحوا مؤيديه وأتباعه ، **وأتجه بندائه مباشرة لأول مرة الى العمال فى « خطاب الى الطبقات العــاملة » عام ١٨١٩ لكن كان المقصود من هذا النداء اتنائهم عن العداء الطبقى نحو الأغنياء أكثر من أن يكون الغرض تشجيعهم على التحرك ، فأخذ يناشدهم ويؤكد لهم أن لا أحد بقصد حرمانهم ولم يثر فيهم أى شعور بالغضب تجاه الأثرياء ، فيقــول « قولوا لمن يملكون الآن الثروة والشرف والقوة والامتيازات والذين تعلموا أن يقدروا لكل ذلك قيمة عالية « امسكوا عليكم هذه فى أمان تام مادمتــم تستطيعون امساكها فى احترام ، وسيكون سلوكنا وتصرفنا كله عهدا لكــم باننا لن نحاول أن نسلبكم أى جزء منها ٠٠ وسيتوقف سبب التنافس بيننا من الآن فقد اكتشفنا أنه خلاف غير رشيد ولا فائدة منه ٠٠ فليس للأغنيــاء والفقراء والحاكمين والمحكومين فى الحقيقة سوى مصلحة واحدة ، فالأفكار والأعمال الشائعة الآن فى المجتمع مدمرة بالضرورة لسعادة كل الفئات ،وظن أوين فى تلك الفترة أن مناشدة الأغنياء بهذه الطريقة من شـأنها أن تزيل معارضتهم للارتفاع بشأن الفقراء ٠**

وليس مما يستغرب أن يعتبر الراديكاليون أوين مجرد مصلح آخــر لقانون الفقراء كغيره من الكثيرين الذين عرفوهم وأن كان أكثر منهم جنونا ، ورغم أن تقريره الى مقاطعة لانارك ومحاضراته أثناء السنوات القليلة التالية تضع مقترحاته تحت ضوء آخر مختلف ، الا أنها لم تؤثر على هون أو هنت أو كوبيت أو الجيل الأقدم من الراديكاليين الذين أفزعتهم آراؤه عن مشاعية السلع وتجميع العمل وتخصيصه للانتاج الكبير ، فهــذه آراء يعتبرونها ، بوصفهم من محبى انجلترا الريفية القديمة ، مدمرة للحرية ومجرد تنويعات على اللحن الشرير لنظام المصانع ٠ أما شباب العمال الذين تعودوا بحكم الظروف والضرورة ٠٠ فقد اعتبروا نظام الانتاج حقيقة لابد من قبولها فقــد انتشرت بينهم آراء أوين ، **واجتمعت جماعة صغيرة من العمال فى لنــــدن عام ١٨٢٠ لبحث المبادىء التعاونية الجديدة ، وكان زعيمهم جورج مودى** George Mudie **وهو عامل طباعة جاء من اسكتلندا مؤخرا ، وكان هناك** زعيم آخر هو هنرى هترنجتون **Henry Hetherington** الذى كثيرا ما يدخل السجن والعامل النشط فى حــركة الميثـاق **Chartist** وغــيرها من الحركات العمالية ، وأنشأ **هؤلاء فى السنة التالية الجمعية التعاونيــة** والاقتصادية ، وأنشأ مودى جــريدة اكونومست **Economist** أول جــريدة تعاونية على مبادىء أوين ، وقد أعلنت أنها « **مفسرة لنظام المجتمع الجـديد** الذى اقترحه السيد روبرت أوين « **وظلت تصدر ١٥ شــهرا وجمعت فى** مجلدين ٠

ولا أريد فى هذا الكتاب أن أحاول سرد قصة انتشار هذه الحـــركة بسرعة ولا الحركات العمالية المتصلة بها أثناء السنوات العشرة التالية ، ويقـول · ج · هولىأوك G.J. Holyooke من عام ١٨٢٠ الى عام ١٨٣٠ نظرت الطبقات المفكرة الى التعاون والمجتمعات communities كأنهـــا « دين (١) الصناعة » ، صارت المجتمعات وهى الشكل الذى ستتخذه « ديانة الصناعة » شائعة على الألسن فى الفـترة من ١٨٢٥ الى ١٨٣٠ شـــيوع شركات المساهمة الآن » (٢) **والحقيقة أن جمعيات كثيرة على مبادىء أوين** ظهرت فى أجزاء كثيرة فى البلاد ، وكانت لندن ميدانا لكثير من التجارب التعاونية ·

والواقع أن هذا العقد من السنوات كان أوان القـاء بـــذور جميع الحركات العمالية الهامة فنجـــد هودجسكين Hodgskin بعد أن أخرجـه بيركبك Birkbeck وبلاس Place من قيادة معهد الميكانيكيين Mechanics Institution الجديد فى لندن أخذ يلقى محاضراته فى « الاقتصـــاد السياسى الشعبى » ويكتب دفاعه عن العمال Labour Defended ويلاحظ أن هذا المعهد هو نفسه الذى حاضر فيه أوين عام ١٨٢٥ ، وأخذت الحركة الراديكالية فى السياسية تجمع قواها استعدادا للصراع فى الســـــنوات ٣٠ ـ ١٨٣٢ وتمهيدا لحركة الميثاق ، ونشر الاقتصـــادى تومســـون (٣) Thompson الذى كان من أنصار أوين كتابه بعنوان « مبادىء توزيع الثروة Principles of the Distribution of Wealth عام ١٨٨٢ ثم أصدر عام ١٨٢٧ كتاب « مكافأة العمل » « Labour Rewarded الذى ضمنه خططـــا عملية لتكوين المجتمعات التعاونية على مبادىء أوين ، وأخذ الشباب مـــن أمثال وليم لوفت William Lovett الذى صار فيما بعد سكرتير اتحـــاد العمال الميثاقيين بلندن ، يرتوون بمبادىء أوين ويبشرون بها كأساس للعمل العمالى ، ونشأت عام ١٨٢٦ الجمعية التعاونية بلندن التى عمل لوفيت أمين مخزنها ، ثم أنشىء فى العام التالى اتحاد صندوق المجتمع التعاونى بلنـدن كمحاولة لجمع رأسمال لاقامة قرية تعاونية فى مكان مجاور للندن ، وأنشئت أيضا اتحاد التبادل Union Exchange Society طليعـــة سوق تبـــادل العمـــل Labour Exchange التى انشأها أوين نفسه عام ١٨٣٢ ، وجمعية برايتون التعاونية ، وبدأ وليم كنج William King وزملاؤه فى جمعيـــة برايتون اصدار مجلة التعاونى The Cooperator عام ١٨٢٨ وكانت من أحسن

---

(١) Religion of industry ...

(٢) هولى أوك : « تاريخ التعاون » ، ص ٨١ ·

(٣) لمزيد من التفصيل يرجع الى كتاب دكتور وليم كنـــج : لدكتـور كمال حمـــدى ابو الخير ، مكتبة عين شمس ١٩٨٥ ·

الصحف المبكرة لحركة أوين وأكثرها معلومات ، وطبقا لأقوال جريدة التعاونى المذكورة كان عدد الجمعيات التعاونية عام ١٨٣٠ ثلاثمائة جمعية منتشرة فى أنحاء البلاد • وسنقول شيئا عن هذه الجمعيات فيما بعد ، ونكتفى هنا بتسجيل التطور السريع جدا للتعاون والأوينية كعقيدة للجيل الجديد من العمال ، اذ رغم أن هذه المنظمات ضمت عددا من الطبقة الوسطى الا أن العمال كانوا المسيطرون عليها •

وغاب أوين عن أنجلترا فى سنوات التقدم السريع بعد عام ١٨٢٤ ، وانقطع اتصاله تقريبا عن الحركات العمالية التى بدأها انصاره وتلاميذه ، فقد سافر فى ذلك العام الى أمريكا بعد أن عقد اتفاقا مع شركائه نزع من يده الاشراف عى نيولانارك ، وكان يأمل أن يغزو العالم الجديد بعد أن خذله العالم القديم ، وكان فى الولايات المتحدة عدد من « المجتمعات » التى انشئت على مبادىء دينية لكنها كانت تشبه من بعض الوجوه القرى التعاونية التى اقترحها ، وكان قد نشر عام ١٨١٨ كتيبا من تاليف احد الكويكر أسمه و • س • واردر W.S. Warder أحدى هذه القرى وهى (الجمعية الدينية لمن يسمون شاكرز Religions Society of the People Called Shakers ومن المجتمعات الدينية الأخرى مجتمع الرابيتين Rappites بقيادة جورج راب George Rapp وهو مهاجر من فرتمبرج Wartemberg اقام فى انديانا Indiana على نهر واباش Wabash وأطلق على مستوطنته اسم « هارمونى » Harmony • وأراد الرابيتيون عام ١٨٢٤ أن ينتقلوا الى موقع جديد وسمع أوين بأنهم يعرضون قريتهم وأراضيها للبيع بحالتها ، فسافر فورا الى أمريكا لمعاينتها وقرر سريعا أن يشترى العقار كله الذى سماه «نيو هارمونى» واتجه الى أن يجعله قاعدة لأول محاولة حقيقية لوضع نظرياته موضع التطبيق •

وسنتناول فى الفصل التالى مجتمع نيو هارمونى ونكتفى هنا بالقول بأن نيوهارمونى شغلت أوين تماما فى الفترة من ١٨٢٤ الى ١٨٢٩ فيما عدا عودته الى انجلترا فى زيارتين قصيرتين عامى ١٨٢٥ ، ١٨٢٧ ، وما خلا ذلك اقام فى أمريكا يلقى المحاضرات أو يعنى بشئون مجتمعه الجديد ، وقطع عام ١٨٢٥ علاقة أدارته بنيولانارك ، واستقر أبناؤه فى نيوهارمونى واكتسبوا الجنسية الأمريكية ، وظلت زوجته تقيم فى براكسفيلد حتى ١٨٢٨ عندما باع أوين أخيرا حصته فى نيولانارك فاضطر وبناتها وبناته الى البحث عن بيت أصغر حجما بسبب الضيق المالى ، وماتت ابنة أوين آن فى أكتوبر ١٨٣٠ ثم ماتت زوجته فى الربيع التالى (١) •

---

(١) ماتت مارى أصغر بنات أوين عام ١٨٣٢ ثم انضمت ابنته جين التى بقيت من بناته الى أشقائها فى نيو هارمونى •

ومن الصعوبة بمكان معرفة العلاقة بين أوين وزوجته أثناء السنوات الأخيرة من حياتهما الزوجية رغم بقاء بعض الخطابات ، فبينما واصل أوين خطبة الجماهيرية فى لندن أولا ثم فى رحلاته بانحاء البلاد ظلت زوجته مقيمة بمنزلهما فى نيولانارك ولم تصحب بناتها فى رحلتهن الى أوروبا عام ١٨١٨ ، وابتداء من عام ١٨١٣ وما تلاه كان أوين يغيب عن المنزل أوقاتا كثيرة وفى المدة من ١٨٢٤ الى ١٨٣٠ لم يذهب الى سكوتلندا الا فى زيارات عابرة وقصيرة جدا وحتى بعد عودته الى انجلترا عام ١٨٢٩ قضى وقتـــه كله تقريبا فى لندن أو فى أنحاء انجلترا يلقى المحاضرات ولم تشاهده زوجته وبناته مطلقا ، وكان يتراسل وزوجته بانتظام وواضح من مراسلاتهما أن لا خصام بينهما بل ولا برودة بينهما ، لكن تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن أوين لم يحس بالحاجة الى صحبة زوجته ، وكان يكتب اليها يصف ما يعملــه مع الجماهير ويعلق على الأعمال والرجال ، واتسمت كتابته بالود لكــن يبدو أنه اعتمد على هذا الود كثيرا وبشكل زائد ، أما رسائلها اليه ففيهـا كلام عن مختلف المسائل الصغيرة التى تشغلها فى حياتها وتركز بشكل خاص على سوء صحة ابنتهما آن ، وكثيرا ما كتبت له عن حاجتها اليه وحثتــه على المجىء اليها « يا زوجى العزيز كم أحس بالحـــاجة اليك لتنصحنى فى هذا الوقت القلق (١) ٠٠٠ وأملى أن تتذكر الخميس القادم اليـــوم الذى أصبحنا فيه واحدا منذ ثلاثين عاما وأظن أننا نحب كل منا الآخر باخلاص حسبما أشعر فى نفسى ونفهم بعضا أكثر مما كنا منذ ثلاثين عاما ، ورغبتى الخالصة الا يحدث أى شىء يقلل هذا الود » ٠

كانت كارولين أوين تحب زوجها لكن كانت تشعر باهماله لهـا ، لم تتدخل بالطبع فى آرائه ولا أفكاره الدينية التى هزتها كثيرا ، ولابد أنهـا حزنت كثيرا لأن أبناءها وواحدة على الأقل من بناتها ــ جين ــ قد اتبعوا عقيدة والدهم ، وربما أدى الخلاف فى الرأى الى التباعد بين الزوجين ، **لكنى أرى أن التفسير الحقيقى غير ذلك ، فمنذ أن ألقى أوين بنفسه فى خضم الدفاع عن خططه أمام الجمهور لم يصبح فى ذهنه مكان لأى شىء آخر وسماه هازليت** Hazlitt **« رجل وحيد الفكـــرة » ووافق أوين على الفكرة مبررا ما تعنيه (٢) ، لكن الأمر هنـــا أكثر من ذلك ، فأعتقـــد أن أوين كاحـــد الشخصيات فى قصة للروائى هنرى جيمس توقف عن أن له أية « حيـــاة خاصة » بعد أن أصبح شخصية عامة ، فعاش فى فكره ومن أجل فكرته ، وفيما عداها لا وجود له فى الحقيقة ، فأصبح انسانيا** Humanitarian **وفقد نفسه كانسان ، وذهب « الرجل وحيد الفكرة » الى حد أنه أفسد فكرته بأن مد نطاقها كثيرا جدا بل أكثر مما ينبغى وحملها ثقلا كبيرا أكبر مما يجب،** وبهذا الامتداد أيضا سار فى طريقه نحو افساد الانسان فيه فأصبح مجرد

(١) الخطاب رقم ١ فى مجموعة الاتحاد التعاونى وهو مؤرخ فى ٢٣ أبريل ١٨٣٠ ٠

(٢) حياة أوين ، ص ١٠٥ ٠

مبدأ مجسم ونسى زوجته ، لكنه لم ينس ابدا حبا واحدا هو حب الخير للعالم أجمع والانسانية كلها فظل شديد الحب للأطفال كاطفال من البشر لا حب الطفولة المجردة فحسب ، واستمر على ذلك الى النهاية ، اما فيما عداه فأرى أنه صار فى سنواته المتاخرة اقرب الى مبدأ يمشى ويتحرك منه لأن يكون رجلا وانسانا والى ذلك يرجع فشله واخطاؤه ، فقد حول الدنيا بمبدأ الخير العالمى الشامل الى عالم بارد وما كانت النزعة الروحية التى نزع اليها فى شيخوخته الا محاولة متاخرة سعيا وراء الصلات الانسانية الحميمة الدافئة التى ضحى بها من اجل فكرته عن « القضية » ، وكان بوسعه أن يصبح رائدا افضل وانسانا افضل لو عرف كيف يفعل الأشياء مناصفة ، لكن « الرجل وحيد الفكرة » لن يستطيع ذلك ابدا ٠



الفصل الرابع عشر

نيو هـــارمونى

NEW HARMONY



من بين المجتمعات والقرى التعاونية الكثيرة التى انشئت فى حيـــاة أوين لم يتصل اتصـــالا مبـــاشرا سوى بقريتين فقط همـــا نيو هارمونى New Harmony وكوينوود Queenwood وانشا قرية اربستون Orbiston فى اسكتلندا فريق من أتباعه أثناء غيبته فى أمريكا وافتتحت قرية مالاهين Ralahine فى كورك Cork عام ١٨٣١ بينمـــا انشغل فى انجلترا بتمهيد السبيل للحركات العمالية العظيمة التى قامت فى الســـنوات التالية ، ولم يتدخل أبدا فى هذه التجارب ولا فى غيرها من التجارب الكثيرة والأقـــل أهمية ، ولم يكن له بها شأن شخصيا وان كان القائمون بهـــا قد تأثروا به بالطبع ، واتصل أوين اتصالا وثيقا وشخصيا بالقريتين المشار اليهما وقام بدور شخصى فى انشائهما ، لكنه كان أوثق اتصالا بنيو هارمونى الذى كان منشؤها الوحيد والمشرف الرئيسى عليها لمدة طويلة ٠

ورأينا أن أوين اشترى نيو هارمونى عام ١٨٢٥ من الرابيتيين ــ وهم طائفة دينية من الألمان الريفيين الذين عاشوا فيها حياة معتدلة لكنها فيمـــا يبدو رغدة نسبيا ودفع فى العقار كله بحالته من الأراضى والقرية والأدوات التى تركها الرابيتيين ولم يأخذوها معهم حين انتقلوا الى مقر آخر ، مبـــلغ ٣٠ر٠٠٠ جنيه ، وكانت هارمونى ــ وهو أسمها الأصلى عندئذ ــ ضيعـــة مساحتها نحو ٣٠ر٠٠٠ أكر فى مقاطعة بوزى Posey Country بولاية انديانا Indiana على ضاف نهر واباش Wabash الذى يجرى الى أوهايو Ohio وكانت تربتها جيدة ومراعيها ممتازة وبها أراضى للبساتين ، وكانت القرية جيدة البناء وتشمل الى جانب الأكواخ والمنازل عدة مشروعات صناعية من ضمنها مصنع حديد ومصنع صوف ، وظلت القرية لوقت ما كمركز ســـوق محلية للسكان المتفرقين المقيمين بالمنطقة المحيطة بها ٠

أما لماذا اختار أوين الولايات المتحدة ميدانا لأول تجاربه فلا شك أن الاختيار كان وليد الصدفة لحد ما ، فقد عرضت مستعمرة الرابيت للبيع ، ورأى أوين ميزات واضحة ليبدأ مشروعه فى مكان أعد وخطط وطور لأغراض مشروع يشبه المشروع الذى ينوى أوين القيام به ، وهناك أسباب أخرى أيضا فلا شك أن العالم الجديد له سحر خاص ، كما أن أوين رأى أنه أقل تأثـــرا بالعداء الطبقى والرأسمالية ومن ثمة أقرب الى النظام الاجتماعى الطبيعى ، وأقل انغماسا فى عوامل الفرقة وسوء الظن ، وأبعد عن المصالح الراسخة لأنه جديد والمصالح المستقرة فيه قليلة وأضعف نوعا ، وبالتالى فالعقبات أقل عددا والمنازعات أخفض صوتا ، وتمتد المساحات فى العالم الجـــديد مما يجعل الناس هناك يتنفسون هواء أكثر نقاء ، وتقل التقاليد مما يجعـــل فى الامكان البدء فى شىء جديد بطريقة جديدة ، وكان الناس فى تلك الأيام يذهبون الى أمريكا هروبا من الرأسمالية ٠

ومن ناحية أخرى كانت أمريكا ميدانا لكثير من تجارب بناء المجتمعات الجديدة ، ولم تكن مستعمرة الرابيت المستوطنة الوحيدة ذات الحكم الذاتى على أساس المشاعية ، بل انتشرت فى أمريكا مجتمعات دينيةعديدة أخـــرى

على النظام ذاته منها مجتمع الشاكرز Shakers الذى نشر أوين عنه تقريرا كتبه شخص من الكويكرز زار المستوطنة ، وفيما عدا قرى المزارعين المشاعية لم يكن هناك شىء جديد بالنسبة للانجليز فيما يتعلق بالمستعمرات الجماعية فى الولايات المتحدة ، وقد قاد موريس بيركبك وآخرون جماعات مهاجرين استقرت معا فى مجتمعات ، وزرع أفرادها الأرض على أساس فردى لكن قامت بينهم علاقات وثيقة واتحدوا بروابط المساعدة المتبادلة والعلاقات الاجتماعية وكان كوبيت قد استقر فى مزرعته فى لونج أيلند Long Island هاربا من « قوانين القمح » التى أصدرها سيد ماوث Sidmouth وكتب من هناك قبل ذلك بسنوات ينصح المهاجرين من بريطانيا العظمى بأن يأتوا فرادى ليستقروا ضمن الأمريكان بدلا من انشاء مجتمعات قومية خاصة بهم (١) ٠ ويدل هجومه على هذا الاتجاه أنه كان شائعا عندئذ ٠

ولم يكن أوين أول من راودته أحلام انشاء مجتمع مثالى كدرس يقدم للعالم فى الجو الديمقراطى الحر بالولايات الامريكية ، ففى صبيحة الثورة الفرنسية خطط كولردج Coleridge وسوذى Southey وورد زورث Wordsworth لانشاء بانتيسوكراسى Pantisocracy على ضفاف سسكويهانا Susquehanah ، وقد تحولت أذهانهم بالطبع من انجلترا المملوءة بالخرافات الى الأراضى الجديدة غير المتطورة حيث كل شىء ممكن ، وشعر أوين بشعور مماثل ، وليدع لندن ترفضه أو على الأقل تتحدث وتعيد الحديث عن خططه دون محاولة حقيقية لتطبيقها ، فلندن بل كل بريطانيا غارقة فى الرأسمالية مما لا يسمح لطرق العيش الجديدة أن تنتشر فى هذا الجو المعادى ، والبيئة سيدة الانسان ، وفى العالم الجديد يستطيع أوين خلق البيئة المناسبة لخطته ٠

ولابد أن دوافع مثل هذه حركت أوين عندما اشترى هارمونى من من الرابيتيين ، بل أن بعض أقواله تسفر عن ذلك بجلاء ، فبدأ أوين عمله فى أمريكا بجولة محاضرات ، وفى أولاها التى القاها بقاعة مجلس النواب بواشنطن بحضور رئيس الولايات المتحدة وكثير من القادة السياسيين والشخصيات العامة أورد أوين تصريحا واضحا عن أسباب اختياره أمريكا ميدانا لدعوته وتجربته ، وكان أوين معروفا فى الولايات المتحدة وقامت جمعية لنشر المجتمعات على أساس مبادئه بدأت أعمالها عام ١٨٢١ أو ١٨٢٢ فى نيويورك ، وعرفه أيضا كل من زار نيولانارك أو سمع عنها بوصفه من أعظم رجال الصناعة البريطانيين ومن اكبر رجال الخير والبر ، وهكذا سبقته سمعته الحسنة الى أمريكا ، أما خلافه مع الكنيسة ومؤيديها فلم يعرف هناك الى مدى بعيد بل لم يحسب عليه أبدا كما كان الحال فى بريطانيا ٠

---

(١) كوبيت ــ سنة من الاقامة فى أمريكا ٠

وافتتح أوين حملته فى أمريكا « بأحاديث عن نظام جديد للمجتمع Discourses on a new system of society بـدأ فيهـا بالقـاء نظرة على الماضى فقدم تاريخا لحياته العملية وقصة نجاحه كرجل صناعة وعمله الاجتماعى فى نيولانارك ورسالته كرسول « لنظام اجتماعى جديد » ، ولم تتضمن هذه « الأحاديث » شيئا جديدا من الوجهة النظـرية بل كانت عرضا موجزا للخطوط المعروفة لفلسفته الخاصة ومقترحاته يتلوه بيـان عن الخطوط العامة لخططه ودوافعه لاختيار أمريكا مسرحا لأولا تجـربة عظيمة له ، وقال : « حصلتم على الحرية السياسية بالكفاح الشاق لكن مازال عليكم أن تحصلوا على الحرية العقلية الحقيقية وما لم تملكوها تصـبح حريتكم السياسية غير ثابتة الأركان وأقل فى قيمتها كثيرا (١) ، وشـجب « النظام التجارى كله » ، لأنه « نظام خادع » وأعلن أنه ينوى البدء بنظـام مجتمع جديد فى نيوهارمونى « على مسئوليتى الخاصة أو مع شركاء لهم نفس المبادىء والمشاعر التى لدى أو بشركات مساهمة بموجب قانون تسجيل من حكومة ولايتى انديانا والينوى « وهكذا دعا للتعاون معه معربا عن ثقته المعتادة فى النجاح الفورى لخطته ، ومضيفا فى سذاجة أنه « يرغب فى نشر المعلومات عن التغيير الذى على وشك أن يبدأ فى أنحاء الولايات المتحـدة وبسرعة حتى لا يضيع من رأس المـال الا أقل القليل فى الاسـتثمار فى مشروعات سـتصبح بتطبيق النظام الجديد فى جمـيع الولايـات بلا قيمـة تذكـر » (٢) ، وأخـيرا دعـا أوين « ذوى النشـاط والنية الحسنة من جميع الأمم « ليأتوا الى نيوهارمونى ويؤدون دورهم فى اقامة نظام جديد للمجتمع ٠

والقى أوين محاضرات أخرى بعد هذه المحاضرات فى مدن أخـرى ، **وما أن افتتحت نيوهـارمونى تحت اشراف ابنه وليام ، حتى أتى اليهـا المستوطنون الجدد أفواجا ، فوصل ثمانمائة فى الأسابيع القليلة الأولى قبل انتهاء الترتيبات اللازمة لاستقبالهم وتشغيلهم بانتظام ، ولم يوضع أى نظام لاختيار القادمين بل جاء كل من شعر فى نفسه برغبة فى المجىء متوقعـا أن يجد كل شىء معدا لاستقباله ، وكتب وليام أوين لأبيه يناشده أن يوقـف هذا التيار المتدفق من المستوطنين الذين جاءوا كما اتفق بلا اختيار حقيقى وأن يركز على اختيار فئات من الصناع المهرة الذين تدعو الحاجة الماسـة اليهم (٣) ، ونشأت صعوبات كبرى من جراء عدم كفاية الأماكن السـكنية وصعوبات أكبر فى الحصول على مواد البناء مع ندرة شديدة فى الأيـدى العاملة المدربة ، ووصل هذا الخطاب الى أوين حين كان فى انجلترا زائرا فى أواخر صيف ١٨٢٥ ، أما من الناحية الاجتماعية والتعليمية فكان التقـدم أفضل من ذلك لأن المدارس كانت فى حالة جيدة بينما كان كل شىء آخر فى ارتباك وبـدأ النشـاط الموسيقى والترفيهى والرياضى سريعا على النمط**

---

(١) الحديث الأول ، ص ١١ ٠

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤ ٠

(٣) أورد بودمور جزءا كبيرا من الخطاب ، ص ٢٩٥ ٠

المتبع فى نيولانارك ، لكن المسالة الاقتصادية استعصت على الحل فى هذه البقعة من برارى انديانا حيث لابد من صنع كل شىء تقريبا محليا ولا يمكن جلب شىء من الخارج الا بمشقة عظيمة ، ومن المدهش ان المجتمع لم يتهاوى تحت ضغط هذه الشهور الأولى ، بل استعيد النظام تدريجيا وعندما عاد أوين فى أوائل عام ١٨٢٦ كانت الأمور تسير بهدوء وبنجاح واضح ٠

وقرر أوين بادىء الأمر أن تظل نيوهارمونى تحت اشرافه الشخصى خلال السنوات الثلاث الأولى دون أن يشترك المستوطنون فى حكمها ديمقراطيا ودون تطبيق مبادىء المجتمع كاملة ، لكنه حين عاد سر مما شاهده وأعجب بحماس المستوطنين فرجع عن رأيه الأول وأنشئت لجنة لوضع دستور فتم ذلك فى شكل خطة مجتمع قائم على المساواة الكاملة بين جميع المستوطنين ، وقسمت القرية الى ستة ادارات : الزراعة ، والصناعة ، والآلات والعلوم والتعليم ، والاقتصاد المنزلى ، والاقتصاد العام ، والتجارة وتختار كل ادارة رئيسا يختار بدوره اربعة مشرفين وهؤلاء يشكلون مجلس الحكم فى نيو هارمونى ، وتمت الموافقة على الدستور بحماس شديد ، واتجه اوين لوقف كل نشاطه وقدراته العملية كمدير الى جعل القرية كلها – فى الظاهر على الأقل – مجتمعا راضيا ومنظما (١) ٠

لكن بذور الشقاق بذرت ، فقد أحضر أوين معه من أوروبا عددا من اتباعه ذوى النفوذ والوزن منهم وليم ماكلور William Maclure من آير Ayre الذى استثمر رأسمال كبير فى المشروع واهتم معظم هؤلاء الأصدقاء الأوروبيون بالمدارس اساسا لكن ما لبثت الخلافات النظرية أن ظهرت ، فرفض أحدهم ويسمى كابتن ماكدونالد Captain Macdonald الموافقة على الدستور بحجة انه ينص على الانتخابات وحكومة نيابية وهى مبادىء هادمة لروح المجتمع المتمثل فى الحرية والمساواة ، ولم يمض وقت طويل حتى أسفرت المعارضة للنظام القائم على الانتخاب مع الصعوبات العملية التى صادفها تطبيقه عن انشقاق حاسم لكنه ودى ، وتشكلت مجموعتان من المستوطنين فى موضعين من الضيعة ، ومجتمعات منفصلة لا يحكمها قادة منتخبين بل مجلس من جميع الأعضاء الذين فى حدود سن معينة ، من هذه المجتمعات ماكلوريا Macluria وزعيمها وليم ماكلور ، وكان يحكمها خمسة من أكبر أعضائها سنا ممن هم تحت الخامسة والستين ، والحقيقة أن هذه الطريقة كانت تقوم على المبدأ الذى حبذه أوين نفسه فى

---

(١) يوجد الدليل على ذلك فى نيوهارمونى جازيت وهى جريدة المجتمع وفى الخطابات الخاصة للمستوطنين مثل خطاب من و ٠ بلهام أورده بودمور ، ص ٣٠٢ ، انظر أيضا ر ٠ د ٠ أوين ٠

كتاباته (١) ، وادت الخلافات الدينية الى انقسام المجتمع الى كيانات اصغر وبالتالى قامت مجتمعات فرعية أخرى ، لكن ما لبثت ماكلوريا ان اتحدت مرة أخرى مع الكيان الأم ٠

وابتداء من هذه النقطة اصبح تاريخ نيوهارمونى عبارة عن سلسلة متصلة من التغيرات الدستورية وتجارب فى الانقسام ثم العودة للاتحاد ، واخذت تنزلق من النظام الجماعى الى النظام الفردى ، واعيد تنظيم القرية عام ١٨٢٧ فى عدد من الجمعيات المنفصلة القائمة على المهنة ، وهو نوع من التنظيم المهنى الطائفى Guild ، وفشلت كل محاولات اعادة البناء والتنظيم لأن المستوطنين لم يستطيعوا الاتفاق معا ، وكانت الخلافات الاجتماعية والعنصرية واسعة بحيث لم يستطع رابها الايمان بالمجتمع الجديد ، هذا الى أن بعض المستوطنين افتقدوا هذا الايمان ، ويستطيع من يهمه الأمر ان يتابع تاريخ نيوهارمونى بالتفصيل فى كتاب بودمور عن حياة اوين أو فى اى كتاب من الكتب التى تصف مختلف تجارب المجتمعات الجديدة فى الولايات المتحدة (٢) ، وكان الفشل لا مناص عنه منذ البداية ، ففى مجتمع صغير من المثاليين لكل منهم نظرياته الخاصة ويحاول كل منهم بالضرورة ان يضع النظرية موضع التطبيق فورا فى ميدان الحياة كله ، وفى ظروف من الظروف الاستثنائية ، كل ذلك يوفر اقصى مدى من فرص المشاحنة والانقسام ولابد هنا أن تنهار نيوهارمونى بل المدهش حقيقة ان تظل باقية كل هذا الوقت وان يرى الزائرون والمقيمون فيها الروح العالية التى سادت هناك حتى وسط الانقسام والفوضى التى ساقتها الى نهايتها ٠

وفى عام ١٨٢٧ أعيد تنظيم المجتمع على اساس المهنة ، وذهب اوين لزيارة انجلترا مرة اخرى ثم عاد عام ١٨٢٨ ولدى عودته راى من الظروف السائدة ما جعله يقر بفشله « حاولت هنا طريقا جديدا هيأ لى أملا فى ان تكون خمسون سنة من الحرية السياسية قد ساهمت فى اعداد سكان أمريكا ٠٠٠ وقدمت الأرض والمنازل ورأس المال ٠٠ **لكن اثبتت التجربة أن المحاولة سابقة لأوانها ولا تستطيع ان توحد بين عدد من الغرباء لم يتلقوا تثقيفا مسبقا لهذا الغرض وتقنعهم بالعمل معا لمصلحتهم المشتركة والعيش معا كاسرة واحدة ، ثم حاولت قبل رحيلى الأخير ما يمكن عمله بواسطة اولئك الذين اجتمعوا بدافع اختيارهم الشخصى وفى اعداد صغيرة ، وقد قدمت لهم بالايجار قطعا كبيرة من الأرض الجيدة لعشرة آلاف سنة بايجار اسمى ولأسباب معنوية فحسب ٠٠ والآن وجدت لدى عودتى ان عادات**

---

(١) فى تقريره الى مقاطعة لانارك مثلا ٠

(٢) أو فى نيو هارمونى جازيت الجريدة التى كانت تنشرها المستوطنة ، هذا اذا اراد القارىء دراسة المصادر الاصلية ٠

النظام الفردى من القوة بحيث أن هذه الايجارات ـ فيما عدا استثناءات قليلة ـ استخدمت لأغراض فردية ومكاسب فردية ولذا يجب أن تعود لى « أى أن النتيجة التى وصل اليها أوين هى أن الناس لا يمكنهم العيش فى مجتمع جماعى دون اعداد وتدريب معنوى سابق ، ولذا قرر » وضع الترتيبات فى ضيعة هارمونى بما يكفل لمن يريدون ممارسة النظام الاشتراكى أن يعيشوا فى أسر منفصلة طبقا للنظام الفردى ، لكنهم يوحدون عملهم العام أو يبادلون العمل بالعمل بأحسن الشروط المفيدة للجميع ، أو يفعلوا الأمرين معا أو لا يفعلون أيا منهما حسبما يرون وما تقضى به مصالحهم ومشاعرهم » (١) ، وبعبارة أخرى فقد قرر تصفية المشروع لكنه واصل تأجير الأرض لمن يرغب أن يسير على خط جماعى قليلا أو كثيرا ، أو بيعها نهائيا لمن يريد الشراء ، وهكذا بيعت مساحات كبيرة من الأرض ، لكن ظلت مساحة كبيرة مملوكة لأوين وحول ملكيتها فيما بعد الى أبنائه الأربعة الذين بقوا كلهم فى نيوهارمونى بعد فشل المشروع واكتسبوا الجنسية الامريكية ، وبعد تصفية المشروع وانهاء خلاف نشأ مع ماكلور الذى ساهم فى تمويل المشروع وقد سوى الخلاف بالتحكيم لصالح أوين ، اتضح أن أوين قد خسر ما مجموعه ٤٠ر٠٠٠ جنيه تقريبا أى خمس مجموع ثروته كلها من جراء تجربة نيوهارمونى ٠

ويتضح من لهجة تعليق أوين على فشل نيوهارمونى أنه لم يفقد الثقة فى خطته لحل المشكلة الاجتماعية ، والحق أنه فور عودته الى انجلترا انغمس فى مغامرة جديدة أعجب من شراء نيوهارمونى وأكثر منها تطرفا ، وكان قد وقر فى ذهنه أن العالم الجديد أنسب لتحقيق خططه من العالم القديم الغارق فى الأخطاء المتأصلة التى يريد ازالتها ، وأنه وان فشل فى الولايات المتحدة فقد ينجح فى جمهورية المكسيك حيث تعرض حكومتها مساحات كبيرة من الأراضى غير المستصلحة على المستثمرين أو مجموعات المستوطنين ، فأتصل بالوزير المكسيكى فى لندن الذى كان يعرفه لكن الوزير أثناه عن عزمه بأدب ، لكن لا فائدة من ارجاع أوين عن عزمه فاتصل بحكومة المكسيك وعرض مشروعه وأعد أوراقه وسافر الى المكسيك ، وتوقف أثناء الطريق فى جاميكا وقارن بين حالة العبيد هناك وكانت رضية وسعيدة نسبيا وبين حالة عمال المصانع فى انجلترا : « ما يسمى بالعبد فى جزر الهند الغربية أكثر رخاءا وسعادة بكثير من الصانع أو العامل المياوم الانجليزى أو الأيرلندى » (٢) وحث أوين أنصار الغاء الرقيق على ألا يتدخلوا فى افساد هذه الظروف الطيبة نسبيا ، فمعظم السادة يعاملون رقيقهم معاملة طيبة فهم يعرفون أن ذلك من مصلحتهم (٣) ٠

---

(١) نيو هارمونى جازيت ، المجلد الثالث ، ص ٢٠٤ (أورده بودمور بصفحة ٢٢٢) ٠

(٢) التعاونى البريطانى ١٨٣٠ ، ص ٩٣ ٠

(٣) كان كوبيت من نفس الرأى ويعارض الغاء الرقيق ، انظر كتاب حياة كوبيت ، ص ٢٥٧ ، ويعرب كابتن ماريات Marayat عن نفس الرأى فى « نيوتون فورستر "Newton Forster" .

ووجد أوين المكسيك فى حالة ثورة ، لكن ذلك لم يؤثر على مشروعاته وحاول أن يكسب سانتا آنا Santa Anna القائد العسكرى الى صف وجهة نظره ، واعتقد فى سنواته الأخيرة أنه نجح فى ذلك ، بل أنه حصل من حكومة المكسيك عن وعد مشروط بالحصول على قطعة أرض كبيرة فى تكساس Texas لمباشرة تجربته وكانت تكساس وقتئذ من الأراضى المكسيكية · وكان الشرط الذى يتوقف عليه تنفيذ ذلك الوعد هو أن يوافق الكونجرس المكسيكى على قانون باباحة حرية العبادة الدينية ، لكن مشروع القانون رفض ، وهكذا صار الوعد هباء ، وبعد أن جادل أوين سانتا آنا وجنرالاته طويلا فى آرائه الجديدة غادر المكسيك الى الولايات المتحدة حيث كان مقررا أن يعقد مناظرة حول آرائه الدينية فى سنسناتى Cincinnati مع القسيس اليونفرسالى Universalist minister الكسندر كامبل Alexander Campbell ونقله الادميرال فلمنج Admiral Fleming القائد البحرى البريطانى فى الهند الغربية وصديقه الشخصى ، من المكسيك الى نيو أورليانز New Orleans على بارجة بريطانية ·

واستمرت المناظرة بين أوين وكامبل من ١٣ الى ٢١ أبريل ١٨٢٩ ، وعرض أوين نظامه الجديد و « قوانينه الأساسية الاثنا عشرة » وكشف عن الأخطاء الكامنة فى كل النظم الدينية ، وتكلم كامبل عن أدلة صدق الديانة المسيحية وضمن حديثه بعض السباب فى الأوينية ، والحقيقة أن المناظرة كانت عبارة عن محاضرات القاها كل واحد منهما عن آرائه ، ولم يرد أحد منهما على حجج الآخر ولم يدخل الا نادرا فى خضم النزاع والخلاف بينهما أو الى الأرض المشتركة بينهما ، لكن استمع الآلاف الى هذا التيار من الكلمات المتدفق بلا انقطاع والذى طبع فى تقرير بلغ عدد صفحاته ٥٥٠ صفحة تقريبا · (١) ·

وكانت مسز ترولوب Mrs. Trollope والدة أنتونى ترولوب Anthony Trollope الروائى المعروف من بين حضور هذه المناقشات المدهشة ، وقد دهشت من الاستقبال الحسن الذى قوبل به أوين عندما غامر بالتشكيك فى أصول العقيدة المسيحية ، وترى أن شخصية أوين هى الباعث على ذلك : **« لم يمارس احد مطلقا الحديث بفاعلية قوية ولباقة مثل مستر أوين ، فنبرة صوته الوديعة وطريقته الهادئة المداعبة أحيانا لكنها غير ساخرة بالمرة ، وغياب كل حدة وعنف او اى عبارة جارحة ، والاهتمام الودود الذى يبديه بالأسرة الانسانية كلها ، وجو الأخلاص الذى يعرب به عن رغبته فى اقناعه بخطئه ان كان حقا مخطئا وابتسامته الحانية وتعبير عينيه الهادىء وبالاختصار كل تصرفاته تنزع سلاح الحدة وتؤدى الى درجة من السماحة التى يصعب ان يصدق امكان حدوثها من لم يسمعه شخصيا » (٢) ، ونال الاقتراح الذى**

(١) مناظرة حول أدلة المسيحية بين روبرت أوين والكسندر كامبل ·

(٢) مستر ترولوب ــ العادات المحلية الامريكية ·

عرضه مستر كامبل على المجتمعين بصورة مخادعة بان أوين لا يؤمن مطلقا بالدين المسيحى ثلاث أصوات فقط ولم يقدم أوين اية مقترحات لكنه أعرب عن « سروره العميق من مناورة مستر كامبل لانى اكتشفت انها تريحه وتريح أصدقائه ، ولا يحتاج الحق الى مثل هذه المساندة » (١) .

وذهب أوين من سنستانى الى واشنطون حيث زار مرة أخرى الرئيس اندرو جاكسون Andrew Jackson رئيس الولايات المتحـــدة ، وعـرض خدماته كوسيط فى المنازعات بينها وبين بريطانيا العظمى ، ثم عـــاد الى انجلترا يحمل خطابات الى الوزير الأمريكى بلندن وقابل وزير الخارجيـــة البريطانية لورد أبردين Lord Aberdeen وكانت النتيجة كما يقول ازالـــة الصعوبات بين بريطانيا العظمى والولايات المتحـدة وتسوية الخـــلافات وديا (٢) .

(١) المناظرة ، ص ٤٤٦ .

(٢) لندن انفستجيتور London Investigator المجلد الثالث ، ص ٢٤٧ .

الفصل الخامس عشر

مبادلات العمل واتحاد طائفة البنائين

THE LABOUR EXCHANGE AND THE BUILDER'S GUILD



كانت الفترة التى غابها أوين فى أمريكا فترة نشاط مكثف للطبقة العاملة البريطانية كما رأينا ، غير أن نمو الأوينية والتعاون خلال تلك الفترة كان محصورا فى دوائر ضيقة نسبيا ولم يكد يمتد الى مناطق المصانع الكبرى فى شمال انجلترا ، وانغمست أغلبية الطبقة العاملة فى الكفاح من أجل الاصلاح السياسى وقامت بدور كبيرا فى تنشيط القدرات التنظيمية وفى حفز الناس الى التفكير فى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، **لكنها أثناء ذلك لم تبعث الى الوجود أى حركة واسعة عمالية صرفة ، واذا كان رجال الصناعة والطبقات الوسطى الى جانب الطبقات العاملة كلهم راغبون فى الاصلاح البرلمانى فقد انحصرت قيادة حركة الاصلاح كلها تقريبا فى أيدى رجال من رجال الصناعة والطبقة الوسطى فيما عدا قلة من الشخصيات البارزة مثل كوبيت ، ذلك انه رغم تحالف العمال والطبقة الوسطى فى الكفاح من أجل غرض مشترك فلا مناص من أن تتقدم الجماعات الأفضل تعليما والأحسن ظروفا لتأخذ فى يدها القيادة بسبب مؤهلاتها تلك التى تمنحها حرية الحركة ٠**

ومع ذلك كان العمل من أجل الاصلاح حافزا قويا الى سرعة نمو وتطور منظمات مستقلة للطبقات العاملة ، وحين نظم الاصلاحيون العمال فى مناطق الصناعة الكبرى من أجل أغراض سياسية استفاد العمال من هذا التنظيم ويقظة الوعى فى انشاء نقابات لهم اكثر استقرارا وفى تكوين جمعيات عمالية اخرى ، وجاء الغاء قوانين عام ١٨٢٤ المعروفة بأسم Combination acts ايذانا للعمال بتنظيم انفسهم علنا من اجل أغراض صناعية ، ورغم أن قانون النقابات الذى صدر فى نفس العام تحت ظروف خاصة الغى فى العام التالى وحل محله قانون آخر أقل حرية الا أن تحريم انشاء النقابات المفروض بالقوانين السابقة صار من الماضى البعيد وسمح للنقابات بالقيام على اسس أكثر استقرارا عن ذى قبل ، وتشهد الاضرابات التى انفجرت عقب قانون عام ١٨٢٤ بوجود قدر كبير من القلق بين العمال ، كما انها كانت تمهيدا للصحوة الكبرى فى عقد السنوات التالى٠

بل ان الحركات التى قادها الراديكاليون من الطبقة الوسطى أسهمت كثيرا فى تطور ونمو الوعى بين العمال ، وبدأت حركة انشاء المعاهد الصناعية Mechanics Institutes فى جلاسجو تحت رعاية عمالية بحتة لكن ما لبث الراديكاليون ان استخلصوا لأنفسهم الأشراف على معهد لندن الصناعى المقترح من أيدى القائمين به فى الأصل وأقاموه فى عام ١٨٢٣ كمعهد علمى بحت تحت رعاية الاصلاحيين المتعلمين من الطبقة الوسطى ، وأخذ

الدكتور بيركبك Dr. Birkbeck وبروهام Brougham زمام القيادة فى هذا الشأن ولم تمض سنوات قليلة حتى انشئت معاهد صناعية فى كل مدينة هامة تقريبا ، ورغم أن هذه المؤسسات لم تكن سياسية وقاوم مؤسسوها وراعوها كل تسرب للمبادىء التقدمية اليها مقاومة عنيفة الا انها ساعدت كثيرا على بعث نشاط الطبقة العاملة وايقاظها ، فلا يمكن أن يذهب الناس معا ويجتمعون على دراسة فنية تتناول تقدم الآلات وتطبيق العلم فى الصناعة دون أن تتجه اذهانهم الى المشكلات الصناعية والسياسية للطبقة العاملة .

ولن يجد دارسو الحركات الراديكالية فى سنوات الحملة الاصلاحية صعوبة فى تتبع ظهور وتطور وجهة نظر خاصة متميزة للطبقة العاملة تطورا سريعا ونمو اتجاه نحو التخلص من حماية انصار بنثام وبروهام وغيرهم من جماعات الطبقة المتوسطة ، وسيراها بوضوح فى الخلاف حول السيطرة على المعاهد الصناعية التى انتصر فيها بروهام وبيركبك بمساعدة فرانسيس بلاس على ج . ج . روبرتسون J.G. Robertson وتوماس هودجسكين Thomas Hodgskin برغم مساندة كوبيت لهما على صفحات السجل السياسى Political Register ، وسيجدها فى نشوء ونمو هيئات سياسية عمالية مثل جمعية الاصلاح الراديكالى Society for Radical Reform التى تكونت عام ١٨٢٩ ، والاتحاد القومى للطبقات العاملة الذى انشىء عن تلك الجمعية بعد ذلك بعامين وكان أكبر منها نفوذا وعنه تولدت مباشرة حركة الميثاق (١) Chartist Movement وسيكتشفها فى كتابات رجال مثل توماس هودجسكين الذى نادى بأن العمل أصل كل الثروات وأن العامل يحق له الحصول على كامل انتاج نشاطه ، وسيجدها اخيرا ، وليس آخرا ، فى نمو الجمعيات التعاونية والجمعيات الأخرى التى شجع على قيامها روبرت أوين بتعاليمه ومبادئه .

ورغم أن الأوينية كنظرية تهدف الى اتحاد جميع « الطبقات النشطة » Industrious Classes لا الى أى عمل طبقى عمالى مقصور على الطبقة العاملة وحدها ، فان الأوينية التى تقدمت سريعا فى العشرينيات كانت ذات طابع آخر مختلف ، فلم يكن كل الذين انشأوا جمعيات تعاونية للتجارة أو للدعاية والذين أصدروا دوريات على مبادىء أوين من العمال اليدويين ، لكن معظمهم كانوا من الطبقة العاملة كما جاءت القوة الدافعة للحركة من تلك الطبقة ، واذا كان مبدأ اوين الخاص بالمجتمعات الجماعية قد نشأ فى الأصل لكى تتولاه الدولة أو الأغنياء محبى الخير فان رفض هذه الجهات

(١) الدارسون للتاريخ البريطانى يعلمون أن حركة الميثاقيين حركة عمالية نشأت فى خلال القرن التاسع عشر تستهدف اجراء اصلاحات سياسية ومن بين مطالبها حق العمال فى التصويت فى الانتخابات البرلمانية ، والغاء امتيازات الملكية الممنوحة لاعضاء مجلس النواب البريطانى .. الخ .

لتنفيذه جعل المتنفعين منه يفكرون فى الأمر ، وتساءلوا « لماذا لا نقوم بـه لأنفسنا ، ونعوض بأعدادنا وتضامننا نقص الثروة والنفوذ ؟ » وتحول مبدأ الاشتراكية من أعلى الى الاشتراكية من أسفل على أن تتحقق ببدايات صغيرة وبالتعاون الطوعى من جانب الفقراء ٠

وكانت البدايات صغيرة فعلا ، بل صغيرة جدا بحيث لا تجتذب انتبـاه عالم الأعمال الكبرى ، وامتلأت الصحف بالحديث عن الاثارة الاصلاحيـة ونمو النقابات فلم تجد فراغا لملاحظة النمو الهادىء المتواضع للتنظيـم التعاونى ، ولا شك أن العمال لم يسمعوا قط عن الأوينية أو التعاون قبـل عام ١٨٣٠ ، بل ان الفكرة ظلت جديدة بالنسبة لكثير من النقابات حتى عام ١٨٣٢ غير أن النمو مع ذلك كان ملحوظا لأنه سار موازيا لنمو وعى عمالى متمين والانشقاق بين الطبقة العاملة والمتوسطة ، وظل الاصلاحيون العماليـون يمهدون الطريق باستمرار لنشر الأوينية ، وكان أعضاء حزب الأحـرار Whigs المناصرون للاصلاح البرلمانى لا ينوون ابدا منح حق الانتخاب للعمال واليدويين بينما الراديكاليون من الطبقة الوسطى وان ناصروا نظريا منح حق الانتخاب كانوا على استعداد للدخول فى تسوية تضع السلطة فى يد الطبقـة الوسطى واتضح كلما اقترب الاصلاح أن هدفه الوحيد ازالة الارستقراطية مالكة الأرض عن عرشها وتحويل سلطتها الى لوردات الراسمالية الصناعية الصاعدة ورغم ذلك أيد معظم قادة الطبقة العاملة قانون الاصلاح لأنهم رأوا فيـه خطوة ضرورية نحو التحرر المنشود ، بيد أنه اتضح أن الاصلاح ما هـو سوى بداية لكفاح آخر طويل وأنه لابد للعمال من منظمة منفصلة تعبر عـن سياستهم ورغباتهم ٠

ويقال كثيرا أن الحركة الكبرى التى تلت قانون الاصلاح واسـتمرت للسنوات العشرين بعده فى مراحلها المختلفة المتتابعة من الأوينية والميثاقية Chartism كانت نتيجة لوعى العمال بنتائج الاصلاح الذى تم بمجهوداتهم فى المقام الاول ، وهذا قول لا يصدق على اطلاقه لأن القوى التى صنعت النقابة المتضامنة القوميـة الكبرى Grand national Consolidated Trade Union والحركة الميثاقية كانت تكتسب قوة واتجاها سريعا بينما كان الصـراع الاصلاحى فى أوجه لكنها لم تستطع أن تجد تعبيرا عنها فى حركة شـعبية من العمل المستقل غير أن كافة العناصر كانت موجودة وجاهزة قبل سـنوات من حدوث الانفجار ٠

وعاد أوين الى انجلترا بعد انهيار تجربته فى نيوهارمونى ليجد الوعى العمالى فى أحرج أوقات تطوره ، وكانت السنتان الأخيرتان من الاثـارة الاصلاحية هما السنتان اللتان بدأت فيهما القوى الجـديدة تحكم يدها على جماهير عمال المصانع والحرفيين والصناع ، ووضعته الظروف ــ وليست

ارادته – على رأس الحركة الصاعدة النامية ، واصبح قائدها لأن آرائه كانت الوحيدة المتكاملة كتعبير عن شعور منتشر ، ووجد فيه رد الفعل ضد التسوية السياسية ولصالح الطبقة العاملة ومن أجل المساعدة الذاتية والعمل الاقتصادى المباشر الرجل الذى يبدو معبرا عن أمانيها فى نظام اجتماعى جديد ٠

وأصبحت السنوات التى تلت عودة أوين الى انجلترا عام ١٨٢٩ أحفل السنوات بالعمل وأكثرها تأثيرا مباشرا فى حياته ، وترك أوين نيولانارك نهائيا عام ١٨٢٨ واستقرت أسرته فى منزل صغير فى هاملتون ، وخسر أكبر جزء من ممتلكاته فى نيوهارمونى ، وتوقف عن الاتصالات الكثيرة بالوزراء والأساقفة وأعضاء الطبقة الحاكمة أو أصحاب الأعمال الذين اعتبروه مجنونا وخطرا ، ولم يشعر أوين بأى رغبة فى القيام بدور فى حركة الاصلاح لأنه فقد الثقة فى الاجراءات السياسية البحته وكل أشكال الحكم البرلمانى ولو أن حركة الاصلاح كانت عندئذ فى أوجها وقمتها تشغل المقام الأول فى فكر الأغلبية النشطة من جميع الطبقات ، ولا نكاد نجد فى كل نشاطه الذى لم يخمد من ١٨٢٩ الى ١٨٣٢ اشارة الى حركة الاصلاح ولا حتى الى أحداث بارزة مثل اضطرابات برستول Bristol أو طرد عمال نوتنجهام كاسل Nottingham Castle لكن لا يدل ذلك أبدا على أنه كان يقوم بدور ضئيل ٠

وعندما عاد أوين من أمريكا كانت الأوينية قد أصبحت انجيل الأشتراكية والتعاون بالنسبة للطبقة العاملة ، وتأثر شباب القادة النقابيين والعماليين كثيرا بالجمعيات التعاونية الرائدة الأولى والصحف التعاونية التى أشرنا اليها فى فصل سابق وبكتابات الاشتراكيين الاوينيين مثل وليم تومسون ، وابتداء من عام ١٨٢٨ على الخصوص وما تلاه لا سيما بتأثير وليم كنج William King وجريدة التعاونى Cooperator الصادرة فى برايتون Brighton تكاثرت الجمعيات التعاونية من كل شكل ونوع بسرعة عجيبة ، وقام كثير منها على النقابات وبشكل غير منفصل عنها ٠

وحين نتحدث اليوم عن جمعية تعاونية يذهب تفكيرنا اساسا الى دكان أو مخزن مقام على مبدأ التبادلية لبيع البقالة والسلع المنزلية بالتجزئة ، لكن هناك انواعا أخرى من « التعاونيات » منها عدد من جمعيات المنتجين الذين انضموا معا لصناعة الأحذية او الأقمشة أو غيرها من السلع على أساس الحكم الذاتى الديمقراطى ٠ لكن هذه لا تؤدى الا دورا صغيرا فى الحركة ككل ، اما « التعاونية » المثالية فهى جمعية المستهلكين للبيع بالتجزئة (١) ، لكن خلف هذا النشاط التجارى الفعلى يكمن ايمان واضح

---

(١) جمعيات البيع بالجملة واقسامها الانتاجية هى جمعيات استهلاكية تقوم على اتحاد جمعيات التجزئة المحلية ٠

بنظام اجتماعي جديد قائم على الانتاج من اجل الاستعمال بدلا من اجـــل الربح ، وهذا الأساس الاجتماعي للتعاون هو العامل الحيوى والأساسى المتين للنجاح التجارى الذى تلقاه هذه الجمعيات وسر جاذبيتها للعمال لكن البيع التعاوني بالتجزئة مازال العمل الأساسى الذى يضفى على الحركة صفتها المميزة وبنائها وصورتها ٠

ولم يكن التعاون قد استقر فى الزمن الذى نتحدث عنه فى مشـــكلة الحديث المعروف أو اكتسب بنيانه التقليدى ، وكان هدف مؤسسى الجمعيات التعاونية المبكرة الأولى يتركز فى وضع مبـادىء اوين موضــــع التطبيق العملى ، ونصت جمعيات كثيرة فى لوائحها بوضوح على أن غرضـــــها انشاء او المشاركة فى انشاء مجتمع تعاوني أو قرية تعـاونية على نمـط اوين ، وعندما تمارس هذه الجمعيات تجارة التجزئة وهذا ما فعله معظمها فيما عدا جمعيات النقابات فانما تصنع ذلك لغرض تحويل أرباح الوسطاء الى مال عام مشترك يستخدم فى اقامة مجتمع جماعى ، ولذا كانت تتعامل مع اعضائها فقط ، وتوخت الجمعيات أن تمارس نشاطا تعليميا ودعائيـــا الى جانب النشاط التجارى ، بقصد ايجاد المجتمع الجديد وهو الهدف الأصلى من تجميع جهودها ٠

واختلفت التعاونيات المنبثقة عن النقابات اختلافا ما عن ذلك ، فعندما يجتمع عدد من الحرفيين لانشاء جمعية تعاونية فهم يقصدون فى المقام الأول بيع سلعهم لا بين بعضهم البعض بل للجمهور الخارجي ، أى أن الهـــدف الأساسى الذى ترمى اليه جمعيات المنتجين يتوافق مع غرض المنظمــــات الأوينية الأخرى وهو انشاء نظام جديد على اساس مجتمع جماعى ، لكـن نشاتها المختلفة وعضويتها المختلفة جعلتها تتطور بطريقة أخرى مختلفة ، فاصبحت تشترك مباشرة فى كفاح العمال اليومى من اجل تحسين الأجـور وظروف العمل وحق انشاء النقابات ، وطبيعى أن يجمع الأعضاء بين صفتهم كتعاونيين وصفتهم كنقابيين وان يحاولوا أن يتوسلوا بالأوينية كسلاح فى هذا الكفاح ، وليس فى امكان جمعيات المستهلكين ان تامل فى انشاء مجتمع جماعى الا بعد ان يتراكم لديها مال من التجارة التعاونية ، اما التعاونيون النقابيون ففى وسعهم البدء فورا فى نطاق حرفتهم ليطبقوا المبادىء الجديدة عمليا خاصة عندما يوجد الحافز القوى كان ينشا نزاع بينهم وبين اصحاب العمل يؤدى الى اضراب من ناحية العمال أو اغلاق المصنع من ناحيـــة اصحاب العمل ، فيلجا العمال الى الاستغناء عن صاحب العمل بانشـــاء جمعية تعاونية لانتاج السلع ٠

وكانت الجمعيات التعاونية التى قامت حتى وقت عودة أوين من امريكا من النوع المختلط انشأها جماعات من المخلصين للمبدأ وفتحوا مخـــازن تعاونية لغرض مراكمة المال اللازم لانشاء مجتمعات جماعية وفى غضـــون

ذلك يمارسون نشاطهم التثقيفى والدعائى ، ولم تبدأ النقابات جديا فى تبنى الأفكار الجديدة الا حوالى عام ١٨٣٠ فانشأت تعاونيات « منتجين » ، ولم تستجمع الحركة قوة دافعة حقيقية الا حين امتدت الى النقابات فصارت أكثر من مجرد عقيدة يعتنقها فريق صغير من المتحمسين ٠

واتجه انتباه أوين سريعا الى انتشار آرائه ونموها فى الأشكال الجديدة التى اكتسبتها فى سنوات غيابه ، وكتب وليم لوفيت William Lovett فى سيرته الذاتية يقول : « عندما عاد مستر أوين لأول مرة من أمريكا نظر بفتور الى « جمعيات التجارة » Trading Associations هذه ، وأعلن مخلصا أن مجرد ممارستها للبيع والشراء لا يمت بصلة الى نظامه التعاونى العظيم ، لكن عندما وجد أن عددا كبيرا منها على استعداد لتبنى الكثير من آرائه نظر اليها نظرة تقدير ثم شارك أخيرا مشاركة فعالة معها » (١) ، ويبدو أن هذا التغيير فى الموقف تطور جنبا الى جنب مع التغيير فى طبيعة الجمعيات التعاونية ذاتها ، وأمدت التعاونيات الانتاجية أوين بالدافع والتفاؤل والأمل مما لم يجد مثله فى « الجمعيات التجارية » ، ورأى فيها امكان تغيير اساس المجتمع بسرعة من الرأسمالية الى التعاون ، وبدأ يراوده الحلم الذى أصبح حقيقة بعد سنوات قلائل ، وتجسد فى الاتحاد القومى الكبير لطائفة البنائيين Grand National Guild of Builders والنقابة المتحدة القومية الكبرى Grand National Consolidates trades Union

وواضح أن جمعيات المنتجين أصعب فى اقامتها كثيرا من الجمعيات التجارية التى ليس عليها سوى أن تشترى بالجملة كمية من السلع ثم تبيعها بالتجزئة الى أعضائها ، أما جمعيات المنتجين فيجب عليها أن تبحث عن سوق من خارجها ، ونشأت فى تطورها الباكر فكرة انشاء بورصة مركزية أو سوق مركزى ترسل اليه كل جمعية بمنتجاتها وتشترى منه كل جمعية ما تريدمبادلته بسلعها المودعة فيه ، وفعلا قامت الجمعيةالبريطانية لنشر المعارف التعاونية British association for promoting Cooperative knowledge فى ربيع ١٨٣٠ بفتح سوق تبادل فى لندن ، وكانت الجمعية قد انشئت لتكون جهازا مركزيا للحركة التعاونية ٠

ولكن بينما كان التعاونيون الجدد يطورون العمل على هذا الأساس كانت الخطط القديمة ما تزال تسير ، وفى مايو ١٨٣١ عقد المؤتمر التعاونى الأول فى مانشستر وقرر اتخاذ الخطوات اللازمة لانشاء مجتمع للتعاون التبادلى Community of Cooperation وترمى الفكرة الى أن تدفع الجمعيات التعاونية (وعددها مائتا جمعية) اشتراكا قدره ٣٠ جنيها لكل عضو وترسل

(١) لوفيت ـ السيرة الذاتية ، ص ٤٣ ٠

عضوا من أعضائها ليكون مواطنا فى أول مجتمع ، ولم يقبل أوين بالخطة لأنه رأى الموارد المرصودة لها غير كافية ، وفى المؤتمر الثانى المنعقد ببرمنجهام فى أكتوبر ١٨٣١ أضيف اسمه الى اللجنة لكنه انسحب ، وأعلن المؤتمر الثالث الذى عقد بلندن فى مايو ١٨٣٣ فشـــل المشروع اذ لم تدفع الجمعيـــات الاشتراكات المطلوبة ما عدا جمعية واحدة دفعت ٦ جنيهات على الحساب ووعدت أخرى بالدفع ذلك لأن التعاونيات الوليدة فى تلك الأيام كانت فى حاجة الى كل الموارد التى يمكنها جمعها من أجل تطورها الداخلى ودعايتها المحلية ، وكان لابد أن تتراجع فكرة انشاء مجتمع تعاونى الى الخلف وأن يتركز الاهتمام أكثر فأكثر على جانب الحركة الذى كان يحقق أكبر تقـــدم عملى ، وفى أوائل عام ١٨٣٢ قام من يسمى وليم كنج ، ولا صلة بينه وبين دكتور كنج زعيم التعاونيين فى برايتون وأحد من يرجع اليهم أساسا النمـــو السريع للحركة ، بتأسيس بورصةالعمل الثانية فى جوثيك هول Gothic Hall فى نيورود New Road ، وجـــاء مشروع أوين نفســـه أكثر طموحا من المشروعين السابقين ، ففى سبتمبر ١٨٣٢ بدأت البورصة القومية للعمـــل العادل National Equitable Labour Exchange عملها فى مقر كبير فى جريز ان رود Grays Inn Road ٠

وقد رأينا عندما تناولنا تقرير أوين الى مقاطعة لانارك أنه قدم نظريته عن أن العمل هو المقياس الحقيقى لقيمة السلع واعتنق هذه النظرية منـــذ ١٨٢٠ بل أنه حث على تطبيقها عمليا فى المعاملات التجـــارية ، **فاذا أمكن حساب متوسط قوة الرجل أو الحصان الجسدية فمن الممكن اذن قيـــاس متوسط قوة العمل البشرى واتخاذها طريقة صحيحة لتقييم السلع مما يجعل « كل المساومات الفردية غير ضرورية ، وذلك بحساب كمية متوسط قـــوة العمل الداخلة فى كل سلعة تعرض للبيع ، وها هو أوين يحاول الآن تطبيق هذا المبدأ عمليا من خلال بورصة العمل ، وكانت العملة الجديدة « صكوك العمل » Labour Notes التى اصـــدرها من البورصـــة هى التعبير عن مقياس القيمة الجديدة ٠**

وكثيرا ما اسىء فهم « صكوك العمل » التى اصدرها اوين ، فلم يكن يرى تقييم كل السلع على اساس عدد الساعات التى انقضت فى انتاجهـــا فحسب بل لم يقيمها فى التطبيق على هذا الأساس ، فهو يقيم المواد بالنقود على أساس سعر السوق الجارى ، ويعترف بانواع مختلفة من العمل ويجعل لها قيمة مختلفة ، ويقبل كاساس للتفرقة المعدلات النقدية الواقعية للأجـــور التى تدفع لفئات العمال المتنوعة ويحسب سعر السلعة بجمع القيمة النقدية للمواد ، والأجور الجارية للساعات التى تنفق فى العمل ، وبنس واحد لكل

---

(١) كانت المؤتمرات تعقد كل نصف سنة ٠

شلن لتكاليف البورصة ، ثم يقسم المجموع بالبنس على ٦ر٦ ويؤخذ الناتج على أنه متوسط ثمن ساعة العمل ، وتكون نتيجة ذلك عدد ساعات « وقت العمل » Labour times الداخلة فى السلعة ، اى أن المواد ٦ شلنات ، وست ساعات من العمل الماهر بواقع شلن واحد فى الساعة = ٦ شلنات ، وعمولة بواقع ١ بنس لكل ١ شلن = ١ شلن ، فالمجموع ١٣ شلن بواقع ٦ بنس للساعة = ٢٦ ساعة من وقت العمل ٠

ولا تتحقق أية خسارة أو مكسب بهذه الترجمة أو اعادة ترجمة الجنيهات والشلنات والبنسات الى وقت عمل لو كانت السلع تساوى حقيقة المبالغ المطلوبة لها ، لكن بعضها كان يساوى اكثر وبعضها يساوى اقل ، ويبدو أنه لم يكن هناك ترتيبات كافية للتقييم على أساس ما سماه ماركس فيما بعد « وقت العمل اللازم اجتماعيا » Socially necessary labour-time فقد يستغرق رجل ١٢ ساعة لصنع ما يصنعه اخر فى ٦ ساعات ، وبينما يسهل بالنسبة لبعض السلع تحديد وقت سماح موحد فليس من سبيل بالنسبة لسلع أخرى الا قبول ما يقدره الصانع نفسه ، وهكذا سعرت بعض السلع بسعر مفرط فى الارتفاع وبعضها بسعر مفرط فى الانخفاض ، وعندما افتتحت البورصة اشترى الناس ما هو رخيص وتركوا ما هو مرتفع الثمن راكدا لدى القائمين بأمر البورصة ، ونظرا لأن البورصة ليس من سياستها تحقيق ربح فلم تستطيع احتمال الخسارة ، ولم تظهر هذه المثالب الا بعد وقت ظهرت فيه البورصة بمظهر النجاح الساحق ، فجاءتها السلع بكميات كبيرة من افراد يناصرون الأوينية ومن النقابيين ومن بعض الجمعيات التعاونية الانتاجية للترزية وصناع الأحذية والنجارين وخلافهم ، وراجت المبيعات أيضا كل الرواج ، لأن من أودعوا السلع اشتروا أيضا سلعا صنعها عمال ذوى حرف اخرى كما اقبل الجمهور العام على الشراء كذلك ، وفى ديسمبر ١٨٣٢ افتتح فرع لجنوب لندن بروتندا Rotunda فى بلاكفريارز رود Blackfriars Road وكان عندئذ مكان اجتماع مفضل لجميع فصائل الحركة العمالية ، وتلا هذه الفروع فرع آخر فى ليفربول ثم فروع أخرى وبورصات مستقلة فى اماكن اخرى ، لكن البورصة الرئيسية طردت من مكانها فى جريز رود لخلاف مع المالك الذى طالب بايجار مرتفع ثم طرد البورصة وبدأ فى مكانها بمشروع له منافس لها ، ووجدت بورصة أوين هذه مقرا جديدا فى شارع شارلوت Charlotte Street بميدان فيتزروى Fitzroy Square الذى ظل فترة طويلة مركزا لنشاط أنصار أوين فى لندن ٠

وطالما لقيت « صكوك العمل » التى اصدرها اوين سخرية وتسفيها ، لكنها فى ظروف ذلك الزمان لم تكن خيالية كما تبدو الآن ، لأن البنوك الخاصة حينئذ درجت على أن تصدر صكوكا خاصة أى أوراق نقد لكل منها يجرى تداولها فى منطقة معينة فقط ، بل أن نقص النقود لا سيما أثناء الحروب

النابليونية جعل أصحاب الأعمال أيضا يصدرون عملات خاصة بهم يدفعون بها أجور العمال ، وامتازت صكوك أوين بأنها تقوم على معيار قيمى جديد لكنها لم تكن غريبة ولا مثيرة لدهشة أحد فى تلك الأيام ، بل لدينا دليل على أن « صكوك العمل » لقيت قبولا واسع النطاق فى لندن لا من جانب مؤيدى النظام الجديد فحسب بل من جانب الحرفيين والتجار العاديين أيضا ٠

وفى يوليو ١٨٣٣ دخلت بورصة شارع شارلوت تحت ادارة جديدة فانتقلت من يد أوين الى جمعية الحرف المتحدة United Trades Association وهى عبارة عن اتحاد من عدد كبير من النقابات فى لندن ، وكانت كل نقابة من هذه النقابات التى تضم نجارين ونقاشين وصناع زجاج وترزية وصناع أحذية ونحاسين وصناع قبعات وغيرهم ، وقد كونت صندوقا من رسوم أسبوعية لتهيئة عمل منتج لأعضائها المتعطلين ، وهكذا كانت النقابة جمعية تعاونية أدخلت الانتاج كأحد انشطتها العادية ٠

رأينا أن بورصة العمل انتعشت لمدة من الزمن ، وفى ١٨٣٣ أنشىء فرع لها فى برمنجهام كان فى الحقيقة مشروعا منفصلا ، وظل هذا الفرع أيضا ناجحا فترة من الزمن ، لكن الحركة فى كلا المشروعين تناقصت من أواسط ١٨٣٤ ، واضطر فرع برمنجهام الى تصفية نفسه ودفع ديونه بالكامل وأرسل فائضا قليلا زاد عن سداد الديون الى مستشفى محلى ، لكن بورصة لندن لم يكن لها هذا الحظ فى نهايتها وخسر أوين كل المبلغ الكبير الذى قدمه لتطويرها ، وقد وضح انها تلاقى صعوبات حتى قبل أزمة النقابات الكبرى عام ١٨٣٤ التى سنتناولها فيما بعد ، ويحتمل أن هذه الأزمة هى التى أنهت حياة حركة بورصة العمل مبكرا بل أنها هدمت كثيرا من التجارب التعاونية الأوينية والمنظمات النقابية الجديدة ٠

وفى عام ١٨٣٢ بعد عصر من الاثارة السياسية لم يعهد من قبل صدر قانون الاصلاح وعقدت أول انتخابات برلمانية فى ظل الاصلاح البرلمانى ، ووجد العمال أنفسهم بلا حق فى التصويت لموقف الحكومة الى جانب الطبقة المتوسطة الصاعدة ، فاكتسبت الجماعات العمالية التى عارضت التحالف مع الراديكاليين من الطبقة الوسطى وارادت المطالبة ببرلمانات سنوية وحق التصويت العام Universal Suffrage قوة عظيمة ونفوذا كبيرا ، الأمر الذى نتج عنه دفع الملك واللوردات الى قبول الاصلاح ، وعبرت الجماعات العمالية عن نفسها بانشاء جمعيات عمالية بحتة تطالب ببرنامج اكثر راديكالية ، ووصل الاتحاد القومى للطبقات العاملة الى ذروة نشاطه وتأثيره ٠

واتجهت الطبقة العاملة بعد أن حبطت آمالها فى المجال السياسى وحق الانتخاب الى التفكير فى التنظيم الصناعى ، ووضح أن البرلمان بعد اصلاحه لن يفعل شيئا مضادا للرأسماليين لأنه يمثل وجهة نظرهم فى الأغلب الأعم ، وظهر فى المجال الاقتصادى بوضوح أن على العمال أن يقوموا بالعمل لأنفسهم

بأنفسهم متخذين النقابات اداتهم الرئيسية ، ومن هنا كانت حمى انشـــاء النقابات العمالية ٠

ولكن نفهم هذه الحركة يجب أن نستعيد بعض الحقائق التى قلنـاها سابقا ، ففى عام ١٨٢٤ الغيت قوانين الحظر Combination Acts واصبح العمال لأول مرة احرارا فى تنظيم انفسهم علنا على المبادىء النقابيـــة ، ووجدت بعض النقابات قبل ذلك لكنها كانت جميعهـا صغيرة ومحليـــة ، والواقع أن فكرة انشاء « نقابة عامة » General Union تضم العمال من كل حرفة ومهنة كانت تشغل الاذهان حتى فى ظل قوانين الحظر ، بل ان جون جاست Johan Gast وهو أحد زعماء عمال بناء السفن فى لندن وواحـــد من الشخصيات البارزة فى الدوائر الراديكالية العمالية بلندن ، انشـا فى الواقع عام ١٨١٨ الجمعية الخيرية لمعونة العمال ، التى تعتبر اول محاولة سجلت لتكوين اتحاد عام او نقابة عامة وحدثت محاولة مماثلة عام ١٨٢٦ فى مانشستر ، وفى عام ١٨٢٩ نظم جون دوهرتى John Doharty عمـــال غزل القطن فىاسكتلندا وشمالانجلترا فى «الاتحاد العام الكبير بالمملكةالمتحدة Grand General Union of the United Kingdom واتبع هـذه الخطـوة الهامة بخطوة اخرى هى المساعدة فى تشكيل « الجمعية القومية لحمـــاية العمل » National Association for the Protection of Labour عـــام ١٨٣٠ وهى أول جمعية منتشرة للنقابات التى تمثـل العمـــال فى كثيـر من الحـرف والصناعات المختلفة ، وانتشرت الجمعية بسرعة فى لانكاشير وبوركشاير واصدرت جريدة ناجحة جدا باسم الجريدة التعاونية للحـــرف المتحدة United Trades Cooperation Journal لكنهـــا لم تلبث ان بدأت تنهار فاختفى فرع لانكاشير تاركا اتحاد الغزالين كاكبر جمعيـــة فى المقاطعة ، وبقى فرع يوركشاير باسم اتحاد منطقة ليدز وهدرزفيلد وبراد فورد Leeds Huddrsfield and Bradford District Union يـؤدى واجبـــه فى بضعة السنوات التالية المضطربة ٠

وفى غضون ذلك نشأت اتحادات عمالية كبيرة مثل اتحـاد الخزافين Potters Union الذى انشاه دوهرتى Doherty عام ١٨٣٠ وكان لـه فـروع فى نيوكاســـل أون تاين Newcastle-on-Tyne وديربى Derby ومانشستر وســـتوك أون ترنت Stoke-on-Trent ، واتحاد البنـــائين Builders Union الذى قـام ١٨٣١ او ١٨٣٢ ووحـد فى هيئـة واحـــدة الجمعيات القومية المنفصلة التى انشاها عمال حرف مختلفة منفصلة ، كما ضم اليه مجموعة كبيرة من النوادى والجمعيات الحالية الصـــغيرة التى انشاها عمال من حرف متنوعة ، وجاء الكفاح من اجل قانون فعال للمصانع فاشتغل عمال النسيج فى تكوين لجان مؤقتة فى جميع مقاطعات الشـــمال والوسط وفى عام ١٨٣٠ جمع « تومى هيبورن Tomy Hepburn عمـــال المناجم فى نورثمبرلند Northumberland ودورهام Durham فى اتحاد واحد شامل عاش عامين حياة مضطربة لكنها مجيدة قبل أن تسحقه بوحشية وبلا شفقة معارضة أصحاب مناجم الفحم ، وحتى عمال الزراعة اشعلوا فى ١٨٣١/٣٠ « الثورة الأخيرة » التى سحقتها بلا هوادة ولا رحمـــة حكومة الأحـــرار والقضاة بسلاح الاعدام والنفى ٠

وكانت معظم الحركات التى أشرنا اليها هنا حركات ثورة اقتصادية مباشرة فى المقام الأول ، فكان عمال الزراعة يريدون الخبز ، وعمال النسيج ينشدون أجورا أكثر ارتفاعا وخلاصا من طول ساعات العمل وسوء أحوال المصانع ، ورغب عمال المناجم فى تحسين الأجور وتقصير ساعات العمل والخلاص من العبودية الشنيعة فى المناجم ، ورأى البناؤون والخزافون الذين كانوا أحسن حالا بوجه عام أن حرفتهم تتهددها طرائق العمل الجديدة وقيام المقاولون وأصحاب العمال الكبار ، أى أن لكل حركة منشأها من الشكوى الاقتصادية ، لكن الرجال والنساء الذين دخلوا فى الاتحادات الجديدة أفواجا كانوا فى حالة لا تجعلهم يخضعون للضغط وكان زعماؤهم قد ارتووا من معين انجيل التعاون الأوينى ، ورأوا قوة الاتحاد قوة عظمى جديدة لا ينبغى حصرها فى حدود مجرد المساومة على الأجور أو التماس يقدم الى برلمان من الطبقة الوسطى لاجل الحماية القانونية ، بل الاتحاد سلاح للعمل المباشر لمصلحتهم الخاصة ، ولن يستطيعوا استخدامه بصورة افضل من اتباع نظام أوين ، فلماذا لا يصبحون سادة أنفسهم ويدعون أصحاب العمل جميعا ويمتلكون كل انتاج عملهم الجماعى ويبادلون منتجاتهم بين بعضهم البعض بشروط عادلة ؟ ولماذا ينتظرون المجتمعات من الطراز الذى رسمه أوين وهى بطيئة التحقيق ؟ ولماذا لا يحاولون جمع رأسمال من الأغنياء لانشاء قرى تعاونية ؟ ولماذا لا يستخدمون الاتحاد كجمعية تعاونية أو اتحاد حرفى طائفى Guild وبذلك يبدأون فورا سنوات الرخاء التى بشر بها معلمهم أوين ؟

وانتهز أوين وتابعوه هذه الفرصة وأصبحت الجماعات الأوينية الصغيرة مبشرين « بالاتحاد » Union كما هم يبشرون بالتعاون ، وذرع أوين البلاد شمالا وجنوبا يلقى المحاضرات ويتحدث الى قادة الاتحاد ، وتمتلىء مراسلاته المحفوظة فى مانشستر بخطابات من اتباعه فى مختلف أنحاء البلاد يبلغونه فيها نجاحهم فى تحويل الاتحادات الى الاشتراكية ويطلبون منه النصح والعون وأتت مقترحات مانشستر وجلاسجو وبرمنجهام وورستر وتوتنجهام وديربى وستوك أون ترنت وكثير غيرها ، ومن البنائين والخزافين والزجاجين والنساجين وأصحاب حرف كثيرة أخرى لانشاء جمعيات تعاونية ، كما أتت تقارير من الجمعيات التى أنشئت فعلا وأنباء عن تحول النقابات الى الأوينية ورجاء الى أوين بالحضور والقاء محاضرات ، وانهمرت الخطابات من التلاميذ المتحمسين وقادة الاتحادات والنقابات والعمال النشطين فى كل فرع من الحركة ، وارتفع شأن أوين ارتفاعا عظيما وأينما ذهب لقى جمهورا كبيرا متحمسا أفرادا وجماعات على استعداد للتحول الى مبادئه واعتناقها ، وأخذ عمال المصانع فى الشمال بمساعدة من الطبقة الوسطى يطالبون باقرار مشروع القانون المقدم من سادلر Sadler لتحديد وقت العمل بعشر ساعات ، **لكن أوين زلزل اقدامهم عام ١٨٣٣ بأن ساعد دوهرتى وآخرين فى تنظيم جمعية التجديد القومية National Regeneration**

Society التى لم ترض باقـل من تحديد العمل بثمانى ساعات يوميا وجعلت هدفها الوصول الى ذلك بأى طريقة ولو بالاضراب الشامل اذا تطلب الأمـر ذلك ، وكان جون فيلدن John Fielden زميل كوبيت كعضو فى مجلس العموم عن أولدهام هو صاحب العمل الصناعى الوحيد تقريبا الذى أيد أوين فى مشروعه ، ووقف أوستلر Oastler والزعماء المطالبون بيوم عمل من عشر ساعات ينظرون شذرا الى المشروع فقد زرعوا الريح ويبدو أنهم سيحصدون الزوابع .

وفى أواسط عام ١٨٣٣ أصبح أوين الزعيم المعترف به بلا منـازع للحركة النقابية لجأ العمال فى حركتهم القوية الى خياله الخصب المستعد دائما لامدادهم بكافة الامكانيات والاحتمالات ، وأوشك فجر عصر جـديد أن يبزغ ففى غضون ستة شهور أو سنة سوف ينقضى النظام القـديم بكل شروره ويبدأ عهد جديد ، عهد التعاون فى وسعكم أن تحققوا هذا التغييـر لكل سكان الامبراطورية البريطانية فى أقل من خمس سنوات وأن تدخـلوا تحسينا جوهريا على أحوال الطبقة المنتجة فى كل بريطانيا العظمى وأيرلندا فى أقل من خمسة شهور (١) وكان اتحـاد البنائين من بين أشـد الهيئات احتفالا بالأوينية فى ذلك العهد ، وكان مقره الرئيسى فى برمنجهام التى كانت فعلا مركزا كبيرا للدعاية لمبادىء أوين ومقرا لفرع رائج من فـروع بورصة العمل ، وكان البناءون فى برمنجهام تحت تأثير معماريين شـابين هما جوزيف هانسوم Joseph Hansom وادوارد ويلسـن Edward Welsn وهما تعاونيان متحمسان أيضا ، وبناء على اقتراح منهما أيده بقـوة جيمس موريسون **James Morison** محرر جريدة بيونير **Pioneer** اللسان غير الرسمى للاتحاد وجهت دعوة الى أوين للحضور الى برمنجهام والقاء خطاب فى مندوبى البنائين وممثليهم الحـاضرين من مانشستر وميدلاندز **Midlands** واتخذت فى برمنجهام خطوات لانشاء جمعية تعاونية أو جمعية طائفية **Guild** ، وبدأ أوين يلقى سلسلة من المحاضرات فى محافل **Lodges** فى انحاء البلاد ، وفى سبتمبر عقد فى مانشستر الحفل الأكبر **Grand Lodge** وهو البرلمان الممثل لاتحاد البنائين ككل ، وكانت خطة أوين لانشاء الجمعية الطائفية القومية الكبرى للبنائين **The Grand National Guild of Builders** قد وزعت على المحافل وطبعت كاملة فى جريدة بيونير ، وعرضها أوين فى عدد من الاجتماعات ، وأمضى برلمان البنائين تحت ارشاد أوين أسـبوعا لدراسة الاتحاد والاعتراف به على أساس « الحكومة العامة » **Universal**

---

(١) خطاب فى عمال البناء يوم ٢٦ أغسطس ١٨٣٣ مأخوذ عن تروسن True Sun والمنشور فى بوستجيتس ريفيلوشن Postgate's Reveloution صفحة ٩٠ .

Government بحيث تنضم الحرف معا وبقوة فى هيئة واحدة متحدة ، ثم وافق على خطـة النقابة الطائفية القومية National Guild ، واصـــدر « اعلانا وديا Friendly Declaration بسياسته الجديدة ، وجـــاء فى الاعلان أن سير روبرت بيل قد نصحهم نصيحة سليمة هى « أن نأخذ امورنا فى ايدينا » .

« وقررنا اتباع هذه النصيحة ولذا نظمنا انفسنا فى نقابة أخوية قومية للبنائين National Building Guild of Brother لتتمكن من اقـامة المبانى من جميع الأنواع فى أوسع مدى بانجلترا واستكتلندا وأيرلنـــدا » ثم جاء بعد ذلك عرض للخطوط العامة بأسلوب أوين الـــذى لا يخفى على القارىء مبينا المزايا المنتظرة من هذه الخطوة ، فالنقابة الأخـــوية ستبنى بافضل وأرخص مما يستطيعه أى بناء ، وسترعى جميع أعضائها وأسرهم فى الطفولة والمرض والشيخوخة ، وستمحو البطالة بتوفير العمل للمتعطلين فى بناء « مساكن جيدة وغيرها من المبانى لأنفسهم » وتعمل على رفع مستوى المعيشة وعلى ضمان أن البنائين وزوجاتهم وأطفالهم « يعيشون دائما محاطين بالظروف الخارجية الفضلى التى تستطيع وحدها أن تجعل السكان أذكياء وطيبين وسعداء » وتعمل على تحديد مكافأة عادلة « لخدمات الأخـــوة طبقا لمهارتهم وسلوكهم عندما يستخدمهم الجمهور » ، وتقرر كمية العمل ، وتهىء « اعادة تعليم » جميع الأخوة واكسابهم عـادات جديدة خـــير من سابقتها ، وتقدم لجميع أطفالهم تعليما » يمكنهم من أن يصبحوامعماريين وبنائين للشخصية الانسانية ذهنيا ومعنويا بصورة أفضل ممــا تحقق فى العالم حتى الآن أو ما يظن انه يمكن أن يتحقق « وتساعد فى الترتيبـــات المماثلة مع « جميع الطبقات الأخرى من المنتجين » وسوف « توضح للعالم بطريقة جلية ومبسطة وبالمثل الهادىء كيف يسهل انتاج أعظم الثروات قيمة بوفرة تجاوز احتياجات السكان فى جميع الأقطار « بحيث تســـتطيع كل الطبقات » ادراك مصلحتها فى أن تصبح منتجة من أعظم طراز ، وهكذا فان « الطريقة الحالية المصطنعة وغير الصحيحة والمؤذية المتبعـــة فى تبـادل ثرواتنا ستحل محلها طريقة عادلة وصحيحة لتقـدير الثـــروة الحقيقية وبالتالى طريقة رشيدة » وستزيل أسباب المنافسة الفردية والقومية والغيرة والحروب وبذلك « تقيم السلام والنوايا الطيبة والانسجام لا بين الأخوة من اعضاء نقابة البناء فحسب بل بين الجنس البشرى كله ولأبد « وأخـيرا » ستضمن للأسطوات Masters فى جميع أفرع البناء أن يفهموا مهنتهـم ويحققوا مركزا فى المجتمع افضل وأكثر استقرارا مما يمكن أن يصلوا اليه فى أى نظام من المنافسة الفردية بين الأسطىوالاسطىوالعامل والعامل «وهكذا ينتهى الأمر الى اتحاد حقيقى وقلبى للمصالح فى أطار النقابة الطائفيـة وتتضح وسيلة تحقيق « الاتحاد العظيم من أجل خلاص الطبقات المنتجة »(١)

(١) منشور اتحاد البنائين عام ١٨٣٣ عن كتاب تاريخ البنائين ، بوستجيت ، ص ٤٦٣ .

لكن الأسطوات البنائية كانوا أقل استعدادا من مندوبى الاتحاد لقبول هذا العرض العظيم للوحدة العامة ولم يتحسن موقفهم بعد أن بدات المطالبة بتحسين الأجور مع انهاء تسلط أصحاب العمل ، وعرضت النقابة عليهم أن ينضموا اليها كمديرين اذا أثبتوا مقدرتهم ويخضع هذا للانتخاب فيما بعد ، أو عندما بدأت النقابة تطلبعقودا وتنافسهم ، وكان للرجال اتجاه عدوانىوقدموا مطالب مبالغ فيها ورد أصحاب العمل فى المقابل بالأمتناع عن العمـــل وبسلاح « الوثيقة » document وهو تعهد يتبرأ فيه العامل من عضوية الاتحاد وكان يقدم فى بعض الانحاء الى العمال ليوقعوا عليه ، وحدثت فى ليفربول وبرمنجهام اضرابات كثيرة وامتناع من جانب أصحاب العمل عن التشغيل ، ولم تلبث هذه الحركات أن امتدت الى مانشستر وباقى أنحاء لانكاشير ثم الى ديربى وبعض مراكز ميدلاند وأخيرا الى لندن ٠

وفى غضون ذلك نشط الاتحاد فى برمنجهام حـــيث مركزه الرئيسى واستطاعت النقابة الطائفية Guild أن تحصل على بعض العقود بفضـــل نفوذ هاتسوم وويلسن ، وفى أثناء الاضراب بدأ البناءون فى اقامة قاعـة نقابية Guildhall كبرى لهم بأموال اقترضت عن طريق هاتسوم وويلسن ، وسار العمل بطيئا وسط صعوبات كبرى وتوقفات بسبب قلة الأموال ، لكن كان من الصعب الحصول على عقود خارجية وصار الاتحاد الكبير غير كفء للتصرف أمام ضغط التمويل والمنازعات الصناعية الكبيـــرة التى انغمس فيها ، وكتب هاتسوم الى أوين يتوسل اليه أن يجد المال اللازم لبناء القاعة النقابية ، لكن أوين – كما سنرى – شغل تماما بأمور أخرى ، وأخيرا هرب ويلسن ، شريك هاتسوم ، من الميدان ، وبعد عمل دام بعض الوقت أصبح لزاما ايقاف العمل فى القاعة النقابية ، وانتقل المبنى الذى لم يتم الى يـد هاتسوم ثم بيع لتسديد الديون واستخدم كمخزن ومستودع وما يزال قائما أو كان قائما حتى سنوات قليلة مضت ٠

لكن قبل أن تأتى الكارثة ، انتقلت شئون اتحاد البنـائين والنقـــابة الطائفية ، التى لم تكن سوى الاتحاد لكن باسم آخر ، لتصبح جـزءا مـن تطورات أوسع نطاقا هى حركة النقـــابات تحت قيادة أوين ، وظهر ذلك بوضوح فى صعود وانهيار النقابة القومية الكبرى المتحدة ، واعتبر أوين وأصدقاؤه ، اتحاد البنائين شيئا جانبيا أو جزءا صغيرا من حركة أكثـــر اتساعا ترمى الى اليقظة العامة ، ولعل اللهجة الايحائية التى صدر بهـــا الاعلان المشار اليه بعاليه انما كانت تنصب على هذه الحركة الأوســـع نطاقا لا على نقابة البنائين الطائفية وحـــدها ، وهكذا بدأ أوين فى ادارة المجتمع كله على مستوى جديد ولم يقتصر على اعادة تنظيم الصناعة بـــل أخذ يبشر بعالم معنوى جديد عن طريق العمل الصناعى ٠

الفصل السادس عشر

اتحـــاد الحـرف

THE "TRADES UNION"



كان اللسان المعبر عن الحركة الأوينية من ١٨٣٢ الى ١٨٣٤ جـريدة « الأزمة » وهى جريدة اسبوعية ثمنها بنس واحد ، قام على تحـــريرها فى مبدأ الأمر أوين نفسه وابنه روبرت ديل الذى عاد منذ فترة من امريكا ، ثم تولى تحريرها ج · أ · سميث J.E. Smith الذى يعـد من اقدر الكتـــاب الاشتراكيين الأوائل وشخصيته ذات قوة ، واصبحت الجريدة تحت رئاسته خاصة لسانا قويا لآراء أوين واقتسمت مع جريدة « الرائد » Pioneer دور التعبير عن الأمانى الاشتراكية للحركة النقابية فى السنوات التى تلت صدور قانون الاصلاح ، وكان اسمها وحده علما على حقيقة الحال فى تلك الحقبة ، فقد كانت تلك السنوات الحافلة بالأحداث تعتبر أزمة من وجهـــة نظر أتباع أوين لا فى الحركة النقابية فحسب بل بالنسبة للجنس البشرى كله فقد آذن النظام القديم بالانتهاء ليبدأ حكم العقل ، واصبح لزاما اجتــــذاب جميع « الطبقات النشطة » وليس البناءون وحدهم ، ليقوموا بدورهـم فى التغيير الكبير ·

وكان جلاس ج·ا· سميث من الشخصيات غير العادية ، وقد أدى نزاعه مع **أوين** فى أواسط عام ١٨٣٤ الى انهيار النقابة المتحدة وكان عاملا **هاما** بلا شك فى التعجيل به · وولد سميث فى جلاسجو لأب من صغار الموظفين من اتباع ايرفنجيت Irvingite المتحمسين ، وقد ألحق ابنه بجامعـــة جلاسجو ليتدرب على أن يكون قسيسا ، لكنه بدلا مـن الالتحاق بســـلك الكهنوت الرسمى وقع تحت تأثير جون رو John Wroe الـــذى اعتبرته جماعة صغيرة من المخلصين له المســيح المنتظر Messiah وعرفت هذه الجماعة فيما بعد باسم الاسرائيليين المسيحيين Christian Israelites وتخاصم مع رو الذى وجهت اليه تهم خطيرة ، فاتجه الى الرسم ثم ذهب الى لندن ليعمل واعظا ومحاضرا ، وهناك وقع تحت تأثير أوين وأصـــبح من المحاضرين الرئيسيين فى معهد أوين بشارع شـــارلوت ، **وأدرك أوين قدراته فجعله رئيس تحرير جريدة « الأزمة » وبعد شقاقهما عاد الى الوعظ وانشأ ديانة صوفية خاصة به اسماها « الكونية » Universalism** وأنهى **حياته وهو المحرر الناجح العظيم لجريدة فاميلى هيـرالد Family Herald وقد نسى تماما فيما يبدو نزوته القصيرة ذات التأثير كداعية اشـتراكى ، لكن عمله أثناء السنوات التى اتصل فيها باوين وحركة « النقابات » تضعه فى صف اقدر الكتاب الاشتراكيين الأوائل واعظمهم اثرا ، وتعتبر خطاباته**

عن العمل المشترك Letters on associated Labour التى ظهرت فى جريدة « الرائد » (١) من اعظم ما كتب فى مجال الكتابات الدعائية القوية ٠

وعقد مؤتمر فى لندن من ٧ الى ١٤ اكتوبر ١٨٣٣ ببورصة العمل القومية رأسه اوين وخطب فيه وأوصى المؤتمر بانشاء الاتحاد المعنوى القومى الكبير للطبقات المنتجة والنافعة « Grand National Moral Union of the Productive and Useful Classes وحث « جميع النقابات والجمعيات التعاونية والمنظمات التجارية Commercial Orders والجمعيات ذات المنفعة Benefit Societies وكل الجمعيات الأخرى التى تتوخى تحسين أحوال الطبقات العاملة أن تنظم نفسها فى كيانات أو قطاعات ومقرات خاصة بها Lodges ، وأن تضع قوانينه ولوائحها الخاصة وذلك من أجل تحرير الطبقات النشطة والنافعة عن الصعوبات التى تحيط بها (٢) **وكانت تلك البداية الرسمية لاتحاد الحرف القومى الكبير الموحد** Grand National Consolidated Trades Union **الذى عرف فى حينها باسم « اتحاد الحرف »** Trades Union **تمييزا له عن النقابات** Trade Unions **والنوادى الحرفية Trades Clubs التى كانت أقل طموحا وشمولا ، ونمت الهيئة الجديدة بسرعة مدهشة وشمول كبير ، ويقال طبقا لمصدر موثوق به انه انضم اليها فى ظرف أسابيع قليلة اكثر من نصف مليون عضو ، ويقدر احد كتاب جريدة « الرائد » لسان الحركة الرسمى ، مجموع عدد النقابيين فى هذا الاتحاد وغيره بمليون كامل على الاقل ، وكان ذلك فى ربيع عام ١٨٣٤ ودخل العمال من كل الفئات فى المنظمة الجديدة افواجا ، وضمت المنظمة اليها عمالا من جميع الحرف ولم تقتصر على الحرفيين المهرة وعمال المصانع من الحرف الرئيسية ، بل قبلت ايضا العمال الزراعيين فى كثير من الجهات ونظمتهم فى جمعية منفصلة هى « جمعية الصداقة للعمال الزراعيين Friendly Society of Agricultural Labourers. داخل الاتحاد ، وتكونت كيانات ومقرات للاناث النشطات Lodges of Industrious Females (محافل للاناث) فى مراكز كثيرة ، ثم**

---

(١) يرجع فى ذلك الى كتاب و ٠ ٩ ٠ سميث ٠

(٢) هذا الاقتباس من محضر اجتماع عقد فى هدرزفيلد يوم اول نوفمبر ١٨٣٣ لتأييد المشروع برئاسة اوين الذى دعى فيه « مندوبو النقابات المجتمعون فى ليدز « لبذل تأييدهم كى » تتحد جميع الطاقات النشطة والنافعة » ، والمستند محفوظ فى ملفات مكاتبات اوين بالاتحاد التعاونى بمانشستر ٠

انتشرت مقرات وكايانات متنوعة Miscellaneous Lodges (١) ضمت العمال اليدويين فى حرف متفرقة بل وأيضـــا المتعاطفين من الطبقات المهنيـــة professional classes. وكان هدف الاتحاد كما تصوره أوين فى ذهنه ٠٠ لا يقل عن ضم جميع « الطبقات المنتجة فى هيئة كبرى واحدة » ٠ وفاد السبيل بأن انضم عضوا فى هذا الاتحاد ، وحذا حذوه اتباعه فى الجمعيات الأوينية بأنحاء البلاد ٠

ولا ينبغى الافتراض بأن كل هذا التطور والنمو جاء فجاة من لا شىء ، فقد ظلت الحركة النقابية تتطور سريعا لفتــرة طويلة ماضـــية ، واعترفت اللجان البرلمانية التى درست فى عامى ١٨٢٤ ، ١٨٢٥ الموقف كله فيما يتعلق بالغاء قوانين حظر التنظيمات العمالية Combination Acts بأن هـــذه القوانين كانت عديمة الأثر فى منع وجود النقابات ، نعم كانت سلاحا فى يد القضاء لقمع اتحاد معين ، أو منظمة معينة غير مرضى عنها تعرض نفســها لأحكام تلك القوانين ، كما كانت سببا فى تخفى نقابات كثيرة تحت اســـم جمعيات الصداقة وغيرها ، لكنها لم تمنع أبدا قيام الاتحادات أو المفاوضة فى عقد اتفاقيات جماعية Collective Agreements مع هيئات من أصحاب الأعمال ، ولم يؤد الغاء هذه القوانين سوى الى اعطاء مزيد من قوة الدفع لحركة تنظيمية موجودة فعلا ولها أهمية ملموسة ، ونتج عن نشاط حـــركة الدعاية للاصلاح البرلمانى دافع آخر للحركة النقابية وقد رأينـــا الحـــركة النقابية منتشرة عام ١٨٣٠ ونشطة فى عدد كبير من الحرف ٠

ولا شك أن انشاء الاتحاد الموحد Consolidated Union أدى الى زيادة كبرى فى العضوية ، فمن المحتمل أن أغلبية من انضموا اليه كانوا فعلا أعضاء فى بعض النقابات أو جمعيات المنافع ، وأن نموه السريع يرجـــع فى أساسه الى اندماج مثل هذه الجماعات فيه ، ومع ذلك فان ســـرعة انتشاره كانت ملفتة للنظر ، ولو أنه انبعث فجأة من لا شىء لكان الموقـــف غير قابل للتصديق أبدا ٠

وقد رأينا أن من بين الاتحادات التى اتخذت شكلا محددا وكاملا فيمـــا بين ١٨٢٩ و ١٨٣٢ عدة هيئات قوية ترمى الى تنظيم صناعات معينة على الصعيد القومى مثل النساجين والخزافين وصناع الملابس والبنائين الذين أنشأوا اتحادات قومية اجتذبت عددا كبيرا من الأعضاء واتبعت ســياسة

---

(١) سمح النظام الذى وضعه أوين للعمال المنتمين لكل حرفة بتكوين كيانات خاصـــة بها أطلق عليها Lodges ، وفى حالة عدم وجود أعداد كافية من العمـــال فى حرفة معينة فحينئذ يمكن للحرف المتنوعة أن تكون مع بعضها Lodge خاص بها ، وبصفة عامة فان كل Lodge عليه ان يختار لجنة مكونة من ٢٥ عضوا بالاقتراع الســرى ٠

صناعية جريئة ، ورغم أن محاولة دوهرتى لانشاء « اتحاد عام » General Union لجميع الحرف قد فشلت وأن الجمعيــة القومية لحماية العمــل National association for the protection of labour قـــد انقســـمت الى أقسام عام ١٨٣٢ بعد عامين من حياة مضـــطربة فان أعضــائها فى بوركشاير ظلوا على تماسكهم فى الاتحادات المحلية القومية فى ليــدز ، وهدرزفيلد ، وبرادفورد التى شاركت بنشاط فى حركات عام ١٨٣٤ ٠

فماذا كانت علاقة هذه الاتحادات الخمسة الكبيرة بالاتحاد الموحـــد الذى انشأه أوين ؟ الموقف غامض بدرجة كبيرة حتى الآن وربما كان غامضا حتى فى ذلك الوقت ، وعندما عرضت الخطة الأولى للهيئة الجديدة ، لمؤتمر أكتوبر ١٨٣٣ كان البناءون ممثلين فيه وربما كان الآخرون كذلك ، ويبــدو واضحا أنهم جميعا اعتبروا فى البداية أقساما من الاتحاد الموحد ، لكن غير واضح الى أى حد هم أنفسهم قد قبلوا هذا الوضع ، ولم يحضر البناءون ـ على الأقل ـ المؤتمر الثانى فى فبراير عام ١٨٣٤ عندما تمت الموافقـــة على دستور الاتحاد الموحد ، ويبدو واضحا بما يكفى أنهم لم يعتبروا انفســـهم مرتبطين بقرارات اللجنة المركزية للاتحاد الموحد ، وأنهم قرروا بصفة قاطعة الاحتفاظ بكيانهم المنفصل خارج « الاتحاد العام » (١) ، لكن زعماء الاتحاد الموحد اعتبروه فكرة وتنظيما واعتبروا جميع النقابات داخلة فى اطـــاره بحكم طبيعتها ٠ وأنشئت جمعيات جديدة فى ١٨٣٣ و ١٨٣٤ كفروع للاتحاد الموحد كما أعلنت جمعيات قديمة أنها متصلة به ، أما التعريف الدقيـــق للعضوية ، وتحديد المكان الصحيح لكل هيئة من الهيئات المختلفة داخـــل الجمعية الشاملة فأمور تركت للزمن ٠

وكخطوة فى سير هذه العملية كان لابد أولا وقبل كل شىء تزويد المنظمة الضخمة بدستور ، وهذا ما تم فى المؤتمر المنعقد فى فبراير ١٨٣٤ الـــذى صدرت دعوة شاملة وعامة اليه تحت رعاية أوين ، وهناك شىء من الغموض حول هذا المؤتمر ، فقد قرر مؤتمر أكتوبر ١٨٣٣ عقـــد المؤتمر التـــالى فى بارنسلى Barnsley يوم ٣١ مارس ١٨٣٤ وعين ج٠ر٠ تيرنر J.R. Tuener سكرتيرا ، وما حدث بعد ذلك غير واضح ، فقد دعا أوين المؤتمر للاجتمـــاع وعقد اجتماعه فى لندن فى منتصف فبراير ووضع دستورا وعين لجنـــة تنفيذية قومية للاتحاد الموحـــد National Executive ، وكتبت جـــريدة « الأزمة » المناصرة لأوين (٢) تقول : « فى الأسبوع الماضى وهذا الأســـبوع اجتمع مندوبو النقابات فى لندن ، ففى لندن الآن برلمانان ينعقدان ، ولا نتردد فى القول بأن برلمان النقابات هو الأهم بكل المقاييس وسيصبح على مـــدى

---

(١) جريدة « الرائد » ١٣ و ١٨ فبراير ١٨٣٤ ٠

(٢) « الأزمة » عدد ٢٢ فبراير ١٨٣٤ ٠

سنة أو اثنتين الأكثر نفوذا أثرا فهو أكثر صبغة ومية من الآخر لأن ناخبوه
أوسع نطاقا بكثير ، ويتألف الاتحاد من مليون عضو تقريبا يسود بينهم مبدأ الانتخاب العام » ٠

لكن ظهرت فى عمود الاعلانات بجريدة « الأزمة » (١) فى الشهر التالى دعوة الى مؤتمر للاتحاد المعنوى القومى الكبير للطبقات العاملة يعقد فى بارنسلى فى نهاية الشهر طبقا لقرار المؤتمر المنعقد فى اكتوبر السابق ، ولا يشير الاعلان أية اشارة الى المؤتمر المنعقد بلندن فى فبراير رغم أن جريدة « الأزمة » كتبت تقريرا عنه ورغم أن هذا المؤتمر عين لجنة تنفيذية للاتحاد الموحد ، ولا أعلم ما اذا كان مؤتمر بارنسلى عقد فعلا فلم أستطع تتبع أى اشارة أخرى اليه ، لكن يبدو أن أوين بما يتصف به من نفاذ الصبر والاوتوقراطية تجاهل قرار أكتوبر ودعا الى عقد مؤتمر لندن بمبادرة شخصية أو ربما بموافقة تيرنر وجمعية الحرف المتحدة بلندن London United Trades Association فاذا كان الأمر كذلك فانه يفسر عدم حضور البنائين وعدم تمثيل أى من الاتحادات القطاعية Sectional Unions الكبيرة فى اللجنة التنفيذية للاتحاد الموحد ، واستقال موريسون الذى يبدو أنه مثل البنائين فى الهيئة المؤقتة وأخلى مقعده فى اللجنة التنفيذية فى شهر فبراير أو مارس ١٨٣٤ (٢) ، وقد يون استقال لهذا السبب لكن المسألة كلها والحقبة كلها غامضة بل كثيرة الغموض ٠

وعلى كل حال صار الدستور الذى تمت الموافقة عليه فى فبراير الأساس المقبول للاتحاد الموحد ، ووضح أنه رسم بحيث يسمح بانضمام الاتحادات القطاعية الكبيرة سواء ساهمت فى صياغته أو لم تسهم ، ومن مبادئه الأساسية أن تنظم كل حرفة أو صناعة قطاعا منفصلا فى اطار الاتحاد له قواعده ولوائحه الخاصة ومقارها الاقليمية ومسئوليته وهيئته الحاكمة الخاصة Governing body على أن تنضم هيئات الحرف المختلفة فى كل منطقة معا فى لجنة مركزية ، ويتألف المجلس الأكبر Grand Council للاتحاد من مندوبين من هذه اللجنة المركزية ، وينتخب المجلس الأكبر فى اجتماعاته نصف السنوية اللجنة التنفيذية من أربعة أعضاء ، أى أن الأعضاء يتجمعون على الصعيد القومى حسب الحرف لكن السلطة النهائية فى يد المناطق حيث تجتمع هذه الحرف معا ، ويفسر ذلك سبب احجام الاتحادات الكبيرة مثل اتحاد البنائين عن أن تلقى بمنظمتها بأكملها فى اطار الاتحاد الموحد لأن هيئاتها الحاكمة ستفقد فى هذه الحالة كثيرا من سلطانها ، ولعل تحقيق هذا الهدف والانقسام الذى يمكن أن يحدث من جراء الأحداث المشار

---

(١) نفس الجريدة عدد ١٥ وعدد ٢٢ مارس ١٨٣٤ ٠

(٢) جريدة « الازمة » عدد ١٢ أبريل ١٨٣٤ حيث نشر أن موريسون استقال « من أسابيع مضت » ٠

اليها بعاليه ، كل ذلك دعا اللجنة التنفيذية للاتحاد الموحد أن تهيب فى أبريل ١٨٣٤ بالاتحادات الخمسة الكبيرة أن ترسل مندوبا عن كل منها ليشـــارك فى رسم السياسية (١) ٠

وكان الاتحاد الموحد منذ بدايته هيئة تتبع مبادىء أوين ٠ فقد قبـــل الاتحاد انجيل أوين بالكامل وبشر به واتخذ له هدفا هو تغيير النظام القائم كله الى نظام يقوم على التعاون بين الطبقات المنتجة ، وحث الاتحاد جميـع قطاعاته على انشاء محلات تعاونية للمتاجرة التبادلية بين أعضائها ، وأكثر من ذلك وأهم أن تقوم بالانتاج تعاونيا وأن تبذل جهدها بوجه خاص لتشغيل جميع أعضائها العاطلين فى ورشها الخاصة فى حالة الاضرابات أو اغلاق المصانع ، وتبنى الاتحاد آراء أوين المعـــروفة فيما يتعلق ببناء الخــلق والشخصية وتأثير البيئة ، والحاجة الى حسن النية كأســاس للنظـــام الاجتماعى الجديد ، وركز أيضا تركيزا شديدا على التعليم سواء بالنســبة للأعضاء أو أبنائهم ، وانتهج موقفا مناصرا للمرأة وبقى مبدأ من مبــادىء أوين وهو العداء لكل الأديان المعترف بها والمنظمة ، فقد ترك هذا المبـــدأ أو تراجع الى الخلفية ، وربما حدث ذلك أساسا بتأثير موريسون وسميث اللذين كانا من المتحمسين لمبادىء أوين لكنهما لم يشاركا زعيمهما رأيه فى المسألة الدينية ٠

وما كاد الاتحاد الموحد يبدأ حتى تجمعت المتاعب حوله من كل مكان ، ونصت قواعده على ألا يقع اضراب هجومى بغير موافقة اللجنة التنفيذية ، أما الاضرابات الدفاعية فيمكن اعلانها بمعرفة لجان المناطق ، وغرض أوين واللجنة المركزية من ذلك الاحتفاظ بالقوة والموارد ما أمكن الى أن يتمكنوا من اعلان اضراب عام للطبقة العاملة كلها هدفه الأول على الأقل تحـديد ساعات العمل اليومية بثمانى ساعات ـ وقد يضاف الى ذلك المطالبة بثورة سلمية فورية ، لكن ذلك لم يتحقق فى الواقع ، فما أن نظم العمال أنفســهم حتى تقدموا الى أصحاب العمل بمطالبهم ، وعمد أصحاب العمل فى كثيـر من الحرف والمناطق الى اتخاذ موقف هجومى محاولين اما تخفيض الأجور أو اعلان الحرب على الاتحاد وقدموا « الوثيقة » لعمالهم كى يوقعوا عليها ، وبدأت « أحداث ديربى » الكبيرة Greet Derby "turn-out" فى نوفمبر ١٨٣٣ حول هذه القضية قبل أن يتخذ الاتحاد دستورا له ، واستنفذ صراع ديربى فى الشهور التالية أموال الاتحاد الضئيلة ، وأخذ الخلاف يأتى بعد الخلاف حتى أصبح الضغط أثقل من الاحتمال ، وجاء كساد فى الأعمـــال جعل الأحوال أبلغ سوءا ٠ وفى مارس ١٨٣٤ تلقى الاتحاد ضربة موجعـة وجهها اليه القانون والقضاء هذه المرة فصدر الحكم على « شهداء تولبودل »

---

(١) جريدة الرائد ، عدد ١٩ أبريل ١٨٣٤ ٠

وكانت تهمة هؤلاء العمال الستة التعساء Tolpuddle Martyrs من دورشستر Dorchester انهم اقسموا قسما غير قانونى اثناء انشاء محفل لجمعية الصداقة للعمال الزراعيين فى اطار الاتحاد الموحد ونالوا على هذه التهمة عقابا قاسيا هو النفى سبع سنوات ، وكان لزاما على أوين وزعماء الاتحاد الآخرين أن يتجهوا بكل قوتهم الى تنظيم حملة لكبح هذا الحكم الظالم القاسى،فاقيمت لجنةدورشستر بلندن وتولى لوفيت سكرتاريتها، ونظمت اجتماعات احتجاج فى أنحاء البلاد ، وبلغت الحملة ذروتها فى لندن بمسيرة ضخمة قادها أوين لتقديم التماس الى لورد ملبورن Lord Melbourne وزير الداخلية من حزب الأحرار Whig ، وزار أوين لورد ملبورن قبل اليوم المحدد للمسيرة ووافق ملبورن على أن يتسلم الاحتاج بشرط أن يأتى الوفد الذى يقدمها وحده لا على رأس مظاهرة ضخمة ، لكن الزعماء قرروا إنفاذ المظاهرة ، وعقد اجتماع جماهيرى فى كوبنهاجن فيلدز Copenhagen Fields ، وسار ما لا يقل عن ٩٠ر٠٠٠ شخص خلف أوين والوفد الى هوايتهول Whitehall ، وحشدت الحكومة فى فزعها عدة فصائل من الجنود لكن لم يحدث اى اضطراب ، لكن ملبورن رفض استقبال الوفد ، وانتهى الأمر بتسليم الاحتجاج فى هدوء فى يوم آخر .

ورغم وحشية الحكم الصادر على عمال دورشستر لم يقدم الراديكاليون فى البرلمان أى احتجاج أو التماس ولم يعقدوا أى اجتماع رغم أن كوبيت وفيلدن وفيرجس أوكوفدر كانوا بارزين فى مهاجمة الحكم فى البرلمان وطلبوا تغييره ، وأفزعت حركة الاتحاد الموحد الطبقات الحاكمة والصناعيين وناصرى حزب الأحرار اتخاذ اجراءات شديدة وفى المقابل غضب النقابيون واصبحوا أميل لاعلان الاضراب بينما عمد أصحاب الأعمال وقد شجعهم موقف الحكومة الى اغلاق المصانع ، وقام الخياطون فى لندن باضراب كبير فى ابريل قابله أصحاب العمل بتقديم « الوثيقة » ، وانهار المضربون فى ديربى وقد خارت قوتهم واضطر الاتحاد ان يفرض على أعضائه رسوما بعد رسوم فى صراع بائس لمواجهة التزاماته .

وكان الفشل لا مناص عنه فى تلك المرحلة وان لم يكن متوقعا من البداية ، لكن الموقف ساء الآن بالمنازعات الداخلية ، وكان اقدر الرجال بعد أوين رجلان : موريسون وسميث ، وكان موريسون أصلا متصل باتحاد البنائين وتولى تحرير « الرائد » اللسان الرسمى للاتحاد الموحد ، وكان سميث يكتب فى الرائد بتوقيع « سنكس Senex » وتعد مقالاته من أحسن ما يكتب فيها ، وكان فى نفس الوقت يحرر « الأزمة » اللسان الرسمى لحركة أوين التعاونية ، واختلف أوين مع الرجلين وهما أحسن معاونيه ، وتباينت الأقوال حول سبب الخلاف ، ويقول موريسون فى قصته عن الخلاف المنشور فى « الرائد » أن السبب يدور أساسا حول التناقضات الدينية بينه وبين أوين ، ويتحدث سميث عن هذه النقطة بوضوح اشد ويكتب قائلا : « يجب أن

ينقسم الاتحاد – فهو مؤلف الآن من حزبين كبيــرين المؤمنين والكافرين – وأرى أنني وأوين يجب أن تنفصل ليزود كل منا هذين الحزبين بالوقود » (١) ، لكن اذا كان الخلاف الاساسى يدور حول الدين فقد وجـد تعبيرا عنـــه فى مجالات اخرى ايضا ، فقد أعترض موريسون وسميث على أن يدخل أوين آراءه الدينية فى الاتحاد ، واعتراض أوين على نشرهما فى الرائد والازمه مقالات تهدف فى رأيه الى اثارة الكراهية الطبقية ، وكان مستعدا لتنظيم اضراب عام لكنه يصر على أن يحدث بروح البر والخير العام · « كل الأفراد الذين يعيشون اليوم انما هم ضحايا المعاناة من هذا النظام الملعون وكلهم خليقون بالشفقة والرحمة ، ولذا عليم تحقيق هذه الثورة الكبيرة المجيدة دون الحاق أى اذى للأفراد ما أمكن ··· بدون سفك دماء ولا عنف ولا شر من أى نوع بل بمجرد تأثير معنوى غالب يدفع الأفراد والألم الى أن يدركوا سريعا عـدم جدوى وجنون محاولة المقاومة » (٢) ، لكـــن لكـــن كثيرا من مقالات سميث ومحاضراته لا يرقى الى هذا المستوى المثالى الخير ، وهكذا كان الملحـــد رسول الخير والنوايا الحسنة والمسيحى الكونى Universalist Christian رسول حرب الطبقات ·

كان ذلك سببا من أسباب النزاع ، وثار سبب آخر عندما بدأ سميث ينتقد بشدة فى « الأزمة » تصرفات اللجنة التنفيذية ، وكان المتنازعون متفقين على الرغبة فى منع الاضرابات القطاعية وتمهيد الطريق « لاضراب قوى وشامل » ، ولكن رأى سميث وموريسون أن اللجنة التنفيذية لا تمهد الطريق ، وقال أولهما أن نفوذ أوين له تأثير سىء « يظن أنه يستطيع قيادة الشـــعب ولا يدرى الوصمة التى تلحق بأسمه ، فهو جد مشغول بنفسه بحيث لا يراها ، وكنا دائما نخفى أسمه ومقالاته ونخمدها ، ولما رأى أنه لا يستطيع أن ينفذ كل شىء كما يريد فسيصدر جريدة جديدة بأسم « جريدة الاتحـــاد Union Gazette ويرى أنها ستبتلع كل الأخريات ، أى أنه سيعمل من خلف ستار ومع ذلك سيكون دكتاتورا ، وتحركنا الآن لمنع دكتاتوريته فنحن نعـــلم أنه لا يمكن التسامح معه » (٣) ·

واستقال موريسون فى أوائل العام من منصـــبه كعضو فى اللجنـــة التنفيذية ، ونزع أوين فيما بعد عن « الرائد » صفتها كلسان رسمى للاتحاد واحل محلها « الجازيت » ، وماتت « الرائد » فى أوائل يوليو وواصل سميث هجماته فى « الأزمة » بحدة أعظم لا سيما عندما هرب أحد أعضاء اللجنة التنفيذية الى نيو ساوث ويلز ومعه بعض أموال الاتحاد ، وحاول أوين فرض

---

(١) خطاب من سميث (٣٠ مايو ١٨٣٤) منشور فى كتاب شبرد سميث العالمى . ص ١٠٣

(٢) « تركة روبرت أوين » ، جريدة الرائد ٢٩ مارس ١٨٣٤ ·

(٣) خطاب سميث ·

رقابة شديدة من خلال اللجنة التنفيذية على ما ينشر فى الجريدتين ثم أغلق أيضا جريدة « الأزمة » التى ظهر آخر عدد منها فى ٢٣ أغسطس وبعدها خرج سميث من الحركة ·

وعندما ترك سميث الاتحاد الموحد كان الاتحاد يترنح تحت ضربات تساقطت عليه مطرا مدرارا ، فحدث امتناع من أصحاب العمل فى لندن عن تشغيل البنائين مما زاد الضغط على الاتحاد الموحد رغم أن حدته أصابت فى المقام الأول اتحاد البنائين مباشرة ، وأخذ الأعضاء يهربون أفواجا أيضا من الاتحاد الموحد وشرعت الجمعيات المحلية تبتعد عنه بنفس السرعة التى دخله بها هؤلاء جميعا منذ شهور قليلة ، وأدرك أوين أن الاتحاد فشل وأن الاضراب العظيم لا سبيل اليه لكن ذهنه المتصلب رفض قبول فكرة الفشل ، ورأى فى النقابية المكافحة Militant والاضراب العام جاذبية خاصة وان كانت مؤقتة لأنهما أداتين للتغيير العظيم ، وعندما وجدهما لا يصلحان لذلك اتخذ لنفسه سريعا طريقا آخر ، ودعا الى عقد مؤتمر من الجمعيات الأوينية واقنع المؤتمر بأن يقرر أن يخلى المؤتمر الموحد مكانه للجمعية الموحدة البريطانية والأجنبية للصناعة والانسانيات والمعرفة British and Foreign Consolidated association of Industry, Humanity and Knowledge وأنه « يجب اتخاذ اجراءات فعالة للتوفيق بين أصحاب العمل فى أنحاء المملكة » (١) ·

وفى غضون ذلك صفى أوين جريدة الأزمة قائلا انها استنفدت اغراضها وانها انتهت وان العالم القديم سوف يمر « بثورة معنوية عظمى للعقل البشرى لا يوجهها سوى الحق والبر والرحمة » وأمارة التغيير اصدار جريدة تحل محل « الأزمة » وتسمى العالم المعنوى الجديد New Moral World **« حيث يحكم وينتصر العقل والنشاط والمترفة » (٢)** ، وأعرب الكتاب السابقون (٣) عن رأيهم من أن مؤتمر ٢٠ أغسطس أنهى الاتحاد الموحد ، لكننى لا أوافق على هذا الرأى ، والصحيح أن المؤتمر أنهى علاقة أوين بالاتحاد فيما عدا وجه واحد ينبغى ذكره ، أما الاتحاد ذاته فأرى أنه استمر يترنح شهورا أخرى ، وعقد اجتماع للمندوبين فى أول اكتوبر وحاول أوين مرة أخرى فى هذه المناسبة أن يتصل بالاتحاد « ليلقى خطابا هاما » وحمل ج · د · ستيلز J.D. Styles الذى كان سكرتيرا للمؤتمر التعاونى المنعقد عام ١٨٣٢ وكان سكرتيرا لعدة هيئات أوينية ، رد المندوبين وهو أن

---

(١) جريدة الأزمة ، عدد ٢٣ اغسطس ١٨٣٤ ·

(٢) نفس المصدر والعدد ·

(٣) بردمور ، وويب ، وبوستجيت

« هذا المؤتمر يرفض باحترام عقد أى تشاور أو تلقى أى رسالة من مستر أوين وأنه يرجو السكرتير توصيل هذا القرار بخطاب » (١) ٠

ويكمن خلف هذا الاخطار خلاف كما هو واضح غير أن تفاصيله غير معروفة ، لكن قد يبدو من المعقول ان نفترض ان الزعماء النقـابيين الذين تبعوا أوين مادام يبدو انه يقود حملة نقابية مكافحة ليسوا على اســتعداد أن يسمحوا له بتحويل منظمتهم مهما كانت مترنحة الى وجهة اخرى مستخدما اياها استخداما آخر ، ويحتمل جدا أن الصعوبات المتزايدة فيما يتعـلق بالمسائل الدينية التى كانت ـ كلما لاحظنا ـ ســبب فى انشــقاق سميث وموريسون على أوين قد نسفت مركز اوين كقائد وزعيم ، وكان معظم الزعماء النقابيين على استعداد ليتبعوه كقائد للاضراب لكنهم لم يكونوا مســتعدين لاعتبار انكار جميع الديانات كشرط لازم يؤهل لعضوية النقابات ٠

وعندما انتهى عام ١٨٣٤ او نحو ذلك كان الاتحاد الموحــد قد انتهى ومات هو الآخر ، ولا يعنى هذا موت النقـابية معه ، لكنهـا دخلت مرحلة خسوف ، وتهاوى اتحاد البنائين واتحاد ليدز عام ١٨٣٥ وتبعهما اتحــاد النساجين بعد وقت وجيز لكن بعض فئات هــذه الهيئات مثل الحجـارين والنجارين والسباكين بقيت كما بقيت بعض قطاعات الاتحاد الموحد كهيئات منفصلة ، واقتصر كثير منها على العمل محليا وفقدت كثيرا من اعضائها ، وكان مصير الاتحــاد الموحد الى الفشل فالقوى المضــاد كانت قوية جدا ، **وأستطاع أصحاب العمل أن يجعلوه يفشل فى مجرد العمل من اجل الاضراب ، ولو وصل الأمر الى حد الثورة فلا شك ان جميع القوىكانت ستتحد لتكون رهن تصرف الحكومة التى تجددت قوتها واكتسبت التأييد الجماهيرى فى اعقاب قانون الاصلاح ، وحاول أوين المستحيل كما هى عادته ، ولا شك أن اقتحامه المؤقت للمجال الصناعى أمر مثير للعجب والدهشة ، فقد وصلت النقابيـة حدا لم تصل اليه مرة ثانية خلال نصف قرن واستولت على خيال العمــال بصورة لم تبلغها أبدا منذ ذلك الحين ٠**

فلماذا هذا ؟ كان العمال عام ١٨٣٤ اكثر استعدادا لقبول التأثيـر عليهم ممن جاءوا بعدهم فى العصر الفكتورى ، فهم أكثر بؤسا واقل تعليما واعتيادا على قبول العبودية اليومية فى المصانع كقدر طبيعى للانسان ،ونظام

---

(١) مراسلات أوين . الاتحاد التعاونى . مانشستر ٠

المصانع جديد ولذا أكثر اثارة للعداء الغريزى ضده ، وسحق النظـــام الرأسمالى الجديد العمال بلا رحمة فاتجهوا فى يأسهم الى أى رأى جديد يبدو أنه يعدهم بالخلاص ، ووجد المتعصبون الدينيون ومن ارتدوا ثوب المسيح المنتظر والسياسيون والمبشرون بالخلاص فى ميدان الصناعة أن من السهل عليهم اجتذاب المريدين ، وعلى الجملة كان الناس أبسط تفكيرا مما هم الآن واستولت آراء أوين وقوة اقنـاعه على عقولهم فاتبعـــوه ليصل بهم الى الهزيمة ، لكنهم لم يحتملوا التغيير الفجائى الذى قابل به الهزيمة ، فقـــد التقت سبل الأوينية والنقابية من عام ١٨٢٠ الى عام ١٨٣٤ لكنها تباعدت حدة بعد عام ١٨٣٤ ، وانتهت فجأة قيادة أوين القصيرة الأمد للحـــركة العمالية ، وحلت الميثاقية Chartism محل التعاون كانجيل غالب للطبقـــة العاملة ٠



الفصل السابع عشر

الشيخوخة

OLD AGE



رأى أوين أن جريدة « الأزمة » قد انتهت أغراضها ، كما انتهت محاولته العظيمة لاستخدام النقابية أداة للاشتراكية بكارثة أصابت النقابات ، وتحولت الطبقة العاملة من العمل الصناعى الى الميثاقية Chartism وأقامت منظمة جديدة لتحقيق الأهداف الراديكالية التى فشل قانون الاصلاح لعام ١٨٣٢ فى تحقيقها ، وشغلت أذهان الجماهير بالكفاح ضد قانون الفقراء الجديد لعام ١٨٣٤ ومحاولة الاستيلاء على القوة السياسية كوسلية للحرية الاقتصادية ، ولم تتراجع الأوينية نهائيا الى غياهب النسيان لكنها أزيحت الى ركن قصى ، وصعد رجال آخرون الى القيادة ، ومات كوبيت عام ١٨٣٥ ، وتبعه هنرى هنت فى نفس العام وخلفهما فيرجس أوكونور Feargus O'Connor كقائد شعبى مرموق ، وانتقل زعماء الطبقة العاملة مثل لوفيت Lovett ، وهذرنجتون Hetherington وبرونيتر أوبريان Bronture O'Brian الذين عملوا مع أوين الى الحركة الميثاق ولو أنهم لم ينسوا مبادىء أوين ، وبقى كثيرون من أتباع أوين القدامى معه وظل هو بمبادئه سائرا فى سبيله يكتسب أنصارا جددا ، لكنهم جميعا لم يعودوا فى التيار الرئيسى لفكر الطبقة العاملة ٠

واتخذت حركة أوين شكلا جديدا ، وتوقفت بورصات العمل والنقابات بوصفها أساس الجمعيات التعاونية أو النقابات الحرفية عن أن تلعب دورا هاما فى تلك الحركة ، وكان السنوات من ١٨٣٠ الى ١٨٣٤ لم تكن أبدا ، وعاد أوين نفسه الى التبشير بأفكاره عن التعليم وأثر البيئة ، والى رسم تفاصيل مبادىء « العالم المعنوى الجديد » ، وأخذ يتجول فى أنحاء البلاد يحاضر لكنه الآن لم يتوجه الى النقابات ولا الى جماهير من الطبقة العاملة خاصة ، بل الى كل من يستجيب الى انجيله الأخلاقى الجديد ، ودارت محاضراته أكثر وأكثر حول محاور أخلاقية ودينية أكثر من تناولها لمسائل سياسية وصناعية ، وتحدث مرة أخرى عن المجتمع الجماعى وحث على انشاء القرى التعاونية كوسيلة لتحقيق النظام الجديد ، لكنه انشغل منذ ذلك الحين بحملة أخلاقية ودينية فى المقام الأول ٠

ولم يكن ذلك طريقا جديدا بل مجرد تغيير فى الاهتمام والتركيز ، فقد اتجهت الدعاية المباشرة للاوينية فى سنوات « الأزمة » المضطربة الى الناحية الاجتماعية الى جانب مغامرات أوين النقابية ، واحتفظت الجمعيات الأوينية فى أنحاء البلاد بوجودها المستقل وانضم اليها أعضاء جدد كثيرون ، وعمل أنصار أوين فى لندن تحت رعايته المباشرة من خلال المنظمة الأم التى سميت

عندئذ « جمعية الطبقات النشطة Association of Industrious Classes وفى يوليو ١٨٣٢ انشئت «جمعية المرسلين» Missionary Society (١) ثم سميت فيما بعد جمعية المرسلين والرسائل الاجتماعية Missionary and Tract Society واصبحت كمنظمة فرعية للدعوة على النطاق القومى ، ثم انشئت منظمة فرعية أخرى اسمها « المصلحون الاجتماعيون Social Reformers فى سبتمبر ١٨٣٣ بعد اجتماع فى مقهى لوفيت وكانت أغراضها اجتماعية (٢) ، وظلت الحركة تنبثق منها منظمات جديدة وتغير أسماء المنظمات الموجودة ، وهذا ما يجعل التطورات صعبة التتبع ٠

وبعد أن فارق أوين النقابات بعد كارثتها بقيت له شبكة المنظمات الأوينية البحتة ليركن اليها ، ولم يجد حاجة لبدء حركة جديدة بل كلما احتاج اليه تطوير حركة قائمة وحية لم تتأثر بانهيار خططه الواسعة الأخرى ، نعم فقد تأييد جماعة كبيرة من العمال لكن بقى له كامل ولاء اتباعه الذين اعتنقوا الأوينية كمبدأ اجتماعى لهم ، ويبدو انه لم يكد يدرك الانهيار الذى لم تفلت منه سوى هذه البقية الصغيرة ، فبدأ يخطط تخطيطا فخما واسع النطاق كما لم يسبق له من قبل من اجل الثورة الأخلاقية الكبرى التى يعتقد أنها ستأتى سريعا باحداث تغيير فى عقول وقلوب الناس ٠

وعبرت جريدته الجديدة « العالم المعنوى الجديد » عن هذا التغيير فى اتجاهه تعبيرا واضحا وتمثل نفس التغيير فى الجمعية الجديدة التى أنشأها باسم الجمعية البريطانية والاجنبية للصناعة والانسانيات والمعرفة ، وقد أعاد تنظيمها عام ١٨٣٥ مع غيرها من الهيئات الأوينية باسم جمعية جميع الطبقات من جميع الأمم Association of all classes of all nations وهو أسم يدل بوضوح على انفصال منشئها عن جميع أفكار صراع الطبقات كوسيلة لتحقيق مثله الأعلى ، وأعيد تنظيم الحركة كلها فى أنحاء البلاد ، فشكلت جمعيات أوينية أو أعيد تشكيلها فى معظم المدن الهامة ، وانبثقت عن هذه الجمعيات عام ١٨٣٧ هيئتان أخريان هما جمعية المبشرين والهداية الاجتماعية Social Missionary and Tract Society التى أريد منها أن تصبح أداة نشر الدعاية الأوينية فى أنحاء البلاد ، وجمعية الصداقة القومية للمجتمعات National Community Friendly Society التى كان عليها جمع الأموال لتجربة جديدة فى انشاء المجتمعات ، وفى خلال السنوات التالية عين ستة مبشرين Missionaries يسمون أحيانا « أساقفة اجتماعيين » "Social Bishops" واتخذوا مقارهم فى المدن الرئيسية وكانوا يتقاضون أجرا ومهمتهم التجوال فى أنحاء البلاد مبشرين بالانجيل الاجتماعى الجديد لكل الناس ، وفى عام ١٨٣٩ اتحدت الجمعيات المشار اليها وشكلت جمعية المجتمع العام للمتدينين الراشدين Universal Community Society of Rational Religionists التى غيرت أسمها مرة أخرى بعد ثلاث سنوات الى « الجمعية الراشدة "Rational Society" وفى غضون ذلك

---

(١) جريدة « الأزمة » عدد ٢١ يوليو ١٨٣٢

(٢) نفس المصدر السابق عدد ٢٨ سبتمبر ١٨٣٣ ٠

اقام اوين وبعض مؤيديه عام ١٨٤٠ جمعية الاستعمار الداخلى Home Colonistation Society وهى هيئة اخرى غرضها جمع الأموال لتمويل المجتمعات الأوينية خاصة مجتمع كوينوود Queenwood أو هارمونى هول Harmony Hall ، المجتمع الجديد الذى انشأته فعلا الجمعيات الأوينية عام ١٨٣٩ ٠

وواصل أوين نشاطه بلا هوادة اثناء تلك السنوات كتابه وخطابه ومن أهم مؤلفاته فى تلك الفترة المتأخرة كتاب العالم المعنوى الجديد The Book of the new moral world وقد ظهر على أجزاء فيما بين ١٨٣٦ و ١٨٤٤ (١) ، وحاول فيه بسط آرائه كاملة وعامة فكان بيانا وافيا لنظرياته التعليمية والأخلاقية والدينية لهيكل وادارة المجتمعات التى يقترحها ، ويعتبر الكتاب بيانا واضحا وان شابه أحيانا الحماس التنبؤى غير المتزن الذى تزايد لديه مع السن ، لكنه عموما ليس الا اعادة تأكيد لآرائه السابقة ، وصار كتاب العالم المعنوى الجديد انجيل حركة أوين تقرأ فصول منه بانتظام فى القاعات والمعاهد الأوينية كما تقرأ فصول الكتب المقدسة ٠

والكتاب أهم وأكبر كتب أوين الأخيرة ، لكن أثار كتاب آخر هو عبارة عن مجموعة المحاضرات التى القاها عام ١٨٣٥ ضجة اكبر من سابقة واستخدم فى الجدال ضده وضد اتباعه ، وعنوان هذا الكتاب « زواج قساوسة العالم القديم غير الأخلاقى The marriage of the priesthood of the old immoral world وهو فى الواقع شجب للأساس الدينى للزواج بوصفه عقبة فى سبيل العقل وانشاء نظام اجتماعى جديد ، ولا يؤيد أوين الفوضى ، لكنه يريد تحرير الزواج من كل القيود الدينية بحيث يصبح عقد الزواج مدنيا وقابلا للانهاء ، ولقى أعداء أوين واعداء الاشتراكية ضالتهم فى هذا الكتاب وهاجموا أوين كما هاجموا الأوينيين لا بوصفهم كفار وملاحدة فقط بل لأنهم أيضا من مؤيدى الفوضى الجنسية ، فكتب اوين عام ١٨٣٨ كتابا بعنوان نظام الزواج فى العالم المعنوى الجديد أعاد فيه عرض حججه بوضوح واعتدال ، لكن الكتاب السابق خدم أغراض اعدائه واتخذوه سلاحا دائما ورئيسيا ضد طائفة اوين رغم انه مجموعة محاضرات لم تصحح القاها اوين فى اجتماعات عامة ، وانا استخدم كلمة « طائفة » هنا لغرض اقصده وهو أن الأوينيين فى هذه الفترة لم يعودوا يهتمون بالتغيير الاشتراكى أو الاقتصادى وأصبحوا فى

---

(١) الجزء الاول عام ١٨٣٦ ، والثانى والثالث عام ١٨٤٢ والرابع حتى السابع عام ١٨٤٤ ٠

(٢) المراد الزواج على يد القسيسين اى جميع عقود الزواج التى تجرى طبقا للقواعد الدينية ٠

الواقع طائفة لها دين اجتماعى خاص بها ، وأقاموا فى جميع المدن التى لهم فيها وجود قوى مبانيهم الخاصة التى سميت فى البداية « مؤسسات اجتماعية » Social Institutions تقليدا لمؤسسة أوين فى لندن ، ثم فضلوا على ذلك اسم « قاعة العلم » Hall of Science وأصبحت هذه المبانى فى الواقع « كنائس عقلية Rational churches سبقت الكنائس الأخلاقية Ethical Churches التى نعهدها فى زماننا الحاضر ، ويدل تغيير الاسم من جمعية المجتمع العام للمتدينين الراشدين Universal community Society of Rational Religionists الى الجمعية الراشدة Rational Society على مرحلة متأخرة فى هذا التحول وتحول المبشرون الأوينيون الذين بدأوا باستخدام مبادىء أوين الخلقية فى الدعوة لاقامة المجتمعات ، فاسقطوا فيما بعد فكرة المجتمعات وركزوا على التعاليم الأخلاقية والعلمانية ، وكما تركت الأوينيين فى مرحلة سابقة الحركة التعاونية فقد تحولت الآن الى انشاء الحركة العلمانية المنظمة ٠

وتتبع عدد من وعاظ الطوائف الدينية أوين ومبشرية وأخذوا يعارضونهم ويصفونهم بالكفر ومخالفة الأخلاق ، ويستندون الى آراء أوين أو يحرفونها فيما يتعلق بالدين والزواج ويعرضون هذه الآراء المحرفة فى محاضراتهم على الجماهير واستطاعوا أن يقنعوا السلطات فى أحيان كثيرة بأن ترفض منح الأوينيين قاعات وأن يحثوا الغوغاء على أفساد اجتماعاتهم ، وكان بناء « قاعات العلم » Halls of Science هو فى الغالب رد أوين على أبعاده عن أماكن الاجتماع المؤجرة ، ونظمت مناظرات احيانا بين الأوينيين ومعارضيهم وناظر أوين نفسه القس ج ٠ هـ ٠ روبك J.H. Roebuch عام ١٨٣٧ ، والقس و ٠ ليج W. Legg عام ١٨٣٩ و ج ٠ برندلى J. Brindley عام ١٨٤١ ، لكنه فى الواقع لم يناظر ويجادل بل اهتم خاصة بعرض آرائه دون أن يلقى بالا الى مخالفيه ، وأدلى بتصريح ساذج عقب مناقشته مع برندلى أكثر ناقديه غلظة وأحدهم لسانا فقال : « كنت أخسر لحظات ثمينة جدا لو أننى التفت الى ما قد يقوله مستر برندلى بدلا من اغتنام هذه اللحظات فى اخبار العالم ما أريد أن يتعلمه منى » (١) ، فقد كان أوين يرى المناظرة مجرد منبر يردد منه ما يراه حقا ، والواقع انه كان محاضرا مقنعا عندما يصعد المنبر ويستأثر به لنفسه ، لكنه لم يكن كذلك فى المناظرات ٠

ولم تتحول حركة أوين بالكامل الى جمعية اخلاقية الا بعد ان فشلت محاولتها الكبرى الأخيرة فى انشاء المجتمعات وانتهت بكارثة ، فقد اشترى

---

(١) العالم المعنوى الجديد ، مجلد ٩ ، ص ٨٧ ٠

الأوينيون هارمونى هــول وكوينزوود يقــرب ايست تايذرلى Tytherley هامبشير Hampshire عام ١٨٣٩ وبدأ العمل فورا فى تحويلها الى قرية تعاونيه نموذجية تقوم على الانتاج الزراعى بشكل رئيسى . وعرضوا على أوين منصب محافظ المجتمع لكنه رفض على اعتبار أن الموارد المتاحة التى جمعت أساسا عن طريق الاشتراكات من الهيئات الأوينية لا تكفى للغرض . لكن الأوينيين صمموا على أن يبدأوا مشروعا ما ، فعينوا جون فينش John Finch من ليفربول ، محافظا للقرية ، وسرعان ما بدأت المتاعب ، فلم تكن المبانى كافية لعدد المقيمين ولم يتوافر المال لبناء المزيد ، واشتغل بالزراعــة قوم دربوا على حرف أخرى تختلف عنها تمام الاختلاف فلم ينتجوا الانتاج المطلوب لتغطية الانفاق رغم أن المدير الزراعى الدام Aldam كان فلاحــا متمرسا ، واضطر المشروع الى تشغيل بعض العمال المستأجرين ، وفى عــام ١٨٤١ انخفض عدد السكان انخفاضا كبيرا جدا ، وعمل أوين عام ١٨٤١ على جمع المزيد من الأموال من خلال جمعية الاستعمار الداخلى التى انشئت فى السنة السابقة ، وعين أوين محافظا بسلطات كاملة .

ورسم أوين خطته كالعادة على نطاق كبير فخم ، واستعان بهانســوم الذى كان فى نقابة البنائين الطائفية واستغل خبرته المعمارية وبدأ يقيــم المبانى وكأنها القصور ، حوت أحدث وأحسن المعدات والأثـــاث والرياش الثمينة الغالية واستأجر مزارع جديدة رغم أن المزارع التى بين يدى الجمعية لم تكن تدر ربحا ، وجريا على مبادئه التى يلتزم بها دائما أقام مدرســة وزودها بالمعدات الجيدة وأعدها لتعليم أطفال سكان القرية بل واتباع مبادئه فى أنحاء البلاد ، وظل أوين محافظا لكوينوود ثلاث سنوات وظل طــوال هذه المدة يسحب المال من الجمعيات الأوينية من أغنياء العاطفين على مبادئه وتجاربه ، واضطر الى فصل المرسلين الاجتماعيين فلم تتوافر الأموال لدفع مرتباتهم ، ودفع أحد العاطفين على الحركة واسمه ف . بيتس F. Bates أكثر من ١٢٫٠٠٠ جنيه لمشروع كوينوود الذى انفق عليه أوين ما مجمــوعة ٤٠٫٠٠٠ جنيه ، وجعل أوين من كوينوود معرضا يقصد وكانت المدرســة جيدة الادارة لكن الأحوال الماليــة ســـارت من سىء الى أسوأ ووجـــدت الجمعيات الأوينية أن الضغط المالى عليها شديد فبدأت تئن وتنتقد قـائدها الذى ظلت تعبده حتى ذلك الحين ، وفى غيبة أوين انتخب مؤتمر جمعيـــة الراشدين عام ١٨٤٤ جون فينش John Finch رئيســـا لــه بدلا من أوين وأصدر سلسلة من القرارات تتعلق بادارة المجتمع ، وكان أوين يرى الرئاسة حقه بلا منازع فكان انتخاب فينش تحديا له ولسلطته ، وقام بتلك الحـــركة أساسا مندوبو الجمعيات الأوينية فى شمال انجلترا ، وكانوا أصلب رأيــا وأقل خضوعا لسحر أوين من سكان لندن .

واستقل أوين فورا من رئاسة الجمعية ومن منصب محافظ كوينــوود وقال أنه لن يشغل المنصب الا اذا كانت سلطاته غير محـــدودة وأصر على

الغاء قرارات المؤتمر اذا أريد منه أن يظل فى مكانه ، ورفض المؤتمر قراراته وانتخب جود باكستون وهو عامل من مانشستر رئيسا للجمعية ولقرية كوينوود بدلا من اوين وتقاعد اوين عندئذ وانسحب من كل نشاط يتعلق بالحركة وغادر انجلترا ليزور أولاده فى الولايات المتحدة زيارة طويلة ، وكان فى السبعين من عمره حين تقلد منصب محافظ كوينوود وبلغ الثالثة والسبعين عندما استقال .

وقاومت القرية ذاتها تحت الادارة الجديدة لمدة سنة بعد اجراء تخفيضات حادة فى الانفاق ساعدت على تقليل الخسائر ، لكن الخسارة استمرت ولم يكن فى الامكان دفع فائدة على رأس المال الكبير المدفوع فى المشروع ، وقرر مؤتمر جمعية الراشدين عم ١٨٤٥ تصفية المشروع وانهت كوينوود حياتها كمجتمع تعاونى فى عام ١٨٤٥ وأصبحت مدرسة واصلت عملها لسنوات عديدة بعد ذلك على مبادىء أوين ، وبيعت جريدة العالم المعنوى الجديد بعد أن ظلت اكثر من عشر سنوات تعبر عن رأى الحركة .

واستمر جيمس هيل James Hill الذى اشترى الجريدة يصدرها خلال العام التالى كجريدة نصف أوينية ، وأصدر ج٠١ فلمنج G.A. Fleming الذى كان رئيسا لتحرير الجريدة ، جريدة جديدة باسم « العالم المعنوى The Moral World لكنها لم تنجح واحتجبت بعد شهور قليلة وعاشت جمعية الراشدين زمنا ثم انقسمت الى هيئات محلية كانت فى الأصل من مكوناتها واختفت بعض هذه الهيئات المحلية بل كثير منها وانتهت الأوينية كحركة شعبية منظمة .

وماتت حركة « المجتمعات » فى الواقع بعد فشل كوينوود ، وعندما أصدر جوج جاكوب هولي‌أوك George Jacob Holyooke جريدة ريزونر Reasoner أعلن أنها مشاعية Communistic فى الاقتصاد السياسى ونفعية Utilitarian فى الأخلاق وجمهورية فى السياسة وغير لاهوتية anti-theologica فى الدين ، (١) لكن ما لبث مبدأ المشاعية أن أسقط وترك سريعا لتحل محله مبادىء أخرى وصارت جريدة ريزونر علمانية فى المقام الأول وهو تغيير يتوافق مع الموقف الجديد للجمعيات الأوينية التى بقيت على قيد الحياة .

والواقع انه لما عاد الأوينيون مثل هولى أوك الى الحديث عن التعاون كان حديثهم عن حركة تعاونية جديدة مختلفة فى حقيقتها عن الحركة الأولى ،

---

(١) جريدة « ريزونر » المجلد الأول ، صفحة ١٤٢ .

بل أن أوين نفسه فقد الاهتمام بعد عام ١٨٣٤ بالجمعيات التعاونية الانتاجية والمحلات التعاونية الاستهلاكية على السواء ، والحقيقة ان التعـــاونيات الانتاجية سحقت مع هزيمة النقابات ، وكان على هذه التعاونيات أن تنتظر لتبعث فى أيام كنجزلى Kingsley والمسيحيين الاشتراكيين ، لكن تجـارة التجزئة التعاونية كانت أسهل ممارسة فلم تمت تماما ، وقد أعلن أوين عام ١٨٣٦ عن دهشته لوجود عدة جمعيات تعاونية فى كارليسل فقال « آن الأوان لانهاء الفكرة التى تسود فى ذهن الجمهور من أن هذا هو النظام الاشتراكى الذى نريده أو أن هذا يشكل جزء من ترتيبات العالم المعنوى الجديد » (١) ٠

لكن اذا كانت هذه الجمعيات شيئا تافها فى نظر أوين ورأيه عن المجتمع الجديد ، فقد ظلت حتى عام ١٨٤٤ حينما فتحت الفئة الأوينية الصـــغيرة المعروفة بسم رواد روتشديل مخزنها الأول فى تودلين Tood Lane ، وكان الرواد متأثرين بآراء أوين ومن انصاره المتحمسين كما تدل أقوالهم بصراحة ، فلم يبدأوا فى بيع السلع الأعضاء جمعيتهم فحسب بل رأوا أن « يبـــدأوا بصنع السلع التى تقرر الجمعية صنعها لتشغيل الأعضاء الذين بلا عمـــل أو الذين يعانون من جراء التخفيض المتوالى فى الأجـــور « وقالوا » على الجمعية بمجرد ان يصبح ذلك ممكنا أن تبدأ فى تنظيم قوى الانتاج والتوزيع والتعليم والحكم أو بعبارة اخرى ان تقيم مستعمرة محلية من المصـــالح المتحدة تعتمد على نفسها أو أن تساعد الجمعيات الأخرى فى اقامة مثل هذه المستعمرات ٠

لكن اذا كان رواد روتشديل من حيث المبدأ تعاونيين بالمعنى الذى عناه أوين فقد كان لزاما عليهم أن يعملوا على نجاح مشروعهم ، وقصـــة ذلك مبسوطة فى التواريخ التى كتبت عن التعاون ، وكلهـــا ترى فى المخـــزن الصغير فى تودلين بداية الحركة التعاونية الاستهلاكية الحديثة ، وتقــــرر أن يبدأ « العائد على المشتريات » الذى اجتذبت به الجمعية مساندة أعضائها هو الاساس الذى قامت عليه الحركة ، ويخرج كل ذلك عن نطاق غرض هذا الكتاب ، فبالرغم من أن التعاونيين يشيدون بأوين كمؤسس لهذا النظـــام فان أوين لو عاد الى العالم فمن المشكوك فيه أن يعترف بأبوته له أو يسترعى منه اكثر من نظرة عابرة ، ذلك لأن الحركة الأوينية قادت الى التعـــاون الاستهلاكى صدفة كما نعلم ، أما السؤال الهام فهو الى أى حد سوف يقود التعاون الاستهلاكى فى تطوره الى تأكيد المبادىء الاشتراكيـــة التى انبثق منها فى الأصل ؟

---

(١) العالم المعنوى الجديد ، المجلد الثالث ، ص ٢٦ ٠

ويدخل رواد روتشديل والحركة التعاونية الحديثة نطاق هذه القصة لأنهم يحظون باهتمام الأوينيين ولو أن الحركة ذاتها لم تحرك اهتمام أوين ذاته ، فقد دخل هولي‌أوك ووليم بار وغيرهما كثير مما كانوا من انشط الدعاة للأوينية ميدان التعاون وأصبحوا من انشط الدعاة لحركة التعاون الاستهلاكي واستطاعوا لحد ما أن يعيدوا علاقتهم بالطبقة العاملة من هذا السبيل ، لكن التعاون الجديد لم يعد انجيلا للثورة بل ولا حتى للتمرد ، فقد تلون بلون البيئة وتطور كمعادل عمالي للشركات المساهمة وكميدان لاستثمار مدخرات الطبقة العمالية وتجسيد لمثاليات العهد الفكتوري من التوفير والمساعدة الذاتية . وكانت الحركة الميثاقية ، وهي آخر حركات التمرد العمالية ، تدخل طور التراجع عندما فتح رواد روتشديل حانوتهم ، وجعلت الحركة النقابية الفكتورية والحركة التعاونية الفكتورية هدفها اقامة سلام مع النظام الرأسمالي مع حماية العمال من اساءاته .

وليس لأوين دور في هذه الثمرات الغريبة التي انتجتها البذور التي بذرها فقد كان في أمريكا في معظم الأحيان بين عامي ١٨٤٤ و ١٨٤٧ ولم يحضر الى انجلترا سوى في زيارات قصيرة . وقسم وقته بين البقاء مع أبنائه في نيوهارموني والقيام بجولات محاضرات في أنحاء الولايات المتحدة مدهشة بالنسبة لرجل في مثل سنه ، وكان قد انفق كل أمواله وآخرها ما انفقه في تجربة كوينوود ، وأغرق جل ثروته في نيوهارموني وحول له أبناؤه أثناء تلك التجربة كل ما يملكون في مصانع نيولانارك وتبلغ قيمته ٢٠٫٠٠٠ جنيه ، وخسر هذا المبلغ أيضا ولم يعد يملك شيئا في عام ١٨٤٤ ، لكن أبناؤه الذين انتقل اليهم ما بقي من نيوهارموني كان لديهم بعض أموال ، فقدموا اليه ما يصفه بودمور بأنه « حساب مطبوخ بجرأة » ووعدوا بأن يدفعوا له ٣٦٠ جنيها سنويا طيلة حياته ، وهو ما يعادل فائدة بوقع ٦٪ على دين خيالي قدره ٦٠٠٠ جنيه ، وكانت احتياجات أوين الشخصية ضئيلة بقدر ما كانت قدرته كبيرة على انفاق رأس المال على المشروعات الضخمة ، وبهذا الدخل المتواضع استطاع « مستر أوين صاحب نيولانارك » الثرى في يوم من الأيام أن يعيش بقية أيامه في راحة ورخاء بل وأن يمول عددا من النشرات والمشروعات الصغيرة .

فلم تكن طبيعة أوين تسمح له بالانسحاب الكامل من العمل النشط برغم سنه ، ففي عام ١٨٤٥ دعا الى عقد « مؤتمر عالمي » في نيويورك وبسط مرة أخرى اراءه المعتادة وحاول في عام ١٨٤٦ أن يسوى مشكلة حدود أوريجون التي ثارت بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، وفي عام ١٨٤٧ بعد أن غادر أمريكا نهائيا حاول أن يدخل الانتخابات البرلمانية وأصدر رسالة انتخابية راديكالية كمرشح لماريليبون Marylebone يطالب باجراء اصلاحات وفرض ضريبة تصاعدية على الممتلكات والغاء كل الضرائب الأخرى وحرية

التجارة والتعليم للجميع والعمل للجميع ممن لا يجدون عملا واصلاح النظام النقدى بحيث يمكن زيادة أو انقاص التداول بحسب مقدار الثروة المتداولة ، لكنه لم يشترك فى الانتخابات ·

وفى العام التالى وهو عام الثورات ١٨٤٨ ذهب الى باريس واخـذ يصدر الكتيبات والنشرات بجد ونشاط شارحا النظام الذى يقترحه وحاثا لوى بلان Louis Blane ولامارتين Lamertine وقادة الثورة الآخرين على استخدامه كوسيلة لاقرار نظام جديد فى الشئون الانسانية ، واقترح عـام ١٨٥٢ وهو فى الواحدة والثمانين من عمـره أن يرشح نفسـه عن دائرة أولدهام Oldham لكنه انسحب مرة أخرى قبل يوم التصويت ·

ومن عام ١٨٤٤ حين ترك « العـالم المعنوى الجـديد » الى عـام ١٨٥٠ لم تكن له دوريـة تعبـر عنه تحـت يده لكنـه بعد عـودته الى انجلترا تسـلطت عليـه الرغبـة فى الكتـابة مـرة أخرى فنشر عام ١٨٤٩ « الثورة فى عقل وممارسة الجنس البشرى Revolution in the mind and Practice of the Human Race وهو كتاب شرح فيه آراءه مرة أخرى ثم « خطابات اسـبوعية للجنس البشرى (١٨٥٠) Weakly letters to the Human Race وجريدة روبرت أوين (١٨٥٢/٥١) ثم المجـلة العقليـة الفصلية Rational quarterly Review التى صـدرت طوال عام ١٨٥٣وأعقبها « الوجود الجديد للانسان على الأرض The new Existance of man upon Earth وهو نوع من السيرة الذاتية فى شكل فصلى يتضمن تقارير عن أعماله وبياناته المبكرة ، وهو نواة سيرته الذاتية التى ظهرت فى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ ، وكانت آخر مشروعاته جريدة العصر الألفى لروبرت أويـن Robert Owen Millenial Gazette التى ظلت تصـدر من عام ١٨٥٦ حتى وفاته عام ١٨٥٨ ·

وفى عـام ١٨٥٣ عندما بلغ الثمانيـة والثمانين آمن بالروحيـة Spiritualism ووقع تحت تأثير الملة الجـديدة التى انتشـرت من أمريكا الى أوروبا ، وجاءت أول اشارة منه الى ذلك فى الجريدة العقلية الفصلية . ومنذ ذلك الحين صارت الظواهر الروحية تختلط فى ذهنه بالمبادىء الأخلاقية والاجتماعية التى يبشر بها اختلاطا لاخلاص منه ، ونظرا لأن أوين عاش بعد أن مات زملاؤه فقد كان يحضر أرواحهم فى الجلسات وصار فى قبضـة الوسطاء يستغلونه كيف شاءوا خاصـة سيدة اسـمها مسز هـايدن Mrs. Hyden جاءت الى انجلترا من الولايات المتحدة ، وأصبح معـارفه جفرسون ، وبنيامين فرانكلين ، وشكسبير ، وشيللى ، ونابليـون ، ودون ولنجتون والنبى دانيال ، لكن أخص زواره الروحيين المترددين عليه كان دون كنت الذى كان يقدم له معونته باستمرار فى حملاته الأولى ، وكتب أوين يقول فى هذا الصدد : « كانت علاقاته الروحية بى أمتع ما يمكن وكان يحـدد

مواعيده ويقابلنى فى اليوم والساعة والدقيقة التى يحددها ولم يخلف ابدا مواعيده بالدقيقة التى يحددها (وكانت تلك المواعيد كثيرة ما دام بجانبى وسطاء أستطيع الاعتماد عليهم » (١) ·

وكان أوين فى هذه الأيام رجلا مريضا ، وبعد عودته من امريكا عام ١٨٤٧ ذهب ليعيش فى فندق كوكس Cox's Hotel بشارع جيرمين Jermyn Street حيث رعاه مستر كوكس وأسرته وكانت بينه وبينهم صداقة ، ورأى أصدقاؤه عام ١٨٥٣ أن من الأفضل أن يعيش فى الريف ، وبناء على تعليمات من ابنه روبرت ديل أوين استأجروا له مسكنا فى بارك فـــارم Park Farm فى ســـفن أوكس Sevenoaks ، وفى نفس الوقـــت ذهـــب جيمس ريجبى James Rigby احد المندوبين الأصليين لاتحاد البنائين ثم أحد المرســلين الأوينيين المخلصين فيما بعد ليعيش معه ويرعى شئونه ·

ولم تكن مهمة ريجى هينة ، فطول هذه السنوات الأخيرة استمر أوين يبذل نشاطا دائما بلا فاعلية ، وأخذ يرسل الى الملكة فيكتوريا وغيرها من أصحاب التيجان والوزراء مذكرات وتقارير لا نهاية لها عن نظامه الجديد ، ويسافر الى لندن لمقابلة الوسطاء ويدعو الى عقد « مؤتمرات للعقول الراقية » Congresses of advanced minds ، وكذلك « مؤتمرات للمصــلحين فى العالم Congresses of Reformers of the world وامثال ذلك،والظاهر ان هذه المؤتمرات لم يحضرها سوى قلة من المخلصين لأوين وبعض عابرى السبيا من هنا وهناك ، وفيها كان يقرأ أوين أوراقا وتقارير كثيرة جدا يختلط فيها الثمين بالغث ، والمعقول بغير المعقول ، والآراء الاقتصادية بالآراء الأخلاقية ، بالرسائل التى تصله من أرواح من انتقلوا للعالم الآخر ، وغـــالبا ما كان ريجبى يقرأ له تلك الرسائل والتقارير والأوراق ثم يدير المناقشـــات التى لا طائل تحتها ، ويمكن لمن يريد الالمام بالمزيد عن ذلك أن يقرأ جريدة العصر الألفى Millennial Gazette (٢) ·

ويدل على اثر أوين الشخصى على اتباعه وحبهم له اســتمرارهم فى احترامه ووده حتى فى هذه السنوات الأخيرة ، وكان مركز النشـــــاوط الأوينى فى عندئذ المؤسسة الأدبية والعلميــة Literary and Scientific Institution فى شـــارع جــون ، وفيهـــا كان يقـــام احتفـــــال خاص فى عيد ميلاد أوين لتكريمه ، فيخطب قادة الأوينية ويبذلون كل جهــد ممكن ليشعر الرجل بأنه مازال فى شيخوخته مركز حركة حيـــة ، بينما فى الحقيقة ماتت الأوينية بل ومعها أوين نفسه منذ زمن طويل ·

---

(١) حياة أوين ، ص ٣١٦ ·

(٢) على سبيل المثال : تقرير مؤتمر العقول الراقية فى عدد أول أغسطس ١٨٥٧ ·

ونشر أوين عام ١٨٥٧ وهو فى السابعة والثمانين اكثر كتبه حيوية واخصها بالقراءة وهو المجلد الأول من سيرة حياته التى لم تكتمل ولولا ذلك لقيل عنه انه مات وانتهى ، وقد اقتبست منها كثيرا فى الفصول السابقة وآمل انني استطعت أن أقدم للقارىء فكرة ما عن بساطتها التى ترفعها الى مرتبة الامتياز ، وكان اوين قد رسم خطة لكتابة سيرته الذاتية فى عام ١٨٢٥ بعد انسحابه من الاتحاد الموحد وربما كتب جزءا كبيرا منها عندئذ ، وظهر كثير منها فعلا فى « الوجود الجديد للانسان على الأرض » الذى يسبقها ببضع سنوات ، ولا شك أن الخطابات والمحاورات الاستهلالية التى تشكل جزءا كبيرا من المجلد المنشور عام ١٨٥٧ تختلف كثيرا عن السيرة ذاتها وليس فيها غير القليل مما يحكى قصة أوين حتى العشرينيات من القرن التاسع عشر ، أى انها لا تتناول نيو هارموني ولا اقتحام أوين لميدان العمل السياسى للطبقة العاملة ، وظهر مجلد آخر ١٨٥٨ ورقمه (١ أ) لكنه يتألف كله من ملحقات أعاد فيها اوين نشر أهم تقاريره وكتاباته المبكرة بما فيها « نظرة جديدة للمجتمع » و « تقرير الى مقاطعة لانارك » أما عن حياته ذاتها فلم يكتب عنها شيئا آخر رغم أن هناك قطع من السيرة الذاتية مبعثرة خلال كتاباته الكثيرة المتأخرة ، ومختصر عن حياته يغطى فترة أطول نوعا ظهر فى جريدة روبرت أوين ٠

وكان المجلدان من سيرته الذاتية آخر مؤلفاته . وفى عام ١٨٥٧ تحمس جدا لنبأ انشاء الجمعية القومية للنهوض بالعلوم الاجتماعية National association for the promotion of social science التى قام بالعبء الأكبر فى انشائها صديقه القديم والوفى لورد بروهام Lord Brougham ولم يستطع الحضور لكنه أرسل خمسة بحوث للجلسة الافتتاحية ، قرىء منها بحثان فى اجتماعات الجمعية فى برمنجهام ٠

واجتمعت الجمعية فى العام التالى فى ليفربول واصر أوين على الحضور ليلقى بنفسه رسالته الأخيرة الى الجنس البشرى (١) ، وكتب بعد انهاء بحثه المقدم للاجتماع ٠٠ « هذا فيما أعتقد سيكون آخر جهد لى وأريد له أن يكون المتوج لمجهودى فانى يملؤنى الألم » (٢) ٠

ويرغم الآلام سافر أوين الى ليفربول حيث اضطر لملازمة الفراش ، لكنه أصر فى يوم الاجتماع على أن يرتدى ثيابه ويذهب الى القاعة . « حمله اربعة رجال شرطة الى المنبر . وهذه مسألة تاريخ عام نقصه وننبت كيف كان لورد بروهام كريما وشفوقا . فحين رأى صديقه القديم أخذه من ذراعه وقاده وطلب من الحضور سماعه . ثم أعلن مستر أوين على طريقته المشهورة رسالته الخالدة عن العلم والنية الحسنة للعالم . وعندما بلغ ختام الجزء الأول انهم

---

(١) حضر أيضا مؤتمر الميثاقيين بلندن فى فبراير ١٨٥٨ وتحدث فيه ٠

(٢) خطاب الى [illegible] ص ٦٢٥

لورد بروهام القراءة حتى النهاية احتراما لضعف صديقه ، ثم صفق له وقال « رائع ، جيد جدا ، لا يمكن أن يكون احسن من ذلك يا مستر أوين ، هــذا يكفي » وفي صوت خفيض قال » ريجبي خذ السيد الشيخ الى فراشه » وحمل أوين من الاجتماع وبمجرد وصوله الى فراشه فقد الوعي » (١) ٠

ولم تتح لأوين فرصة الخروج من العالم في شكل درامي ، فبعــد أن أمضى أسبوعين ملازما الفراش في ليفربول استعاد قواه ، لكنــه بدلا من العودة الى سفن أوكس قرر أن يزور مسقط رأسه ، فســافر بالقطــار الى شروزبرى ومنها بالعربة الى نيوتاون وبعد أن زار المنزل الذي ولد فيــه ذهب لزيارة صديق قديم مات منذ عشرين سنة ثم عاد الى شروزبرى ، وهنا غير رايه وكتب الى مستر توماس في نيوتاون يرجوه عقد اجتماع عام ووعد بأن يعود لالقاء كلمة فيه ، وعاد فعلا واقام في فندق حيث تركه ريجبى في رعاية طبيب وذهب الى لندن للبحث عن روبرت ديل اوين الذي كان في زيارة هناك ، وفي غياب ريجبى أرسل اوين عميد نيوتاون ورتب معه سلسلة مــن الاجتماعات العامة ورسم خطة لاعادة تنظيم التعليم في البلدة ، وعاد ريجبى مع روبرت ديل ليجده في حالة سيئة وفي اليوم التالى ١٧ نوفمــبر ١٨٥٨ « أسلم الروح بهدوء وسلام وكانه غارق في النوم » وكانت آخر كلمــاته « جاء الخلاص » (٢) ٠

ودفن اوين بجوار والديه في ساحة الكنيسة القــديمة في نيوتاون ، ويوجد قبره وعليه لوحة تذكارية وسور اقامتها الحركة التعاونية عام ١٩٠٢ بجوار الجدار المتهدم للكنيسة القديمة ٠

---

(١) هولى أوك ، حياة وآخر أيام روبرت أوين ، ص ٠٧

(٢) خطاب من روبرت ديل أوين ، أورده بودمور ، صفحة ٦٢٩ ٠

الفصل الثامن عشر

خاتمـــة

CONCLUSION



من الأفضل فى كثير من الأحيان أن تترك السيرة لتشرح نفسها ويحسن بكاتب السيرة أن يحتفظ بارائه وتفسيراته فى الخلفية أو يعبر عنها بمنهاجه فى اختيار الحقائق وترتيبها ، لكننى لا أستطيع أن أترك سيرة أوين لتتحدث عن نفسها بهذه الطريقة لأننى وجدت افكارا سائدة تبدو لى نظرة خاطئة اليه أو على الأقل نظرة من زاوية خاطئة ، فقد عاش أوين حتى وصل الى الشيخوخة المتأخرة فبلغ السابعة والثمانين حين مات ، وأصيب فى سنواته الأخيرة بشىء من عتة الشيخوخة ، وحتى قبل مغامرته الأخيرة مع الروحانيات كان قد فقد اتزان عقله ، فواضح اذن أنه من الظلم والتضليل أن نحكم عليه مما صنع فى شيخوخته أو أن ننظر اليه فى ضوء هذه التصرفات المتأخرة ·

لكن تلك هى الصورة التى رأيتها لأوين ثابتة فى عقول الناس ، فهم يرونه رجلا شيخا يختلط بشعاع عقله اللامع هذر غير معقول بل قد يغلب الهذر الشعاع ، ولو أنه مات فى الثالثة والستين عام ١٨٣٤ لما أصبحت صورته هكذا ، وهى ليست صورة حقيقية له بلولا حتى صورة كاريكاتورية مقبولة الا بعد أن بلغ عمرا يزيد عن متوسط العمر العادى ، ويجب أن نحكم عليه كما كان لا فى سنوات شيخوخته الطويلة بل كما كان فى أوج رجولته ·

وكان فيه بالطبع حتى فى ذلك الوقت شىء آخر الى جانب العبقرية ، شىء غير عادى ، فقد كان « شديد اليقين » كما قال عنه ديفيد ديل ، بل كان متعصبا لما يعتقده ،فهويفكر وحده ويصل الى النتائج بنفسه وعندئذ لا يمكن تحويله ابدا عن تلك النتائج ولو فى أقل تفاصيلها مهما كانت الحجة التى تساق اليه ، وكان لا يحاجج أحدا أبدا بل يعيد بسط آرائه وينتظر بصبر الى أن يرى مستمعوه الحق فيما يقول ، فقد أغلق عقله عن كل تأثيرات تأتى اليه من الخارج ، ولأنه صنع نفسه بنفسه بكل ما فى هذا القول من معنى فقد اعتقد أن تجربته قد فتحت له أبواب الحقيقة فلا يحتاج لهداية من أحد فلا يستطيع الحياة الا فى نوره هو ثم ارتكب خطأ باعتقاده أن نوره يكفى لاضاءة طريق الآخرين ، ولهذا السبب كان يستطيع القيادة ولا يستطيع الاتباع ويستطيع التنظيم ولا يستطيع أن يتعاون مع أحد أبدا ، ويريد من كل من يتصل به الطاعة الكلية والتسليم الكامل لنوره الشخصى الداخلى ·

لكن من أين جاء هذا النور ؟ كان مغرما بالقول تبعا لنظريته عن الشخصية والأخلاق بأن النور جاءه فقط من تجربته الخاصة ، وعلمته بيئته أن يفكر بالطريقة التى يفكر بها ويصل الى الحقيقة بينما يتخبط الآخرون فى الضلال ، لكن من الواضح أن بعض هؤلاء الآخرين عاش فى بيئة تماثل بيئته ، غير أن ليس كل غلام قروى عمل مساعدا فى حانوت ثم صار رجل

صناعة كبير وجد نفسه مدفوعا دفعا لا يمكن مقاومته نحو الأيمان بالتعاون بدلا من المنافسة ، والعقلانية بدلا من التدين التقليدى ، وتعليم الفقـــراء والمحتاجين بدلا من قمعهم ، فواضح أن تفسير اوين لشخصيته ليس تفسيرا صحيحا أبدا بل يتضمن خلطا بين الشخصية والاعتقاد وهو خلط صــار معتادا فى تفكيره ، فربما صنعت البيئة شخصيته لكنها أبدا لم تمل عليــه معتقداته وأن اثرت عليها وشكلتها بالطبع ٠

لكن الى اى حد استعار أوين آراءه من الآخرين ؟ والى أى حد تاثر بفكر المفكرين والكتاب السابقين له ؟ لا نملك ردا على هذا السؤال فلا نعرف لأنه هو لم يعرف نفسه ، كان فى شبابه قارئا شرها ، لكن لا أظن أنه استعار فكـــرة واحـــدة ممـا قـــرأ قصـدا وعـن وعى ، بل تمثـــل ما أراد ممـا قـرأه فى الكتب ومـا سـمع من آراء من قابلهـــم ، لكــن كل مـا اســـتمده مــن ذلك كله أفـرزه فى شـــكل مختلف بـدا له انه نتـــاج عقله وحده ، ولا شك أن الآخرين دفعوه الى التفكير لكنه كان يفكر دائمـــا بنفسه لنفسه ٠

فليس مما له جدوى أن نبحث الى أى حد كان أوين مدينا للكتـــاب السابقين ، وواضح أن هناك شبها كبيرا بين آرائه عن التعليم والتربيـــة بين آراء روسو لكن لا نستطيع القطع بأنه قرأ كتاب « اميل » ، وكان صديقا لوليم جودوين وربما قرأ « العدالة السياسية Political Justice وهو كتاب يفسر آراء روسو للانجليز ، ولابد أنه تحدث كثيرا مع جودين وربمـــا تعلم منه الكثير ، وتقترب أفكاره من بعض الموضوعات من أفكار جودوين كثيرا ، لكن مما لا شك فيه أن جميع نظرياته الأساسية نشأت وتطورت فى ذهنه قبل أن يقابل جودوين بوقت طويل ، وربما تعلم أيضـا من بستالوتزى Pestalozzi ومن فيلنبرج Fellenberg وغيرهما من الرواد التربويين ، لكنه أنشأ مدارسه الخاصة وادارها فى نيولانارك قبل زيارته للقارة الأوروبية وهى الزيارة التى اتصل فيها اتصالا مباشرا بهؤلاء ، ويذكرنا تقريره الى مقاطعة لانارك فى بعض أجزائه بمحاضرات توماس هودجسـكين المعاصرة تقريبا عــن الاقتصاد السياسى الشعبى Popular Political Economy التى القاها فى المعهد الصناعى بلندن ، كما تذكرنا فى مواضع أخرى بدراسة وليم كوبيت بعنوان : بحث ضد الذهب « Paper against Gold » ، وربما عرف الاثنين ، لكن لا دليل على انه عرف أيا منهما فى ذلك الوقت ٠

ولا شك أن أى انسانلا يصل الى أفكاره كلها بنفسه وبلا مساعدة فى ضوء ذهنه فحسب ، لكن وجود تشابه فى الأفكار ليس دليلا أبدا على استعارة الفكر ، لأن المشكلات المتشابهة والظروف المتشابهة توحى لمختلف العقـــول بأفكار متشابهة ، وتعزى الأصالة الى الأفكار على أساس مجرد أسبقيتها فى تاريخ التسجيل ، ولا يجدينا البحث فى موضوع الى أى حد أخذ أوين أفكار

الآخرين ، ويكفى أن نوضح أن تفكيره لم يكن مجرد نزوة منعزلة عموف العصر بل فى أوجه شبه وثيقة لفكر العقول الأصيلة فى معاصريه فكان يحاول مثلهم حل ألغاز هذا الزمان فينتهى الى حلول وأفكار مطابقة لأفكارهم أو وثيقة الصلة بها ٠

ويختلف أوين - مع ذلك - عن معظم الكتاب فى أنه لم يكن أبدا « مثقفا » Intellectual أو دارسا بالمعنى المعتاد ، فالفكر بالنسبة اليه أداة وليس عملا قائما بذاته ٠ فهو لا يلقى بالا الى ديونه للآخرين ولا يعيها لأنه يفكر فى المشكلات لا فى الأشخاص وفى هذا تكمن قوته لكنه مكمن ضعفه أيضا ، فقد أعتاد أن يقود الأمور العملية واعتاد أيضا العزلة ، وطبق نفس الطريقة على تفكيره فأصبح أوتوقراطيا فى الذهن ومنعزلا وفقد التواصل المتساوى بين العقول الذى هو دافع قوى نحو الاكتشافات الجديدة ، وكان متأكدا دائما من أنه على حق مما جعله يغلق الباب أمام الآراء الجديدة ٠

وواضح أن هذا الانغلاق العقلى الصارم المتسم بالثقة كان السبب فى اضطراب توازنه الذهنى فى شيخوخته ، فما من انسان على قوة كافية تمكنه من الحياة على نوره الداخلى الخاص ، كما كان أيضا سببا قوية فى فشله عندما غادر نيولانارك حيث كان الراسمالى الخير الذى له السلطات المطلقة ، ودخل ميدان العمل الذى يتطلب بعض أشكال التعاون الديمقراطى مع الآخرين ، وليس سميث وموريسون سوى اثنين من كثيرين وجدوا أن أوين لا يريد من يشاركه العمل على قدم المساواة بل يريد اتباعا يكرسون كل ولائهم لتنفيذ ارادته ٠

ومن الصعب معرفة الى أى حد كان موقفه الذهنى هذا خليقة فيه ، أو الى أى تطور فيه بسبب نظرياته أو جنبا الى جنب معها ، لقد كان معتمدا على نفسه منذ البداية وتدلنا وقائع حياته قبل ذهابه الى منشستر ثم تاريخه العملى فى مانشستر على أنه يثق فى نفسه ثقة تامة لا حدود لها ، وأعتقد أن نظرياته انبثقت من هذا الموقف العقلى رغم أنها لا تتفق معه من بعض النواحى ، فهو يرى أن للبيئة أثر عظيم جدا على الشخصية والأخلاق ويدين بشدة بيئة « العالم غير الأخلاقى القديم » مما جعله ينظر الى الناس جميعا كأطفال يجب انقاذهم ، لا يتركهم يعتمدون على أنفسهم ويتعلمون بل يتدخل قوة بارة تأتى لتغير البيئة التى يعيشون فيها ، ولم يكن متمشيا مع نفسه سوى فى ظنه أنه على قدرة كافية ليصبح هذه القوة المنقذة الخيرة بل أنه حاول تفسير هذا التناقض بقوله أن النور الذى لديه جاء كله كثمرة لخبرته وتجاربه الخاصة ٠

وما لبث كل من عمل مع أوين ان اكتشف عاجلا أو آجلا أنه ينظر اليه كطفل ويعتبر نفسه الرسول المختار للتنوير وأن على الجميع أن يسلموا

اليه ارادتهم ويفوضوا اليه الحكم لمصلحتهم الشخصية ، وثار الاقوياء مثل سميث وموريسون على هذه الوصاية المفروضة ، ولم يستسلم لها سوى الضعفاء ، ولذا كان أشد أنصاره ولاء ضعاف الرجال الذين هم على استعداد لتسليم ارادتهم لمن هو اقوى منهم روحا ٠

وهذه هى الحقيقة المؤلمة والمدمرة ، لكننا اذا لم نر فى أوين غيرها لكنا على خطأ عظيم ، اذ انه امتلك برغم هذا الخطأ المميت قدرة عجيبة على بعث حبه فى قلوب الناس ، ولا يرجعذلك الى تجرده التام الذى اعترف به حتى أعداؤه لأن التجرد وحده شىء سلبى بارد لا يبعث أى دفء بينما كان أوين لا يوحى بالثناء البارد والثقة الفاترة بل يبعث الحب له فى النفوس ٠

ومن هنا جاءت قوته التى تبدو غريبة من روح تحتوى نفسها وتعتزل الغير ، وشعر بها الناس لأن اوين لم يكن مجرد « رجل بر وخير » كما يقال عنه لكنه رجل دافىء القلب مملوء حبا ، وقد رأينا كيف أحبه الأطفال فى نيولانارك ، وواضح انه احبهم ايضا لا كمجموعة بل احبهم فردا فردا ، ولم يحب الأطفال وحدهم ، وقد امتلك فى سنوات عمله الأولى تلك الصفة النادرة وهى أنه كان يشعر بحب الخير لجميع الجنس البشرى احب كل انسان يتصل به ، وكان يتحدث الى مستمعيه فى الاجتماعات وكأنه يحبهم جميعا ويحبهم كأفراد ، وأحس الناس بهذا الشعور الجميل منه فأحبوه بدورهم وقدموا اليه بلا تحفظ أحسن ما لديهم ٠

ولم يكن ج ٠ أ ٠ سميث رجلا لينا ،ولا شك ان حكمه ـ خاصة حين يحتد ويقاتل ـ لابد أن يكون حكما قاسيا ، لكنه حتى فى ازمة المعركة التى ثارت بينه وبين أوين عام ١٨٣٤ كتب الى أخيه يقول انهما « بالرغم من ذلك ظلا صديقين حميمين» (١) ، وكتب الى أوين بعد ذلك بسنوات يقول:أن « روحه الطيبة اكسبته أصدقاء كثيرين مثلما اكسبته مبادؤه » (٢) ٠

وبينما كان موريسون فى قمة الغضب من أبعاد جريدة « الرائد » عن أن تكون لسان الاتحاد الموحد مما أضر بتوزيعها ، كتب هذه العبارات « يؤلمنا ان نكتب فكرنا الحر غير المقيد لاننا نحب الرجل لأنه يحب الناس ، لكننا نخشاه أيضا لهذا الحب ذاته ، وأحلى الاستبداد هو استبداد الحب وهذا ما نسلم به لمستر أوين ، لكن فى طريقته تنمو الأشواك ، واذا نظرنا الى المستقبل ولأرض الميعاد بأمل لا يحد فان ذلك يدفع بالجنس البشرى الى متاهة من

---

(١) حياة سميث ، ص ١١٣ ٠

(٢) حياة سميث ، ص ٢٠٩ ٠

الأشواك والأوحال قبل أن يستعد نصف هذا الجنس البشرى لخوضها » (١)
فاللهجة هنا ليست لهجة مرارة أبدا بل لهجة محب خاب أمله ٠

وكان لوفيت أكثر نقدا لا سيما لموقف أوين « غير الديمقراطى » (٢) ٠
لكنه يرى أنه « من الضرورى القول بأنى أكن أعظم الاحترام لنوايا مستر
أوين الكريمة وشعوره الخير الدافق لكنه اختلف مع كثير من آرائه » (٣) ٠
وبقى هنرى هذرنجتون Henry Hetherington صديق لوفيت ومحرر
جريدة الرجل الفقير Poor man's Guardian .والمكافح الصلب من أجل حرية
الصحافة من اتباع أوين المخلصين الى النهاية ، وكتب فى وصيته يقول :
« أشعر بالامتنان لمستر أوين للسعادة التى أحسستها فى التفكير فى علو
قدر نظامه ولذا لا أستطيع الموت فى سعادة الا اذا أوصيت مواطنى بدراسة
مبادئه والجهاد بصدق من أجل ارسائها عمليا » ، وتحدث قبل ذلك عن
« انتمائه الصادق الى مبادىء الرجل العظيم الطيب روبرت أوين » (٤) ٠

تلك شهادات الأنصار أما شهادات المعارضين فأعظم دلالة ، وقد أوردنا
فى فصل سابق توصيات فرانسيس بلاس المتحمسة بشكل غير عادى ، وقال
لورد بروجهام عن أوين « واحد من أكثر الرجال انسانية وابسطهم عقلا
وأحبهم على هذه الأرض » وقال عنه أيضا أنه « كان من أكثر الناس الذين
تحدثت معهم هدوءا واخلاصا (٥) ، وكتبت هاريت مارتينو « طالما يظل
اسم روبرت أوين يذكر ويسمع به فسوف يضحك البعض لكن الكثيرين سوف
يحبونه ويحتفون به » ، لكنها كانت تعرف أخطار أوين كما تدل الفقرة التالية «
فى كل لحظة كانت خططه ستجرب فى قطر أو آخر مما كان سيفتح لها سائر
الاقطار ، وكل من عامله باحترام واهتمام اعتبر من اتباعه ، ومن عارضه
علنا كان نصيبه ابتسامة طيبة وقيل عنه أنه من اناس لهم عيون سليمة جدا
لكنهم دخلوا صدفة فى غابة ولم يستطيعوا رؤية طريقهم وسط الأشجار ،
وظل دائما نفس الانسان المرح السعيد حتى فى شيخوخته يعتقد وينتظر ما
يرغبه ، واتصفت تصرفاته دائما بالأدب وأخلاق الرجل النبيل ، وظل دائما
على علاقة مودة بأبنائه الذين أحبوا أن يجعلوه ــ كما قالوا ــ أسعد شيخ
فى العالم ، ودائما لطيفا حتى فى رأيه المتصلب ودائما على حق فى وصفه
للبؤس الانسانى ، ودائما يظن أنه أثبت شيئا لم يفعل سوى التأكيد عليه

---

(١) جريدة الرائد ، عدد ٧ يونيو ١٨٣٤ ٠

(٢) حياة وكفاح لوفيت ، ص ٤٧ ٠

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٣ ٠

(٤) أورده م ٠ بير فى كتاب تاريخ الاشتراكية البريطانية ، المجلد الثانى ، ص ٧ ٠

(٥) خطبة فى مجلس العموم فى ١٦ ديسمبر ١٨١٩ ٠

فى ضوء اعتقاده الخاص ، ودائما يقصد شيئا أكثر عقلانية ورشدا مما قال فعلا » (١) ٠

وقال عنه ماكولى الذى لم يكن أبدا ناقدا عطوفا « كان مضجرا لطيفا وأنه » كان يهرب عند أول ما يسمع كلامه » (٢) ٠ وقال عنه ليزل ستيفان فى تاريخ حياته فى قاموس السير القومية : « كان واحدا من هؤلاء المضجرين الذين هم ملح الأرض » ، ولا شك أن أوين كان مضجرا ، وقد أثبت هو نفسه ذلك فى كثير من المناسبات ، وعندما هرب ماكولى كان أوين يعيد القول فى شرح « نظامه الجديد » لعضو البرلمان شيل Shail الأيرلندى أثناء حفلة رقص تنكرية ، وكان أوين يعتقد أن كل انسان يمكن التحدث معـــه وفى أى وقت وفى أية مناسبة ، وكان يسترسل فى الحديث لكنه يحتفظ بأصدقائه الذين يقدرونه لصداقته ولحديثه أيضا ، وكان أوين يضجر أصدقائه ولكن بطريقة لطيفة ويقول عنه سوذى Southey بليغ وقليل من يتكلمون أحسن منــه أو يكتبون جيدا مثله (٣) ، وكيفما كان الحال فهناك أســوأ من أن يكون الانسان مضجرا ، ومعظم من لهم رسالة قد يصبحون مضجرين ، لكـــن لا نستطيع سوى التسليم بأن أوين كان مضجرا فى سنواته الأخيرة بشـــكل كبير ، غير أن من أضجرهم كانوا يقدرون فيه سحر شخصيته التى كانت لها عليهم جاذبية قوية ، فاذا لم يقنع فانه دائما يمتع ٠

ويتوقف تسامحنا مع المضجرين شعورنا بقيمة ما يقولون ، ولم يكـــن لدى أوين الكثير ليقوله وقال ما لديه مرات ومرات لكن بينها قليل ممـا لـه أهمية عظمى ، ففى زمن وقف رجال الصناعة والسـياسة على اســتعداد للدفاع عن كل رذائل الثورة الصناعية ، وقف وهو رجل الصناعة الكبيـر ليعارضهم ويوضح مزايا وفاعلية تحسين الأحوال فى المصانع ومعـــاملة العمال بانسانية وبينما ينشد كل « الرجال العمليين » اناشيد مديح فضائل المنافسة الراسمالية فطن أوين لرذائل هذا النظام بل ورأى أيضا نظاما آخر جديدا يقوم على التعاون والزمالة بين البشر ، وبينما كان يعتبر « نظـــام العرفاء » Monitorial System نظاما تعليميا متقـــدما ، وحين تخلت الدولة عن كل مسئولية فى تربية مواطنيها ، طالب أوين بالتعليم العـــام المجانى بل وقدم البرهان العملى عليه ، وبينما غرق العمال فى لجة اليــاس من جراء أحوال المصانع كان ايمانه وأمله يدفعانهم الى توجيه ضربة منظمة من أجل الحرية الاقتصادية ، وليس عبثا أن تنظر اليه حركات كثيرة باعتباره مؤسسها أو مصدر وحيها الأول ٠

---

(١) مارتينو ، مذكرات ذاتية ، ص ٢١٣ ٠

(٢) تريفليان ، حياة ماكولى ، المجلد الأول ، ص ٢٢٠ ٠

(٣) سوذى ، سير توماس مور ، المجلد الأول ، ص ١٩٤٤ ٠

واذا كان قد فقد فى سنواته المتاخرة اللمسة العملية والقـــدرة على التنظيم التى جعلت من نيولانارك المصنع المثالى والمدرسة المثالية والقـرية المثالية فى أوربا ، فلنتذكر أنه كان شيخا عندما انغمس فى الكفـــاح الذى التصق باسمه ، وعندما أنشأ نيوهارمونى كان فى الرابعة والخمســـين ، وكان فى الواحدة والستين حين بدأ بورصة العمل ، وفى الثانية او الثالثة والستين حين ساعد فى انشاء الاتحاد الموحد ، وفى السبعين حين أصـــبح محافظ كوينورد وفى الثانية والثمانين عندما اتجه الى الروحانيات ، فلا نحكم عليه وهو فى شخيخوخته بل وهو فى أوج رجولته وبأعماله عندئذ ، فستجد انه لا يعوزه شيء من دعائم العظمة التى بلغها ، ولن نراه رجلا عظيما فحسب بل رجلا حريا بأن يحب ، لقد كانت أخطاؤه بادية لكن كانت فضائله اشـــد وضوحا وافحاما وتحدث بلاس عن « آرائه غير المعقولة » ، حسنا ليكن ، لكن « الآراء غير المعقولة » والمضجرين هم فى غالب الأحيان ملح الأرض ٠

اولا :

بعض المراجـــع

التى تناولت موضوع روبرت اوين

نورد فيما يلى بعض المراجع الهامة موجهين النظر الى ان اســـماء الكتب قد اوردناها بالحروف الانجليزية الكبيرة .. اما الكتيبات فقد اوردناها باسلوب الكتابة العادى ومعظم هذه المراجع صدرت فى لندن الا بعضها الذى صدر فى اماكن اخرى ذكرناها امام كل مرجع ... كما نوجه نظر الباحثين بأن هناك سيرة كاملة لحياة روبرت اوين وجهوده اصدرتها المكتبة القومية فى مقاطعة ويلز .

PRINCIPAL WRITINGS OF ROBERT OWEN

Books are printed in capitals, pamphlets in ordinary type. In order of publication; published in London unless a place is given. An excellent full bibliography of Owen's writings is published by the National Library of Wales.

A Statement regarding the New Lanark Establishment. Edinburgh, 1812.

A NEW VIEW OF SOCIETY : or Essays on the Principle of the Formation of the Human Character. 1813-14.

Observations on the Effect of the Manufacturing System 1815.

An Address delivered to the Inhabitants of New Lanark. 1816.

Two Memorials on behalf of the Working Classes. 1818.

REPORT TO THE COUNTRY OF LANARK. Glasgow, 1821.

Report of the Proceedings at Dublin. Dublin, 1823.

Owen's American Discourses. Louisville, 1825.

Memorial to the Mexican Republic. Philadelphia, 1827.

DEBATE ON THE EVIDENCES OF CHRISTIANITY (Owen and Rev. A. Campbell). Bethany, Va., 1829.

Addresses preparatory to a Practical Plan for the Relief of All Classes. 1830.

Lectures on an Entire New State of Society. 1830.

OUTLINE OF THE RATIONAL SYSTEM OF SOCIETY. 1830.

Lectures on Charity. 1833-4.

Lectures on the Marriages of the Priesthood of the Old Immoral World. Leeds, 1835.

THE BOOK OF THE NEW MORAL WORLD. 1836-44.

Six Lectures delivered in Manchester. Manchester, 1837.

PUBLIC DISCUSSION (Owen and J. H. Roebuck.) Manchester, 1837.

The Catechism of the New Moral World. Manchester, 1838.

THE MARRIAGE SYSTEM OF THE NEW WORLD. Leeds, 1838.

A DEVELOPMENT OF THE PRINCIPLES AND PLANS ON WHICH TO ESTABLISH HOME Colonies 1841.

LECTURES ON THE RATIONAL SYSTEM OF SOCIETY. 1841.

PUBLIC DISCUSSION (Owen and J. Brindley). Birmingham, 1841.

Letters on Education. 1849.

THE REVOLUTION IN THE MIND AND PRACTICE OF THE HUMAN RACE. 1849.

Tracts for the World's Fair. 1851.

The Future of the Human Race. 1853.

THE NEW EXISTENCE OF MAN UPON THE EARTH. 1854-5.

Tracts on the Coming Millennium. 1855.

THE LIFE OR ROBERT OWEN. Vol. I. 1857.

THE LIFE OF ROBERT OWWEN. SUPPLEMENTARY APPENDIX. Vol. 1A. 1588.

(This reprints many of Owen's early writings, and contains much valuable material.)

ثانيا :

بعض الدوريات
التى حررها او اشرف عليها روبرت اوين

PERIODICALS EDITED OR CONTROLLED BY OWEN.

THE CRISIS. 1832-4.

THE NEW MORAL WORLD. London. Manchester, Birmingham, and Leeds. 1835-1845.

WEEKLY LETTERS TO THE HUMAN RACE 1850.

ROBERT OWEN'S JOURNAL. 1851-2.

ROBERT OWEN'S RATIONAL QUARTERLY REVIEW. 1853.

(New Existence of Man upon the Earth. See under A. above.) 1854-5.

ROBERT OWEN'S MILLENNIAL GAZETTE. 1856-8.

ثالثاً :

بعض المراجع
التي تفيد الباحثين والدارسين في التعرف
على سيرة روبرت اوين ونظرية الاوينية

BOOKS USEFUL FOR THE STUDY OF OWEN AND OWENISM

A. LIVES AND STUDIES

(In order of publication, except the works of R.O. and R.D.O. Books in capitals, pamphlets in ordinary type. Published in London unless a place is given.)

Robert Owen : THE LIFE OF ROBERT OWEN. Vol. I. (to about 1822, with some appendices). 1857.

Robert Owen : THE LIFE OF ROBERT OWEN. Vol. Ia. Appendices (covering the same period). 1858.

(Vol. I. has been reprinted in Bohn's Popular Library, but without the prefatory matter or the appendices, which are important.)

Robert Owen : THE NEW EXISTENCE OF MAN UPON THE EARTH. 8 Parts (contains much autobiographical matter subsequently worked over in the Life) .1854-5.

Robert Dale Owen : THREADING MY WAY (autobiography). 1874.

"Robert". Robert Owen, Esq., the Unique. 1823.

J. Watts : Robert Owen the Visionary. Manchester, 1843.

M.R.L. Reybaud : In ETUDE SUR LES REFORMATEURS CONTEMPORAIRES. Paris, 1849.

G.J. Holyoake : Life and Last Days of Robert Owen. 1859.

W.L. Sargent : ROBERT OWEN AND HIS SOCIAL PHILOSOPHY. 1860.

Harriet Martineau : In BIOGRAPHICAL SKETCHES. 1869.

J.O. Wolbers : ROBERT OWEN (in Dutch). Utrecht, 1878.

Charles Bradlaugh : In Five Dead Men Whom I Knew. 1884.

E.R.A. Seligman : Robert Owen and the Christian Socialists. Boston, 1886.

Lloyd Jones : LIFE, TIMES AND LABOURS OF ROBERT OWEN. 1889-90.

Leslie Stephen : In DICTIONARY OF NATIONAL BIOGRAPHY. Vol. 42. 1895.

A. Fabre : UN SOCIALISTE PRATIQUE : ROBERT OWEN. Nimes, 1896.

J. Glasse : Robert Owen and his Life Work. 1900.

Helène Simon : ROBERT OWEN : SEIN LEBEN UND SEINE BEDETUNG FUR DIE GSGENWURT. Jena, 1905.

E. Dolléans : ROBERT OWEN. Paris, 1905.

F. PODMORE : ROBERT OWEN : A BIOGRAPHY. 1906.

R. E. Davies : The Life of Robert Owen. 1907.

Richard Roberts : Robert Owen (in Welsh). Carnarvon, 1907.

G.R.S. Taylor : In LEADERS OF SOCIALISM. 1908.

Joseph Clayton : ROBERT OWEN : PIONEER OF SOCIAL REFORM. 1908.

B.L. Hutchins : Robert Owen : Social Reformer. 1912.

C.E.M. Joad : Robert Owen : Idealist. 1917.

Joseph McCabe : ROBERT OWEN. 1920.

G.D.H. Cole : The life of Robert Owen 1930.

B. Other Works

Manchester.

Wheeler : History of Manchester. 1836.

Bruton : Short History of Manchester and Salford. Manchester, 1924.

New Lanark

A. Cullen : Adventures in Socialism. 1910.

R. Dale Owen : Outline of the System of Education at New Lanark. Glasgow. 1824.

"Robert" Robert Owen at New Lanarh. Manchester. 1830.

E. Baines, etc. : Report of the Leeds Deputation to New Lanark. Leeds, 1816.

J. Griscom : A Year in Europe. Vol. II New York, 1823.

Alien : The Life of William Allen.

H.G. Macnab : The New Views of Mr. Owen of Lanark. Impartially Considered. 1819.

New Harmony, Queenwood, Orbiston, ex.

A. Cullen : as above.

A. Combe : The Sphere of Joint Stock Companies (Orbiston). Edinburgh, 1825.

A. Kent : Co-operative Communities in the United States Washington, 1901.

C. Nordhoff : Communistic Societies of the United States. New York. 1874.

J.H. Noyes : History of American Socialisms. 1870.

M.K.E. Blake : Hearts Haven (N.H). Indianapolis, 1900.

P. Brown : Twelve Months in New Harmony. Cincinnati, 1827.

W. Herbert : A Visit to the Colony of Harmony 1825.

R.D. Owen, etc. : New Harmony Gazette. 1825-9.

G.B. Lockwood : The New Harmony Movement. 1905.

E.T. Craig : The Story of Ralahine.

G.J. Holyoake : A Visit to Harmony Hall (Queenwood). 1844.

A. Somerville : A Journey to Harmony Hall (Queenwood). 1843.

M. Hennell : Social Systems and Communities founded on Co-operation. 1844.

W. Thompson : Practical Directions for the Establishment of Communities. 1830.

Labour Exchanges, Builder's Guild, the Trades Union.

S. and B. Webb : History of Trade Unionism (revised edition). 1920.

R.W. Postgate : The Builders' History. 1923.

R.W. Postgate : Revolution (documents and notes). 1920.

Max Beer : History of British Socialism. Vol. I. 1920.

W.A. Smith. : Shepherd Smith the Universalist (J.E. Smith). 1892.

The Pioneer (edited by Morrison). 1833-4.

G.J. Holyoake : History of Co-operation. 1875-9.

Later Owenite Movements.

G.J. Holyoake : Sixty Years of an Agitator's Life. 1892.

J. McCabe ; Life and Letters of G.J. Holyoake. 1908.

Add to the above a mass of contemporary pamphlets, prospectuses and other documents issued by the Owenite Societies and their opponents.



- تنظيم وادارة الجمعيات التعاونية للاستهلاك . مكتبة عين شمس ١٩٥٩
- تطور التعاون وفلسفته فى ضوء الاشتراكية العربية .
  الدارالقومية للطباعة والنشر ١٩٦٢
- دور المؤسسات العامة التعاونية فى الاقتصاد القومى .
  مكتب السيد رئيس الجمهورية للبحوث الاقتصادية ١٩٦٣
- التعاون فى المملكة المتحـدة .
  مكتب السيد رئيس الجمهورية للبحوث الاقتصادية ١٩٦٣
- التعاون الاسـتهلاكى (تاريخه ونظمه ومشـكلاته) . مكتبة عين شمس ١٩٦٤
- نحو حركة تعاونيـة نظيفة . الاهـرام الاقتصادى ١٩٦٥
- نحو بنيـان تعاونى سـليم . الاهرام الاقتصادى ١٩٦٦
- تطور مفهوم ديمقراطية الادارة فى التنظيمات التعاونية .
  جامعة الدول العربية ـ مكتبة عين شمس ١٩٦٧
- اصـول التنظيم والادارة فى المؤسسات والتعاونيات . مكتبة عين شمس ١٩٦٨
- التنظيم التعـاونى . مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- نشـاة الفكر التعاونى وتطوره . مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى فى بريطانيا . مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى فى بعض الدول الاشتراكية والاسكندنافية .
  مكتبة عين شمس
- نحـو بنيان تعاونى جديد . مكتبة عين شمس ١٩٧٠
- التعليم التعاونى . المجلة العلمية لكلية التجارة وجامعة الدول العربية ١٩٧٠
- التطبيق التعاونى الاشتراكى . مكتبة عين شمس ١٩٧٢
- التطور التعاونى الاشتراكى فى مصر وتشيكوسلوفاكيا مكتبة عين شمس ١٩٧٣
- اصـول الادارة العلمية . مكتبة عين شمس ١٩٧٤
- دراسـات فى التسويق التعاونى . مكتبة عين شمس ١٩٧٤
- الثور ةالادارية ومشـكلات التعاون . مكتبة عين شمس ١٩٧٥
- الادارة بين النظرية والتطبيق . مكتبة عين شمس ١٩٧٦
- التعاون ـ تاريخه ـ فلسفته ـ اهدافه مكتبة عين شمس ١٩٧٦
- التسويق التعاونى ـ مبادئه ومشكلاته مكتبة عين شمس ١٩٧٧
- تطـور التنظيم التعـاونى مكتبة عين شمس ١٩٧٩
- التخطيط التعاونى والنشاط التسويقى مكتبة عين شمس ١٩٨٠
- التعـاون بين التشريع والتطبيق مكتبة عين شمس ١٩٨٢
- بحوث ودراسـات فى التعاون مكتبة عين شمس ١٩٨٣
- تنظيم الملكية الزراعية واستغلالها مكتبة عين شمس ١٩٨٤
- روبـرت أوين مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- دكتـور وليـم كنج مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- فردريك فلهلم رايفـيزن مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- تاريخ رواد روتشـديل مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- قصة رواد التعاون ومبادئ التعاون الدولية مكتبة عين شمس ١٩٨٥
- Statement on Co-Operative Structure
- Egyptian Cooperative Structure
- The Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies.
  Published by : Egyptian Society For Cooperative Studies 1976.

تعريف ببعض أوجه نشاط الباحث

- عضـو هيئة التدريس فى كلية التجارة جامعة عين شمس منـذ ١٩٤٨ وتدرج فى مناصب هيئة التدريس الى الاستاذية ، ومازال استاذا بها حتى الان ٠
- كاتب بصحف دار التعـاون للطبع والنشر وله مقال أسـبوعى منذ عام ١٩٥٩ حتى الان ٠
- تولى امانة ثم عمادة المعهد العالى للدراسات التعاونية والادارية منذ انشـائه عـام ١٩٦٠ حتى الان ٠
- رئيس مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات التعاونية التى تملك المعهد العالى للدراسات التعاونية والادارية ، والمجلة المصرية للدراسات التاونية ومركـز البحوث التعاونية ، ومركز تنمية العلاقات التعاونية الدولية ، ومركز التـدريب التعـاونى ٠
- رئيس تحرير المجلة المصرية للدراسات التعاونية منذ صدورها فى عـام ١٩٦٨ وصدر قرار من مصلحة الاستعلامات بذلك ، وعضو نقابة الصحفيين ٠
- نائب رئيس اللجنة الزراعية للحلف التعاونى الدولى الدولى منذ عام ١٩٧٦ واعيد انتخابه فى اكتوبر عام ١٩٨٠ لمدة تالية حتى عام ١٩٨٤ ٠
- عضـو اللجنة المركزية للحلف التعاونى ، ولجنة الصحافة التعاونية ، وعديد من لجان الحلف النوعيـة ٠
- مستشارا لجامعة الدول العربية فى الشئون الاجتماعية والتعاونية والادارية ٠
- عضو مجالس ادارة الاتحادات التعـاونية المركزية للتعـاون الاسـتهلاكى ، والانتاجى ، والاسكانى والزراعى ٠
- تحت رعاية رياسة الجمهورية تولى الامانة العامة للمؤتمر التعـاونى الاستهلاكى الاول عـام ١٩٨٠ ٠
- عضو فى المجالس القومية المتخصصة (المجلس القومى للتنمية الاجتماعية والخدمات وعضو شعبتى الحكم المحلى والتنمية الادارية) ٠
- عضو المجلس الأعلى لقطاع التموين ، وعضو الجمعية العمومية للعـديد من شركات وزارة التمـوين ٠
- عضو مجلس ادارة اكاديمية السادات للعلوم الادارية ٠
- عضو الشـعبة المصرية للمعهد الدولى للعلوم الادارية ٠
- رأس المؤتمر الدولى الثالث للتجارة التعاونية الدولية بالقاهرة الذى نظمه الحلف التعاونى الدولى سنة ١٩٨٢ ٠
- رأس مؤتمر الاصـلاح ازراعى بصـوفيا الذى نظمه الحلف التعـاونى الدولى بالتنسيق مع الاتحاد التعاونى فى بلغاريا سنة ١٩٨٣ ٠
- اختير خبيرا بالهيئة الاستشارية التعاونية الكندية التى تضم ابرز علماء وخبراء الحركة التعاونية فى العالم ١٩٨٤ ٠
- رأس النـدوة الدولية لادارة التنظيمات التعاونية فى الدول العربية التى نظمها المعهد العالى للدراسات التعاونية والادارية سنة ١٩٨٥ بالتنسيق مع اتحاد رايفزن العـالمى ٠
- عضـو مجلس ادارة صـندوق تمويل المساكن ـ وزارة التعمير والمجتمعات الجديدة واستصلاح الاراضى سنة ١٩٨٥ ٠
- رئيس اللجنة الاستشارية الدائمة للأمانة العـامة للاتحاد التعاونى العـربى سنة ١٩٨٥ ٠

بعـده ٠٠٠

تابع : تعريف ببعض أوجه نشاط الباحث

- اسهم فى العمل السياسى ، حيث اختير عضوا فى المؤتمر القومى للقوى الشعبية ٠

- وامينا للمكتب التنفيذى بكلية التجارة جامعة عين شمس ٠

- وعضوا منتخبا بلجنة المائة التى اختيرت على مستوى الجمهورية لوضع اسس الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ٠

- وعضوا منتخبا باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ٠

- تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية سلمه السيد رئيس الوزراء تمثال الامتياز الادارى كاحد رواد الادارة فى مصر فى عيد الادارة الثالث الذى نظمته اكاديمية ادارة الاعمال واتحاد الجمعيات العلمية العاملة فى مجال الادارة ١٩٨١ ٠

- تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية سلمه رئيس الوزراء درع العيد الخمسينى للبنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى (١٩٣١ - ١٩٨١) للدور البارز الذى قام به فى اعداد التعاونيين وخدمة الاقتصاد القومى ٠

- منحة السيد رئيس الجمهورية وسام الجمهورية من الطبقة الثانية تقديرا لحميد صفاته وجليل خدماته ٠٠ عام ١٩٨٣ ٠

- تحت رعاية السيد رئيس الجمهورية سلمه السيد رئيس الوزراء ميدالية وشهادة تقدير فى العيد الماسى للحركة التعاونية المصرية (١٩٠٨ - ١٩٨٣) ٠



ABUL KHEIR, Kamal Hamdy, born in Cairo, U.A.R., on 16 December 1922. Profession: University Dean and Professor. Married one child.

Education. B.Com., Faculty of Commerce, Ain Shams University, 1943–47; Postgraduate Diploma in Organization and Management, ibid., 1952–53, in Marketing, 1953–54, in Stock-Exchange Studies in Cotton, 1954–55; Ph.D., Organization and Management of Cooperatives, 1960.

Appointments held: Member of Staff, Faculty of Commerce, Ain Shams University, 1948; currently Professor, Business Administration Department, ibid.; Consultant, Presidential Bureau for Economic Research, 1961; Dean, Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies, 1961; Member, Supreme Council for Reorganization of the Cooperative Movement, 1968; Consultant to the Cooperative Committee, Central Committee of the Arab Socialist Union; Member, Higher Cooperative Supreme Councils of Agriculture, Consumer, and Producer. Books published: (university textbooks) Principals of Organization and Management, 1961; The Development of the Cooperative Movement in the U.A.R., 1962; Consumers Cooperation, 1964; Comparative Cooperative Systems in Many Lands, 1967; Cooperative Organization, 1969; Towards New Cooperative Structure, 1970; The Development of Cooperative Thought, 1970; Cooperative Application in Great Britain, 1970; (published by Al-Ahram Economic Review) Towards a Clean Cooperative Movement, 1964; Towards Sound Cooperative Movement, 1966 (issued by the President's Office for Economic Research) The Cooperative Movement in the United Kingdom, 1962; The Role of Cooperative Organization in the National Economy (U.A.R.), 1962. Contributor to professional journals and newspapers.

Professional affiliations: Egyptian Society for Cooperative Studies (Vice-Chairman, 1962); Congress of the Arab Socialist Union. Address: Higher Institute of Cooperative and Managerial Studies, El-Monira, Cairo, U.A.R.

بالرجوع الى القاموس الدولى بعنوان « أبرز ٢٠٠٠ من علماء العالم

Two Thousand Men of Achievement

الصادر في عام ١٩٧١ ، تقول مقدمته :

أن أسماء العلماء الذين تضمنهم هذا القاموس هم الصفوة الممتازة من أبرز علماء العالم تقدما وعطاءا ٠٠ وأن أسماءهم تعتبر أكثر أسماء علماء العالم دورانا على ألسنة الناس والمجتمعات ، وأن الوثائق التي تتضمن نشاطهم وجهدهم ستظل محفوظة على مر العصور في أرشيف « ميلروز Melrose **بلندن ودارتماوث** Dartmouth **وهو الثغر الذى هاجر منه الآباء والأجداد الانجليز في عام ١٦٢٠ من انجلترا الى العالم الجديد ٠**

عنوان المراسلات مع القاموس الدولى :

All communications to : Two Thousand Men of Achievement, Artillery Mansions, Victoria Street, London S.W.1., England.

ورد اسم الدكتور كمال حمدى أبو الخير ، في هذا القاموس في الصفحة رقم (٢)



تـم بحمــد الله تعــالى

رقم الايداع بدار الكتب ٥٠٧٩ / ١٩٨٥
الترقيم الدولى ٢ ـ ٠٠٥٩ ـ ٠٧ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهـرة)
ص ٠ ب : ٥٨ (الدواوين) ـ تليفون : ٥٤٢٠٧٩